الوردة الذهبية

في صياغة الأدب

تأليف

ك. بوستوفسكي

الكتاب: الوردة الذهبية في صياغة الأدب

الكاتب: ك. بوستوفسكي

الطبعة: ٢٠٢٣

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

بوستوفسكي، ك.

الوردة الذهبية في صياغة الأدب / ك. بوستوفسكي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٧٤ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٨ – ٦٥٣ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٢٧٢٥٤ / ٢٠٢٢

الوردة الذهبية
في صياغة الأدب



"لا يخضع الأدب لقوانين الفساد، إنه خالد"

سالتيكوف– شكدرين

Saltykov- shchedrin

يجب أنْ يصبو المرء دائمًا إلى الجمال

أونوري دي بالزاك

Honoré de Balzac

كلمة المؤلف

نرى كثيرًا مما في هذا المؤلَّف غير مترابط، وربما كان يفتقر إلى الوضوح والكثير منه عُرضة للتساؤل.ليس هذا الكتاب بحثًا ونظريًا، ولا هو بأيَّة حال مُرشد إلى صناعة الأدب، بل يتضمن مجرد أفكاري واختباراتي الشخصية في محيط الأدب.

ولم أتعرَّض في هذا الكتاب إلى أُسس الأدب السوفيتي فيما يختص بفن بحث الأفكار الواسع الآفاق، إذ لا فرق بين آرائنا في هذا الأمر. ومِنَ الجَلِيْ لكل فرد أنَّ أدبنا يجب أنْ يكون أدبًا ذا قيمة تعليمية بالغة.

لم أتناول في هذا المؤلَّف سوى القليل الذي أُتيحت لي فُرْصَةَ روايته.

ولو استطاع هذا المؤلف أنْ يُمكِّن القارئ –ولو إلى قدرٍ ضئيل– مِنْ إدراك نواحي جمال الكتابة المبتكرة، لَجُزِيَ المؤلف بأكثر مما يستحق عمَّا بذل فيه من مجهود.

ك. بوستوفسكي

K. Paustovsky

الوردة الذهبية
التراب الثمين

لست أذكر ولا يمكنني أنْ أذكر كيف تأتي لي أنْ أسمع قصة "جان شاميت **Jean Chamette**" جامع القمامة الباريسي الذي كان يرتزق مِنْ كنس حوانيت الصُنَّاع وأرباب المهن في حيِّه وجمع قمامتها.

كان "شاميت" يسكن في كوخ حقير بضواحي باريس، إذا أردنا وصف بيئته؛ ذهبنا بالقارئ مذاهب شتى وخرجنا به عن الموضوع الأصلي للقصة، ولكنِّي أكتفي بالإشارة إلى أنَّ ضواحي باريس لا تزال إلى اليوم مُحاطة بتحصينات كانت وقت كتابة هذه القصة مأوى لجموع الطير، وتكسوها النباتات المتسلقة بأوراقها الخضراء الناضرة وأزهارها الفيحاء العاطرة. أمَّا كوخ "شاميت" فكان بجانب السور الشمالي في محاذاة أكواخ "السمكرية" "والإسكافية" وجامعي القمامة والشحاذين.

ولو أبدى "موباسان **Maupassant**" اهتمامًا بسكان تلك الأكواخ لَكَتَبَ قصصًا كثيرة تفوق هذه روعةً وإبداعًا . ولربما أضاف أمجادًا أخرى إلى تاجه الخالد. بِيْدَ أنَّهُ نادرًا ما كان الدخلاء يتسللون إلى هذه الأماكن –ما عدا المخبرين طبعًا– وحتى هؤلاء لم يكونوا ليطرقوا تلك الأطلال إلَّا بحثًا عن المسروقات.

كان جيران "شاميت" يلقبونه "بالنقّار"، ومنه نستنتج أنَّه كان هزيل الجسم، نحيل الوجه، تبدو من تحت قبعته خصلة من الشعر شبيهة بعُرف الطائر.

مرت "بجان شاميت" أيام أفضل عندما كان جنديًا بسيطًا في جيش "نابليون الصغير "**Napoleon le Petit** إبان الحرب المكسيكية، فقد ابتسم

له الحظ وقتذاك أيضًا، إذ أصابته نوبة من الحمى في "فيراكروز"Vera Cruz ، فتُقرر إعادته إلى وطنه دون أنْ يقاتل في مناوشةٍ حقيقيةٍ واحدةٍ، وقد انتهز الضابط الذي كان يتولى رئاسة فرقة "شاميت" هذه الفرصة ليُعيد ابنته "سوزان "Suzanne، وكانت في الثامنة من عمرها، إلى فرنسا.

اعتاد هذا الضابط الأرمل أنْ يصحب ابنته الصغيرة معه أينما ذهب، إلَّا أنْ جَوْ المكسيك كان قاتلًا بالنسبة للأطفال الأوروبيين، كما أنَّ المعارك الطاحنة لحرب العصابات كانت مليئة بالأخطار المفاجئة، ومِنْ ثَمَّ قرر الضابط – لأول مرة – أنْ يفترق عن ابنته الصغيرة ويبعث بها إلى شقيقته في "روين."Rouen

وهكذا أبحرت السفينة "بشاميت وسوزان" تُمخر عباب المحيط الأطلنطي في جو قائظ يلفح الوجوه ويلهب الأبدان. وقد ظلت الطفلة غارقة في خضم من الهموم، تعلو وجهها الصغير كآبة دائمة، حتى أنَّ الأسماك وهي تقفز إلى خارجِ المياه المتألقة وإلى داخلها لم تفلح في أنْ تحظى منها بابتسامة .

اهتم "شاميت" بالطفلة على خير ما في مكنته. وعلى أيةِ حال كان يشعر بأنَّها ليست في حاجة إلى الرعاية فحسب، بل وإلى العطف أيضًا، ولكن أي عطف هذا الذي يستطيع جندي سابق بكتيبة استعمارية أنْ يُبديه نحو فتاة في ميعة الطفولة؟ كيف يُمكنه أنْ يُسلِّيها؟ أيلعب معها النرد؟ أيغني لها إحدى أناشيد الجنود البذيئة؟

ومهما كان الأمر، فلا بد من إزالة ذلك البرود، فمِنْ حينٍ إلى آخر كانت الطفلة ترمق "شاميت" بنظرات حائرة. وأخيرًا استجمع شجاعته وأخذ يُسرد لها قصة مفككة عن حياته الشخصية، مُستعيدًا إلى ذاكرته جميع تفاصيل قرية صيد الأسماك، الواقعة على شاطئ القناة، حيث كان يعيش هو والرمال والبرك المتخلفة عن المد، وكنيسة القرية بناقوسها المصدوع، ووالدته وهي تستمع إلى هموم الجيران.

لم يجد "شاميت" في هذه الذكريات ما يُسلِّي "سوزان" أو يضحكها، أو حتى يخرجها عن عبوسها، غيرُ أنَّ الفتاة لدهشته أخذت تُصغي بشغفٍ إلى كل كلمة من كلماته، حتى أنَّها راحت تتوسل إليه أنْ يُعيد على مسامعها الحكايات التي رواها، ويتذكر تفاصيل أخرى جديدة.

وبحثًا عن هذه التفاصيل، كان "شاميت" يعصر ذاكرته عصرًا، لدرجة أنَّه لم يعد واثقًا من صحة الحوادث. فلم تكن هذه ذكريات حقيقية، بل أطيافًا شاحبة للذاكرة، متلاشية كخيوط الضباب، ولم يَحدُث "لشاميت" قط أنْ اضطر إلى النبش في ماضيه الكئيب المدفون منذ أمدٍ بعيد.

ذات يوم وَمَضَتْ بذهنه ذكريات باهتة للوردة الذهبية، لم يكن في مقدوره أنْ يُقطع هل رأى فعلًا تلك الوردة المصنوعة بغير مهارة من الذهب المسود، والمعلَّقة فوق الصليب بمنزل الصيادة العجوز، أم أنَّه سمع عنها قصة. والآن، ما أنْ شرع يُسرد القصة على مسامع "سوزان" حتى أحس بالثقة التامة تتسرب إلى نفسه، مِنْ أنَّه قد ألقى نظرة على تلك الوردة حقًا. فتذكر أنَّها كانت تتلألأ برغم عدم إشراق الشمس، وهبوب العاصفة على الفتاة. وكلما تعمَّق تفكيره في هذه الوردة، كلما تذكر بصورةٍ أوضح كيف كان الذهب يَبرُق تحت السقف المنخفض.

حار جميع أهل القرية في تعليل رفض تلك الصَّيَّادة أنْ تبيع كنزها الثمين، الذي كان يُقدر بمبلغ ضخم . كانت والدة "شاميت" وحدها هي التي تقول بأنَّ من الإثْمِ أنْ تبيع العجوز تلك الوردة الذهبية التي أهداها إياها حبيبها في أيام صباها، لتُجلب لها الحظ السعيد. كان ذلك منذ زمن بعيد عندما كانت هذه الشمطاء فتاة صغيرة في ريعان شبابها تعمل في "أوديرني"**Audierne** ، في مصنع لتعبئة السردين .

كانت والدة "شاميت" تقول: "إنَّ الورود الذهبية قليلة في هذا العالم،

والمحظوظون جدًا من الناس هم الذين يقتنونها؛ ولا بد لهم من السعادة. ولا تجلب تلك الورود الحظ السعيد لمن يملكها فحسب، بل ولكل من يلمسها أيضًا.

كان "شاميت" وهو صبي يتحرق شوقًا إلى اليوم الذي تبتسم فيه الثروة للصيادة الشمطاء ولكنَّ هذا لم يحدث؛ فقد ظل كوخها يهتز في الأعاصير، ولم يُبدِّد أي ضوء ظلمةَ الليل الحالكة.

رحل "شاميت" عن القرية دون أنْ يرى تغيرًا ما في حال المرأة الدردبيس، غير أنَّه التقى في هافر "Havre"بعد مُضِي عام بأحد أفراد القرية، وكان يعمل وقَّادًا في باخرة للبريد، فعلم منه أنَّ ابن السيدة العجوز، وكان رسامًا ذا لحية، دائم المرح، قد حضر إلى القرية على غير انتظار بعد أنْ هجر باريس، فبدل حضوره الكوخ وملأه بالبهجة والخيرات، وكما يقولون: "يحصل الفنانون على مبالغ طائلة في مقابل لوحاتهم غير المُتقَنة. "

وذات صباح طاب هواؤه، بينما كان "شاميت" "وسوزان" جالسين على ظهر السفينة، وهو يُمشط شعرها غير المُصفَّف بمشطه المعدني، سألته "سوزان": "جان، ألن يعطيني أحدٌ أبدًا وردة ذهبية"؟

قال: "لا يمكنك أنْ تُجزمي يا سوزي، فربما يأتي وغدٌ ما ويهديك واحدة، لقد كان بفرقتنا جندي فتَّت في عضده السنون، حالفه كل ما في الدنيا من حظ؛ ففي إحدى الأمسيات عثر على أسنان ذهبية في ميدان الوغى، فدعى الفرقة بأسرها إلى احتساء الخمر، وكان هذا إبان الحرب في "أنام"Annam ، فأخذ رجال المدفعية السكارى يُطلقون النيران من مدافع الهاون لمحض الدعابة، فسقطت إحدى القذائف في فوهة بركان خامد، فإذا به يثور ويملأ الدنيا بالحمم، ولتحل بي اللعنة إنْ كنت أتذكر اسم ذلك البركان، وكل ما أعرفه أنَّه ربما كان "كراكا– تاكا " Kraka– Taka لقد كان ثورانًا بمعنى الكلمة! فَقَدَ فيه

أربعون مواطنًا أرواحهم، فما أقبح أن يموت الأبرياء! كل ذلك بسبب طقم أسنان عتيق متآكل! بعد ذلك تبين أنَّ تلك الأسنان كانت لرئيس فرقتنا، وكانت مُهشمَّة بطبيعة الحال. ومع كلٍ، فلا مندوحة من المحافظة على سمعة الجيش، ولكننا تمتعنا بنشوة الصهباء!

قالت سوزي: وقد داخلها الشك: "وأين حدث ذلك؟"

قال: "لقد أخبرتك، أليس كذلك؟ حدث ذلك في أنام بالهند الصينية، حيث يغلي المحيط بنيران الجحيم، ويبدو قنديل البحر كحزام ملتف حول "جونلات" الراقصات، وكانت المنطقة شديدة الرطوبة لدرجة أنَّ فُطر عش الغراب كان ينمو في أحذية الجنود أثناء الليل، وليشنقوني إنْ كنت كاذبًا."

وبالرغم من أنَّ "شاميت" كان قد سمع كثيرًا من قصص الجنود عدا أنَّه – هو نفسه– لم يروِ أية قصة منها، وليس ذلك راجع إلى ما لديه من وساوس بخصوص اختراع الحكايات؛ ولكن –إلى حدٍ ما– لم تكن به حاجة إلى ذلك. أمَّا الآن فقد صار مستعدًا للقيام بأي شيء من أجل تسلية سوزان.

سلَّم "شاميت" "سوزان" لعمتها في "روين"، وكانت سيدة كهلة، فارعة الطول، ذات فم أصفر قد تغضنت شفتاه، وبدت في ثوبها الموشى بالخرز الأسود كأنَّها ثعبان في "سيرك"، فما أنْ وقع بصر الطفلة على تلك الحية الرقطاء حتى ارتعدت فرائصها وأعضاءها، وتعلقت في يأس بسترة شاميت الواسعة الكالحة.

"لا تخافي يا صغيرتي"، هكذا همس شاميت وهو يَحُث سوزان على التقدم نحو عمتها، ثم قال: "هل تظنين أننا نختار قادتنا في الجيش؟ تجملي بالصبر، يا سوزي، إنَّك صبية جندية."

ابتعد شاميت وهو يُطل وراءه بين الفينة والفينة، نحو نوافذ المنزل الكئيب الذي كانت تسكن فيه عمة سوزان، وأخذ يشق طريقه خلال الشوارع المزدحمة، مصغيًا إلى دقات الساعات في الحوانيت الصغيرة، وكان يحتفظ في حقيبته بالشريط الأزرق المتغضن الذي كانت تُحلي به سوزان شعرها، وكانت رائحته فياحة حلوة كما لو كان قد وُضع طويلة في سلة مليئة بأزهار البنفسج.

عصفت الحمَّى المكسيكية بصحة شاميت؛ وإذ طُرد من الجيش دون الحصول على أية رتبة عسكرية، وانخرط بعد ذلك في مشاكل الحياة المدنية.

مضت سنون غير قليلة في نضال رهيب مع الفقر، لقد قاسى الكثير في شتَّى الوظائف قبل أنْ يستقر في عمله الأخير كجامع للقمامة في باريس. وكانت رائحة المجاري وأكوام القمامة تلاحقه أنَّى ذهب، وبدت كأنَّما يحملها النسيم الرقيق من جهة "السين"Seine، كما كان يشمها في باقات الأزهار الرطبة التي تبيعها العجائز الأنيقات على جوانب الطرقات.

مرت الأيام تتلوها الأعوام، تتلاشى إلى عدم مظلم، لا يخفف وقعها إلا شبح واحد وردي اللون، كان يظهر له من حينٍ إلى حين وسط الظلام، فيَجْلُب معه نضرة الربيع– ذلك هو منظر سوزان في ردائها العتيق. وكأنَّ ثوب سوزان كشريطها، قد ظل طويلاً في سلة من نوار البنفسج.

أين كانت سوزان؟ ماذا حدث لها؟ كان يعلم أنَّ أباها قد مات جريحًا، وإنَّها الآن فتاة ناضجة الأنوثة تفيض حيوية ونشاطًا.

كثيرًا ما علل شاميت نفسه بالذهاب إلى روين والعثور عليها، بيد أنَّه كان يُسوِّف الرحلة إلى أنْ أحس بتأخره كثيرًا، وإنَّ سوزان قد نسيت كل شيء عنه؛ طفق يلعن نفسه بسبب فظاظته عند افتراقهما. لماذا لم يَقبلُها بدلًا من دفعها

دفعًا إلى تلك الحيزبون الشهربة وقوله لها: "تجملي بالصبر، يا سوزي، فأنت صبية جندية."!

يعمل جامعو القمامة في باريس ليلًا، لسببين: الأول– أنَّه في نهاية النهار تتراكم كميات ضخمة من فضلات الأطعمة كنتيجة لنشاط البشر العنيف غير المجدي، والثاني– أنَّه لا يجب أنْ تُعكِّر رؤية ورائحة الفضلات صفو حياة الباريسيين. والمخلوقات الوحيدة التي يهمها عمل أولئك القوم ليلاً هي: الفئران.

كان شاميت يحب العمل في ساعات الصباح الباكر القليلة، وكان يتأثر بجمالها، وخصوصاً متى لمعت خطوط الفجر الأولى في أفق السماء فوق المدينة الفسيحة، وتكاثف ضباب الصباح المبكر منخفضاً فوق نهر السين.

ذات صباح، وقد شقَّ الفجر الندي بخنجره البراق أستار الظلام، كان شاميت يعبر جسر المرضى **Pont des Invalides** فإذا بصره يقع على فتاة في ثوب بنفسجي باهت، تقف عابسة الأسارير عند الحاجز تتطلع إلى مياه السين القاتمة.

رفع شاميت قبعته المُغبَّرَة، وقال: "آنستي، إنَّ السين في هذه الساعة شديد البرودة، فهلا سمحتِ لي بأنْ أراكِ في المنزل؟."

قالت في سرعة: "لم يعد لي منزل"، واستدارت نحو شاميت.

سقطت القبعة من يد شاميت، وصاح قائلًا :

"سوزي!" مظهرا السرور والرهبة في آنٍ واحد. "سوزي، الصبية الجندية! فتاتي الصغيرة! لقد التقينا، أخيرًا. إنكِ لم تنسيني، أم تراكِ فعلتِ؟ أنا جان، جان إرنست شاميت، الجندي السابق بالكتيبة الاستعمارية السابعة والعشرين،

الرجل الذي جاء بكِ إلى تلك الساحرة الشمطاء في روين. كم صرتِ جميلة، يا سوزي! شعرك، إنَّه بديع، وما كنت أعرف أبدًا كيف أمشطه."

صاحت سوزي: "جان!" وطوَّقت عنقه بذراعيها، فانحدرت الدموع من مآقيها غزيرة، وطفقت تقول: "جان، جان العجوز الطيب! طبعًا أذكرك. جان، إنَّك ما زلت شفوقًا كعادتك دائمًا"!

فتمتم شاميت: "شفوقًا؟ يا للهراء! خبِّريني ماذا حدث، يا صغيرتي؟"

جذب شاميت سوزان نحوه، وفعل ما سبق أنْ تردد فعله وقت أنْ كان في "روين" فمر بيده فوق شعرها اللامع السبط، وطبع عليه قبلة، ثم استدار مبتعدًا بسرعة؛خشية أنْ تصل رائحة سترته إلى أنف الغادة الحسناء البائسة، أمَّا هي فتعلقت بكتفه.

كرر شاميت سؤاله الأول في رِقَّة قائلًا: "ماذا حدث، يا صغيرتي؟ "

لم تُجب سوزان على سؤاله، إذ كانت غير قادرة على كبح جماح نحيبها؛ فأدرك شاميت من فوره أنَّ هذا ليس وقت الأسئلة.

كان شاميت هو البادئ بالكلام ليقطع على سوزان بكاءها، فقال: "عندي مكان بالقرب من السور القديم يبعُد عن هُنَا بعض الشيء، ليس هناك ما يؤكل –للأسف–، ولكن تستطيعين أنْ تغلي بعض الماء، وتستحمي، وتنامي، يمكنك أنْ تمكثي به ما شئتِ أنْ تمكثي."

بقيت سوزان خمسة أيام في مسكن شاميت، ولمدة خمسة أيام لم تشرق على شاميت في باريس كلها شمس أكثر إشراقًا.

لقد أضاءت بسناها المتلألئ جميع المنازل، حتى أكثرها ظلامًا وقذارة،

وسائر الحدائق، وكوخ شاميت، كأثمن الجواهر قيمة.

ومن لم يحس بأنَّ نبضه قد أسرع عند مشاهدة التنفس المنتظم لتلك الحسناء النائمة، لا يعرف ما هي الرقة، كان لشفتيها حمرة تويجات الورود الندية، وكانت أهدابها تلمع من كثرة الدموع التي زرفتها أثناء الليل.

ارتاب شاميت في أمر سوزان، وساورته الظنون فيما حدث لها، ولم يكن في ريبته قد ابتعد عن الحقيقة، لقد خدعها حبيبها، وهو ممثل شاب، بيد أنَّ المسألة لم تكن في حاجة لأكثر من تلك الأيام الخمسة التي قضتها سوزان مع شاميت، لإيجاد تسوية للموضوع. ولم تأخذ الأمور مجراها السليم بدون مساعدة شاميت،إذ كان هو الذي حمل خطاب سوزان لحبيبها الأنيق المتغطرس، الذي تلقى درسًا في الأخلاق الحميدة؛ عندما حاول أنْ يدس بضع دريهمات في يد شاميت.

ما هي إلَّا عشية أو ضحاها حتى جاء الممثل في عربة ليصحب سوزان إلى عشهما، كان الصلح مصحوبًا بباقة الأزهار العَبِقَة التقليدية، والقُبلات، والضحك، والدموع، والندم، وقليل من الطيش ... لقد ملكت فرحة اللقاء على سوزان لُبها وصوابها، لدرجة أنَّها قفزت إلى العربة دون أنْ تودع شاميت، ولكن لم تُمض غير برهة حتى عادت إلى رُشدِها؛ فأحمر وجهها خجلًا ؛ ومدت إليه يدها كالآثمة.

تمتم شاميت، قائلًا: "لو أنَّ هذا هو لون الحياة التي تعشقينها؛ فهنيئًا لك"!

قالت: والدموع تتلألأ في مُقلتيها: "لست أعرف شيئًا عن الحياة."

فقال الممثل في لهجة الحانق: "ليس فيها ما يستحق الاهتمام يا معبودتي".

أجابت سوزان وهي تتأوه: ليت أحدًا يعطيني وردة ذهبية للحظ، إِنّي لواثقةٍ من أنَّها ستجعلني سعيدة. آه، يا عزيزي جان، لا زلت أذكر القصة التي رويتها لي فوق ظهر الباخرة."

قال شاميت: "سوف يُقيِّض الله لك شخصًا ما يُعطيك إياها، وعلى أية حال فلن يكون هو متأنقك هذا ... معذرةً يا سوزي، فإنّي جندي لا أستطيع أنْ أطيق المتأنقين."

تبادل الزوجان الشابان النظرات، ثم هز الممثل كتفيه، وانطلقت العربة في طريقهما.

انصرف شاميت إلى عمله كعادته، يجمع القمامة من الحوانيت في نهاية اليوم، غير أنَّه منذ أنْ ودَّعته سوزان لم يعد يضع التراب الذي يجمعه من حوانيت الصياغ في مستودع القمامة كما يفعل في سائر الفضلات الأخرى، بل يحتفظ به في كيس يأخذه معه إلى منزله كل ليلة؛ فظن الجيران أنْ قد أصابته لوثة، فما يعرف غير القليلين أنَّ بذلك التراب قَدْرًا ضئيلًا من مسحوق الذهب الذي يتساقط على الأرض تحت مبرد الصائغ.

كانت خطة شاميت السرية تتلخص في غربلة التراب الذي يجمعه من حوانيت الصياغ؛ أملًا في أنَّه بمرور الزمن سيجتمع لديه كمية قليلة من الذهب يمكنه – فيما بعد – أنْ يصنع منها وردة صغيرة يهديها إلى سوزان لكي يُدخل السعادة إلى قلبها، كما اعتادت أمه أنْ تقول: "إنَّها تجلب السعادة لكثير من المملقين". ومن يدري؟ لقد وطن العزم على ألَّا يرى سوزان إلَّا بعد أنْ يتم صنع الوردة.

احتفظ شاميت بالسر لنفسه خشية إثارة شكوك الشرطة، الذين يؤثر الابتعاد عنهم، إذ ربما قبضوا عليه؛ باعتباره لصًا، وأودعوه السجن، وسلبوه كل ما عنده من ترابه الثمين، وعلى أية حال فليس ملكه.

كان شاميت قبل أنْ ينضم إلى الجيش قد اشتغل فلاحًا في مزرعة قسيس

القرية، كان يعرف كيف يُذري الحبوب، وكانت معرفته هذه ذات نفع عملي له الآن. لقد تذكر كيف كانت الحبوب الثقيلة تسقط إلى الأرض، بينما تحمل الريح التبن معها بعيدًا؛ ومِنْ ثَمَّ صنع شاميت مروحة صغيرة للتذرية، فإذا ما جَنَّ الليل شرع يغربل التراب الذي حصل عليه من حوانيت الصياغ، وكان قلبه يقذف فرحًا في كل مرة يقع بصره على ذرات قليلة صفراء لامعة في قاع الصينية.

مضى وقتٌ طويل قبل أنْ تتوفر لديه كمية كافية من مسحوق الذهب ليصنع منه الوردة، ولكن عندما تجمعت لديه هذه الكمية أخيرًا؛ تردد في إعطائها لأحد الصُّياغ ليصنعه على شكل وردة ذهبية جميلة، ولم يكن سبب ذلك عدم وجود المال؛فأي صائغ يرضى بأنْ يحصل على ثلث الذهب أجرًا له؛ وإنَّما كان السبب الحقيقي أنَّه متى أُعدت الوردة كان عليه أنْ يرى سوزي، وبقدر ما كان يتحرق شوقًا إلى هذا اللقاء، كان التفكير فيه يملأ نفسه بشتَّى الهواجس.

احتفظ شاميت بكل ما في روحه من معالم الرقة والحنان من أجل سوزي، ولكن مَنْ ذا الذي يُريد حنان رجلٍ مهلهل الثياب عجوزٍ مخيف، يَجُرُّ نفسه جرًا فوق ساقين كسيحتين قد برح بهما الروماتزم؟ وكثيرًا ما لاحظ شاميت نفور معظم الناس منه، كان منظر وجهه الممتقع الأغبش، بجلده المتغضن وعينيه المنتفختين، يُعبِّر عن كل شيء إلَّا كونه جذابًا. كان يحتفظ في كوخه بكسرة صغيرة من مرآة، وكان في مناسبات نادرة ينظر إلى صورته فيها، ولكنَّه سُرعان ما يقذف بها بعيدًا وهو يلعن، مِنَ الأفضل بكثير ألَّا يرى صورة نفسه.

لما انتهى الصائغ من صنع الوردة، وأصبحت مُعدة أخيرًا، عَلِمَ شاميت أنَّ سوزان قد رحلت في العام السابق إلى أمريكا، على ألَّا تعود إلى باريس بعد ذلك إطلاقًا، هكذا قالوا له، ولم يعرف أحدٌ عنوانها .

بدأ شاميت – في أول الأمر – يحس بالراحة نوعًا ما لهذا النبأ، غير أنَّ خيبة أمل بالغة صارت تحزُّ في نفسه كما لو كانت قطعة من الحديد الصدئ، الحادة الباردة، توخز صدره، وكانت تبدو قريبة جدًا، لدرجة أنَّ شاميت كان يُصلِّي مِنْ أجل أنْ تخترق قلبه المُتعب وتوقِّف ضرباته إلى الأبد.

ما عاد شاميت يجمع القمامة بعد الآن، كان يرقد صامتًا في فراشه لعدة أيام، وكان وجهه يتجه صوب الحائط، ومرة واحدة فقط ابتسم، ضاغطاً كُم سترته العتيقة على عينيه، ما مِن أحدٍ من جيرانه كان يعيره أي اهتمام، فقد كانت تشغلهم همومهم الخاصة، وعلى أية حال، فقد كان هناك شخص واحد يراقب شاميت، كان هذا هو الصائغ الهرم الذي صاغ ذهب شاميت إلى وردة ذهبية بالغة الرقة، مع بُرعم صغير مدبَّب، فوق غُصنٍ دقيق، وكان هذا الصائغ يعود شاميت في داره باستمرار، ولكنَّه لم يكن ليحضُر له أبدًاَ أي دواء، بل كان واثقًا كل الثقة مِنْ أنَّه لا أمل في شفاء ذلك المسكين البائس.

ولئن أردت الحق، مات شاميت الطيب أمام عيني الصائغ الجشع، فرفع هذا رأس الرجل الميت؛ وأخذ الوردة الذهبية من تحت وسادته القذرة، ملفوفة في شريط أزرق مجعد، وانصرف في هدوء بعد أنْ أغلق وراءه الباب المخلع، وكان بالشريط رائحة الجرذان.

كان الصائغ مغرمًا بتوافه الآراء، فقال في نفسه ما تضن به الحياة يجود به الموت."

بعد ذلك بوقتٍ قصير باع الصائغ الوردة لكاتبٍ عجوز يرتدي أسمالًا بالية، كان في رأي الصائغ ليس من الثراء بحيث يُمكِنه أنْ يشتري أي شيء ثمين كالوردة الذهبية، جلي أنَّ القصة التي رواها الصائغ عن أصل الوردة سحرت ذلك الكاتب، حتى أنَّه عقد العزم على شرائها.

كان هذا الكاتب المُسن صاحب جريدة، وإنَّا لنُدِين بهذه الجريدة بقصة "جان إرنست شاميت"، الجندي السابق بالكتيبة الاستعمارية السابعة والعشرين.

كتبت هذه الصحيفة بين ما كتبته، هذه الفقرة:

"إنَّ كل دقيقة، وكل كلمة، وكل نظرة عابرة، وكل فكرة –عميقة أو تافهة– وكل نبضة من نبضات القلب البشري الخفية، وبالمثل كل الزغب المُتساقط من أشجار الحور، وضوء النجوم المُتلألئ منعكسًا على صفحة الغدير، كل هذه ذرات من تراب الذهب. ونحن (معشر الكُتّاب) نجمع بمضي السنين –وعن غير قصد– الملايين من هذه الذرات الدقيقة ونحتفظ بها إلى أنْ نُشكل منها وردتنا الذهبية الخاصة،سواء أكانت قصة، أو رواية، أو قصيدة من هذه الذخائر الثمينة يُولد تيار الأدب."

"وإِنِّي لأعتبر قصة وردة شاميت الذهبية رمزًا لصياغة الأدب، وكما كان لوردة الكناس الذهبية أنْ تجلب السعادة لسوزان، هكذا أيضًاَ حال ما نكتبه، لا بد لهذه الكتابة مِنْ أنْ تلعب دورها في أنْ تؤكِّد للأذهان أنَّ الجمال، والسعي وراء السعادة والسرور والحرية، والكرم والمنطق، كل هذه تُبدِّد الظلمات، وتشرق بنا الشمس الدائمة ."

النقش على الصخرة

"لا تتم غبطة الكاتب إلَّا إذا اقتنع بأن ضميره على وِفَاق مع ضمائر أقرانه"

سالتيكوف– شكدرين

أذكر أنَّني كنت أعيش ذات شتاءٍ في كوخ بجانب البحر، يُطل على كُثبان الرمال الممتدة على سواحل بحر البلطيق، وكان الجليد يتراكم كثيفًا بمحاذاة الشاطئ كله، كان الثلج يتساقط من أشجار الصنوبر الضخمة في خيوط وَبَرِيَّة تذروها الريح. وكنت أستطيع أنْ أسمع السناجب الصغيرة القافزة عندما تهدأ الريح ويشمل السكون كل شيء، وهي تقرض مُطر الصنوبر.

كان البحر على مسافة ياردات قليلة من كوخي، ولكي أصل إليه كان عليّ أنْ أقطع ممرًا صغيرًا بجوار كوخ غير مسكون على نوافذه ستائر، فإذا اهتزَّت تلك الستائر بفعل الريح التي كانت تتسرب إلى الكوخ من خلال الشقوق المختلفة؛ خُيل إليَّ أنْ شخصًا ما يُراقب حركاتي سرًاً وهو يزيحها .

كان الجليد الذي تركت عليه الأرانب آثارها يمتد إلى حافة الماء، في حين أنَّ البحر نفسه لم يكن متجمدًا. وفي ذلك الجو العاصف لا يسمع المرء هدير الأمواج، إذ يعلو عليه حفيف الثلوج المتساقطة وصوت تراكم الجليد، وإنَّ شواطئ البلطيق لقارسة البرودة في الشتاء؛ ولذا تهجرها الأحياء. وقد أَطْلَق "اللتفيون "Latuians على بحر البلطيق اسم "بحر الكهرمان Dzintara) " (Jùra، وليس هذا –على ما أعتقد– لأنَّه يقذف كثيرًا من الكهرمان، وإنَّما بُسبب لون مائه الأصفر الكهرماني.

وطوال اليوم كله يُغشّي الأفق ضباب كثيف فيطمس حدود الشواطئ، بينما تُبدِّد رقائق الثلج الكثيفة البيضاء الظلمة في كل مكان.

في ذلك العام كان الإوز البري قد عاد مبكرًا جدًا، وطَفِقْ يعوم في الماء ويثرثر في ضجيج صاخب. فكنتَ تسمع صياحه وأنت على الشاطئ دون أنْ يتلقى ردًا لذلك الصياح، إذ نادراً ما تضم الغابات الساحلية أيَّةْ طيور حية.

كانت الحياة –نهارًا– في الكوخ الصغير الذي أعيش فيه عادية جدًا، فهذه كتل الأخشاب تطقطق في الوطيس المغطَّى بالقرميد، وصوت آلتي الكاتبة يُمزِّق السكون، بينما تجلس "ليليا "Lilya مديرة منزلي القليلة الكلام، تعمل في أشغال الإبرة في الردهة الأنيقة، بِيدَ أنَّه ما إنْ يقترب المساء حتى يَحِل على المكان جو غريب، ففي ديجور الظلام كانت أشجار الصنوبر السامقة تضغط بشدة على الكوخ، وتبدو ظلمة الليل القاتمة والبحر المنعزل كأنَّهما يتقدمان نحوي ليبتلعاني وأنا أخطو من الردهة الساطعة الضوء إلى الدُّجى المخيف.

كان البحر يمتد مئات الأميال إلى مسافات سوداء حالكة لا تَرى فيها بصيص ضوء ولا تسمع خرير ماء في أي مكان: إنَّه الخلاء الكثيف الضباب، حيث يقوم كوخنا الصغير أشبه بالمنار، كان هذا نهاية اليابسة وكنت أُفكِّر في غرابة تباين الأضواء المتلألئة الهادئة في داخل الكوخ، وصوت الموسيقى الحلوة في المذياع، والطنافس الناعمة التي تكتم وقع الأقدام، والكتب المفتوحة فوق المنضدة، مع ذلك الفضاء الواسع الرهيب في الخارج.

وإلى الغرب، تجاه "فنتسبلز "Ventspils خلف سياج من الضباب القاتم، تقع قرية صغيرة يَقطن فيها صيادو الأسماك، كانت قرية عادية أوَّل ما ترى فيها شِبَاك الصيد مُعلَّقة خارجها لتجف، وبها أكواخ ذات سقوف منخفضة ينبعث الدخان من مداخنها في سحب مقوسة، وتضم كلابًا وفيَّة طويلة الشعور، وتقف بجوار الشاطئ زوارق بخارية سوداء.

عاش الصيادون اللتفيون في هذه القرية منذ عدة قرون، جيلًا بعد جيل وبمرور الزمن صارت الفتيات الحسناوات ذوات اللحاظ الفتاكة في خفر، والأصوات الموسيقية العذبة، سيدات مسنَّات لَفَحَ الجو بشرتهن، وارتدين الشيلان فوق أكتافهن، وغدا الشبان الأقوياء اليافعون ذوي القبعات الرقيقة الجميلة شيوخًا وادعين قد وَخَطَ المشيب لحاهم.

يخرج أولئك الصيادون إلى البحر لصيد السردين، كما كان يفعل آباؤهم لعدة قرون خلَّت، وأحيانًا لا يعود بعضهم من رحلته، ولاسيما في فصل الخريف إذ تزمجر العواصف البنفسجية في بحر البلطيق، فتجعل مياهه الثلجية ترغى وتزبد كأنَّها مرجل الشيطان. وتتعرى رءوس بعد رءوس من شعرها حزنًا على أولئك المفقودين في البحر، ولكن بالرغم من هذا لا يفكر الصيادون قط في هجر تلك المهنة المحفوفة بالمخاطر والمشقَّات التي توارثوها عن الآباء والأجداد، إنَّهم يواجهون الأخطار بشجاعة، فصلًا بعد فصل.

هناك صخرة شامخة تَبرُز من البحر على مسافة غير بعيدة من القرية، نَقش عليها قَدامى الصيادون منذ عدة سنوات، هذه العبارة: "لتخليد ذكرى من فقدوا ومن سيفقدون في البحر."

أخبرني بهذه العبارة أحد الكتاب اللتفيين، فكان لها نفس الحزن الذي تحس به وأنت تقرأ عبارة منقوشة على ضريح، بيد أنَّ الكاتب اللتفي هز رأسه وقال :

"إنَّها عبارة تنطوي على البسالة والإقدام، إنَّها شاهد على الروح التي لا تثنيها عن عزمها الأخطار مهما عظمت، ولسوف استعملها كحكمة قديمة شعارًا لأي كتاب يُشيد بأعمال الإنسان ومثابرته على العمل. وسأفسرها هكذا: "لتخليد ذكرى من أبحروا وما زالوا يبحرون في البحر."

لم يسعني إلَّا أنْ أوافقه على رأيه، ووجدت أنَّه يمكن استعمال هذه الحكمة الملائمة تمامًا لوصف الكُتَّاب ومؤلفاتهم .

لن يتقهقر الكاتب دقيقة واحدة أمام الصعوبات أو العقبات، فمهما يحدث لا بد أنْ يستمر من حيث وقف أسلافه، ولا بد أنْ يتم الرسالة التي عهد إليه بها معاصروه. لقد كان سالتيكوف– شكورين محقًا عندما قال إنْ دقيقة صمت واحدة في جانب الأدب لتعادل موت الأمة .

من الخطأ كل الخطأ أنْ نعتبر الكتابة محض مهنة أو صناعة، فما الكتابة إلَّا مصطلح يخلقه حافز داخلي نبيل.

وماذا يضطر الكاتب إلى إتباع ذلك الحافز في العذاب والسرور؟ أول شيء هو: نداء قلبه الآمر.

لا يسمح صوت الإحساس والثقة بالمستقبل، لمن يشعر في قرارة نفسه بالحافز إلى الكتابة، بأنْ يحيا حياة خاملة، ولا ينقل لغيره شتَّى الأفكار والعواطف المتعددة النواحي التي تفيض بها نفسه.

بَيْدَ أنَّ الأمر يحتاج إلى أكثر من نداء القلب ليخلق من الرجل كاتبًا. ففي حداثة شبابنا نستجيب، نحن معشر الكُتاب، في الوقت الذي لم تؤثر فيه الحياة في دنيا عواطفنا الفتية بالتقسية أو بالهدم – إلى صدى نداء قلوبنا. وفي سني حياتنا الفاضحة نُصغي إلى نداء يفوق هذا أهمية، هو: نداء عصرنا، ونداء شعبنا، ونداء الإنسانية. وإنَّا لنتطلع إلى الاشتراك في تحقيق بعد نظر الإنسان.

يقتحم المرء نيران الجحيم، ويفعل المعجزات، مُنقادًا بذلك الوازع الداخلي.

وخير مثال لهذا: حياة الكاتب الهولندي "إدوارد ديكر **Edward Dekker**" الذي اتخذ اللقب الكتابي "مولتاتولي **Multatuli**" ومعناه: تَحَمُّل الآلام طويلًا.

ولسوء الحظ لم تصلنا خير كتاباته، الأمر الذي هو أشد الأجزاء حزنًا في القصة التي أريد أنْ أُحدِّثك بها.

اتجهت أفكاري نحو "ديكر" في الكوخ الصغير على الكثبان البلطيقية، وربما كان هذا؛لأنَّ نفس ذلك البحر الشديد البرودة تقع عليه الأراضي الواطئة "وطنه"، وقد قال عن تلك الأرض بمرارة وخجل: "أنا ابن هولندا، ابن أرض اللصوص، الواقعة بين فريزلاند Friesland وسكلدت. "Scheldt

لا شك في أنَّ ديكر كان مخطئًا، ففي هولندا لصوص متحضرون، ولكنَّهم أقلية ضئيلة، وليسوا –بحالٍ ما– نموذجًا للشعب الهولندي. وكلنا نعرف هولندا أرضًا لشعب كادح، له روح التَّمرُّد "الكلسي "Class وروح "ثيل أويلنسبيجل "Thyl Uylenspieqel، تسكن الروح الكلسية في قلوب كثير من الهولنديين كما كانت تسكن قلب "مولتاتولي. "

نشأ "مولتاتولي" من أصلٍ عريق، وتخرَّج أيام شبابه في الجامعة بدرجة شرف، وعُين بسرعة في منصب حكومي بجزيرة "جاوة "Java محافظًا لإحدى الأقسام الإدارية بتلك الجزيرة. فكانت تنتظره كلٌ من: الشهرة والجاه والثراء، وحتى منصب نائب الملك هناك. غير أنَّ نيران روح التمرد الكلعسي كانت تتأجَّج بين جوانح "مولتا تولي" الذي كان يحتقر الثراء الدنيوي.

ناضل "مولتا تولي" بشجاعة نادرة ومثابرة منقطعة النظير لوضع نهاية لروح استعباد الهولنديين لأهالي جاوة، التي كانت سائدة هناك منذ القدم. فكان يقف دائمًا إلى جانب الوطنيين المستعبدين، يعمل جاهدًا لإنصافهم والنظر في شكاواهم، فضرب بقسوة على أيدي المرتشين. وعندما ثار أهالي جاوة ضد من استبدوا بهم، عطف "مولتا تولي" (ذلك الموظف الحكومي الهولندي الرفيع المنصب) عطفًا بالغًا على أولئك "الأطفال المستسلمين" (كما كان يسميهم). فاتَّهم مواطنيه باتخاذ سياسة خشنة ظالمة.

شَهَرَ "مولتا تولي" بالخطة التي لجأ إليها القواد الهولنديون، إذ انتهز هؤلاء القواد فرصة حب أهالي جاوة للنظافة:النظافة التي فُطر عليها الجاويون الذين يكرهون ويمقتون كل ما هو قذر. فلما عرف القواد ذلك؛ أمروا جنودهم بالهجوم على الوطنيين وقذفهم بالبراز البشري، وعندما اشتدت هجمات الهولنديين بهذا على الجاويين؛ ضعف هؤلاء أمام هذه الخدعة الجديدة وتقهقروا.

لم يخش مولتا تولي أنْ يُجاهر بازدرائه للقواد الهولنديين ولنائب الملك وحاشيته، وكلهم بطبيعة الحال من المسيحيين. ولكن هل عمل هؤلاء بالحكمة المسيحية "حب جارك كنفسك"؟ لم يكن منطقه في حاجة إلى رد، وإنَّما كان في الإمكان إزاحته من الطريق.

فُصل مولتا تولي من منصبه –بلا ريب– وأُمر بالعودة إلى وطنه. ولمَّا كان عضوًا في البرلمان الهولندي لعدة سنوات، فقد طلب بإلحاح معاملة الجاويين بالعدل، متحينًا كل فرصة للإلحاح في قضيته، مُرسلًا عريضة إثر عريضة إلى الملك ووزرائه، ولكِن ذهبت جهوده صرخة في واد، فلم يستمع إلى ندائه أحد، بل قالوا إنَّه معتوه، وذهبوا أكثر من ذلك فرموه بالجنون أيضًا؛ فقاست عائلته ألم المسغبة.

كان في هذا الوقت أنْ حثه الوازع على الكتابة. لقد كان الوازع كامنًا في نفسه طوال الوقت، ولكنَّه أحسَّ الآن بمَسِيسْ الحاجة إلى الاستجابة لهذا الحافز؛ فكتب قصة عن الهولنديين في جاوة بعنوان "ماكس هافلار Max Havelaar"؛ ولكنَّها لم تُنشر. وقد أحسَّ في أولى كتاباته الخيالية بأنَّه كاتب "رسائل الغرام"، كان مكتوبًا بقوة مدهشة،قوةَ الرجل الذي لديه الشجاعة على إبداء اتهاماته. فرفع صوته في عدة فقرات من هذا الكتاب يحتج على الظلم الوحشي الجاري في العالم، ونراه في فقرات أخرى سليط اللسان في دهاء وذكاء

وبديهة حاضرة. أمَّا الفقرات الأخيرة فكتبها بشيءٍ من الدُّعابة التي تنم عن الحزن والألم العميقين: وهي محاولات لإحياء الإيمان بالإنسانية الذي هو من خصائص الطفولة والشباب.

قال في إحدى الفقرات: "لا يمكن أنْ يكون هناك رب، لأنّ الرب يجب أنْ يكون رحيمًا وطيبًا ..."، ويقول بعد ذلك: "متى –للأسف– سيكُف هؤلاء عن سرقة الفقراء؟."

غادر مولتا تولي هولندا بحثًا عن الرزق في بلاد أخرى، وبقيت زوجته وأولاده في أمستردام؛ إذ لم تكن لديهم أجرة السفر.

ظل مولتا تولي يكتب طول الوقت وهو يُصارع الفقر في مدن أوروبا بروحٍ ساخرة معذبة، يتحاشاها المجتمع المحترم لم يتلقّ من وطنه إلَّا خطابات قليلة؛ لأنَّ زوجته الفقيرة لم تستطع توفير ثمن طوابع البريد، ولكنَّه رغم هذا لم ينقطع التفكير فيها وفي أولاده، وخصوصًا ابنه الصغير. لقد خَشِيَ أنْ يفقد ذلك الطفل الأزرق العينين ثقته بالناس في حياته المبكرة؛ فتوسل إلى أصدقائه بوطنه أنْ يحموا ذلك الطفل من غائلة اليأس الذي لا ضرورة له.

لم يتمكن مولتا تولي من العثور على ناشر لكتبه، غير أنَّ الحظ جاء على غير انتظار، إذ قبِلَ بعض مشاهير الناشرين شراء مخطوطاته، على شرط: أنْ يتنازل لهم عن جميع حقوقه في النشر. ولمَّا كان النضال الطويل قد أضنى مولتا تولي؛ فقد وافق على هذا الشرط وعاد إلى وطنه، وكان الناشرون قد دفعوا له بعض المال مقدمًا. ولكِن كتبه لم تر ضوء الشمس، إذ كان عرض نشر كتبه خدعة من أصحاب النفوذ لكبح جماح ذلك المتمرد العنيد، الذي جعل قلمه كلًّا من التجار الهولنديين وموظفي الحكومة –يرتجفون ذعرًا، ويهربون منه إلى جانب الأمان.

مات مولتا تولي وشبح الظلم المخيف ماثل أمام عينيه، مات في ريعان شبابه، مات في الوقت الذي كان مُقدَّرًا لقلمه أنْ يخرج كثيرًا من الكتب التي يسطرها بدم قلبه.

لقد ناضل مولتا تولي وهُلك في أثناء نضاله، لم يحجم عن النضال إطلاقًا، بل حارب ببسالة كمجاهد سياسي، وكاتب مجاهد. وربما أُقيم في المستقبل القريب تمثال لهذا الرجل العظيم غير الأناني، في مدينة جوكجاركارتا **Djokjakarta**، عاصمة جاوة المستقلة.

هناك مثيل "لمولتاتولي" في التشبث العنيد بغرضه، ذلك هو الرسام "فنسنت فان جورج"**Vincent van Gogh** ، أحد معاصريه الهولنديين.

من النادر أنْ نرى مثالًا لإنكار الذات باسم الفن أعظم من حياة "فنسنت فان جورج" الذي كان يحلم بإقامة نوع من مجتمع للرسامين في فرنسا، يُكرِّس أعضاؤه أنفسهم كُليةً لخدمة الفن.

ومن المعروف تمامًا ما قاساه فان جورج. فيوضِّح في لوحتيه: "آكلوا البطاطس" و"نزهة المسجونين" التفاصيل الدقيقة العميقة لليأس البشري، ومع ذلك فلم يكن يريد أنْ يُصور الآلام، بل مباهج الحياة.

كان قلب "فان جورج" يفيض عطفًا وشفقةً على إخوانه من المخلوقات. كان يطمح في أنْ يمنحهم الغبطة التي سخَّر لها كامل موهبته الخارقة: موهبة رؤية العالم يتمرَّغ في ثروة من الألوان.

كان هذا الرسام يصبو إلى ملء لوحاته بالبهجة؛ فرسم مناظره كما لو كانت قد غمست في محلول سحري. كان هناك لألاء وثبات في ألوانه حتى أنَّ كل شجرة مقلفة كانت تبدو منحوتة، وكل حقل برسيم يبدو كتيار دافئ من

أشعة الشمس. كان مصورًا استخدم ألوانه إلى أقصى ما يمكن أنْ توحي به من تأثير.

كان هذا الرسام فقيرًا وفخورًا وغير عملي، لقد قاسم المشردين العديمي المأوى كل لقمة لديه، وعرف –تمامًا– بخبرته ماهية الظلم الاجتماعي. لقد ازدرى المجد الرخيص.

لم يكن قط محاربًا بطبيعته، ولكنَّه كان ذا بطولة، بطولة من لديه الثقة التامة بالمستقبل السعيد لجميع الناس، لزراع الحقول، وعمال المناجم، والشعراء، والعلماء. كان يصبو إلى أنْ يقول شيئاً للعالم؛ فقاله في الصور التي رسمها. لقد عبَّر عن الجمال كبقية الرسامين، واختار تصويره للجمال عن طريق الألوان. كان يُعجب –دائمًا– بامتزاج الألوان المدهش في الطبيعة، موضِّحًا كيف تتغير ألوان الطبيعة باستمرار، ولكنَّه تغير بصورة جميلة جذابة في كل فصل من فصول السنة، وفي كل ركن من أركان الدنيا.

يجب أنْ نُراجع أنفسنا ونُعيد النظر في تقديرنا لأولئك الرسامين، أمثال: فنست فان جورج، وفروبلVrubel، وبوريسوف– موساتوف –Borisov Musotov، وجوجينGauqen ، وكثيرًا غير هؤلاء.

ما جمهور المجتمع الاشتراكي إلَّا ورثة لجميع الثروات الروحية في سائر أنحاء العالم. نستثني من هؤلاء: طرائف المرائين والمتملقين والمنافقين الكثيري الثرثرة ضد الجمال، الذي يغمر الدنيا رغم جهودهم الدائمة للقضاء عليه.

أثناء مناقشاتي الأدبية طُفْتُ في مجال الرسم؛ فعلت هذا لأنَّ الإلمام بجميع الفنون يساعد الكاتب على الوصول إلى الكمال في محيطه. وعلى أية حال، فهذا موضوع سأتناول الكلام عنه فيما بعد.

يجب أنْ يشعر الكاتب بأنَّ مهنته من أنبل المهن الموجودة في العالم. وما الاطلاع الحكيم والمران الأدبي بشيء إذا قِيسا بهذه المهنة السامية. بَيْدَ أنَّه ينبغي ألَّا يندفع الكاتب في تيار البطولات الكاذبة ولا الزهو، كما لا يجب أنْ يجرفه الغرور بأهمية دوره في المجتمع، ولا بأيَّة صفة تُنسب إليه أحيانًا، كأنْ يظن نفسه "في مستوى لا يدانيه فيه أحد من أترابه.."

قال ميخائيل "بريشفين Mikhail Prishvin" أحد الكُتاب الذين يُقدرون تمامًا رسالة الأدب السامية، وأحد الذين قضوا كل حياتهم في صناعة الكتابة: "يشعر الكاتب بالسعادة إذا اعتبر نفسه، ليس كواحد ممن يقفون بعيدًا عن إخوانهم من البشر، ولكن كواحد من نفس طينتهم ."

الأزهار الصناعية

كلما اتجهت بأفكاري إلى الكتابة الابتكارية؛ أخذت أسائل نفسي: "كيف ومتى نشأ عندي حافز الكتابة؟" ما أول شيء يحفز الكاتب على أنْ يتناول قلمه ولا يتركه إلّا في نهاية حياته؟"

إنَّ أصعب شيء يمكن أنْ يتذكره المرء هو: متى جاءه الحافز على الكتابة؟ أظن أنَّ الكتابة تبدأ كحالة في العقل، وإنَّ حافز الكتابة كامن هناك، قبل أنْ يملأ الكاتب عدة "رزم" من الورق بكتابته بمدة طويلة، ولو أراد الإنسان أنْ يتتبع ذلك الحافز إلى منشئه، لكان عليه أنْ يعود بذاكرته إلى أيام طفولته.

ليست الدنيا التي نراها في عهد طفولتنا كتلك التي نراها في سنوات حياتنا اليافعة. أيستطيع المرء أنْ يُنكر أنَّ الشمس أعظم الأشياء تألقًا ! وأنَّ الحشيش أنضرها خضرةً! والسماء أشدها زُرقة! وأنَّ كل رجل أعجب مخلوق غامض، يستوي في هذا النجار بآلاته البارعة ورائحة نشارة الخشب الحديثة، والعالم باستعداده للإجابة على سبب خضرة الحشيش.

نَرِثُ منذ طفولتنا موهبة الإعجاب بالدنيا التي حولنا، ومن يحتفظ بهذه الموهبة حتى عهد رجولته فلا بد أنْ يصير شاعرًا أو كاتبًا. وليس الفرق عظيمًا بين هذين في التحليل النهائي. وإذا استطعت أنْ تجد الجديد دائمًا في كل شيء؛ كان خيالك أرضًا خصبة تصلح لنمو الفن وازدهاره .

كنت أُنظِّم الشعر، كأغلب الصبيان، وأنا تلميذ بالمدرسة. وقد نظَّمت منه الكثير، لدرجة أنَّني في آخر كل شهر كنت أجد نفسي قد ملأت كراسة سميكة بالأشعار. بالطبع كانت أشعاري رديئة: كانت على شيء من الغرور، والزخرفة

و"الجمال". ولا يُمكنني أنْ أذكر منها الآن شيئًا إلا سطرًا من هنا وسطرًا من هناك، مثال ذلك:

اقطف الأزهار من الأغصان وهي تتمايل رقيقة!

ويسقط المطر في الحقول باردًا،

وتهز الرياح أوراق الأشجار الجافة حتى غروب الشمس

وتتوهج السماء في الخريف بحمرة المساء"...

وكلما أكثرت من الكتابة في شبابي الباكر؛كلما صارت لغتي مزخرفة، وكثيرًا ما تكون أشعاري عديمة المعنى، فمثلًا:

"ومن أجل معشوقتي "سادي"Saadi ، تتألق أحزاني بالدُّرر على صفحات الأيام الزاخرة بالمتاعب."...

فلماذا "تتألق أحزاني بالدرر"؟...، لم أستطع الإجابة على هذا السؤال حتى اليوم. كان الجرس السمعي لتراكيب الألفاظ يسرح بي في أغلب الأحيان دون أي مراعاة للمعنى.

كان من الممتع أنَّ كثيرًا من أشعاري الأولى كان عن البحر الذي لم تكن لديْ عنه في ذلك الوقت إلَّا فكرة غامضة؛ فلم أكن أُفكر في بحر بعينه، لم يكن هو البحر الأسود، أو بحر البلطيق، أو البحر المتوسط، ذلك الذي قصدته في أشعاري، بل كان بحر خيالي. كنت أتصوره رقعةً فسيحةً لامعةً ملونةً، حقيقية مبالغة لكل شيء لمسته...، لم يكن للوقت أو للمواقع الجغرافية اعتبار فيما كتبته. كُنت أرى الغرام يَلتفْ حول الكرة الأرضية،كما تُحيط بها طبقة الهواء الكثيفة، وكان البحر نفسه هو مَلَكَةْ موضوع هذا الغرام –ذلك البحر المزبد

المضطرب المتلاطم الأمواج- مأوى السفن المجنحة والملاحين الشجعان، تعج موانئه بالجموع الكادحة،تتحرك بينهم السيدات ذوات البشرة الزيتونية بجمالهن الفاتن وعواطفهن الجياشة. كانت هذه هي طريقة تفكيري في البحر في سنوات شبابي الغرامية.

وما إنْ تقدمت بي السنون حتى صارت أشعاري أقل زخرفًا، وشيئًا فشيئًا أقل غرامًا. ولكنِّي، إنْ أردت الحق، لم آسف قط على أنَّ الغرام قد تملكني في شبابي؛ لأنَّ الشباب هو: الوقت الذي يتغلغل فيه العشق والهيام في عظامنا، فكل شيء يقع بصرنا عليه يُثير خيالنا، مِنْ جمال المناطق الاستوائية الغريب إلى أمجاد معارك الحرب الأهلية... . يَمدُّنا الغرام بالحياة التي هي بمثابة الطعام والشراب لكل مخلوق صغير مُفكِّر. وجدير بنا أنْ نذكر كلمات "ديديروت وت "Diderot عن الفن إذ قال: "الفن هو أنْ ترى ما هو غير عادي في العادي، وتجد العادي في غير العادي."

يرى كل صبي في خياله أنَّه يُحاصر قلاعًا عتيقةً، ويُناضل مِنْ أجل حياته في سفينة غارقة مُهلهلةِ الأشرعة في مضيق "ماجلان "Magellan أو قرب "نوفايا زمليا"Novaya Zamlya ، يُسرع هابطًا إلى السهول وراء جبال "أورال "Uralفي عربة مدفع رشاش بجانب "شابايف"Chapayev ، يبحث عن الكنوز التي أخفاها "ستيفنسن "Stevenson في جزيرته الغريبة، ويستمع إلى صوت رفرفة الأعلام في موقعة "ورودينو"Borodino ، أو يساعد "موجلي "Mowgliفي غابات الهند العديمة المسالك.

كلما طابت لي الإقامة بالريف (وهذا كثير الحدوث) وجدت متعةً في مراقبة أطفال القرية وهم يلعبون. وما أهتم له في ملاحظتي هو أنَّهم يذهبون في رحلات بحرية طويلة فوق أطواف (توجد بالقرية بحيرة ضحلة)، أو يطيرون إلى

الكواكب، أو يكتشفون أراضي جديدة. وأذكر أنَّ بعض أطفال جيراني اكتشفوا ذات مرة "أرضاً جديدة" وسط المراعي، فأطلقوا عليها اسمًا يدل على كثير من الغرام، وما اكتشفوه فعلًا هو: بحيرة نائية بها كثير من الجداول الصغيرة المليئة بأعشاب الحلفا والغاب، حتى لتخالها رقعة من بلد مرتفع.

لم أفقد غرام شبابي دفعةً واحدةً، بل ظل يتلكَّأ في قلبي كرائحة الزنبق في الصيف. لقد أعار وميضه إلى "كييف Kiev" تلك المدينة التي كنت أعرفها حقَّ المعرفة؛لدرجة أنِّي مَللتُها بعض الشيء، لقد جعلتني أعجب بالشفق الذهبي لغروب الشمس وهو يستعر في الحرائق. ولاحظت خلف "دنيبر Dnieper" أنَّ البرق يُضيء سماءها الداجية بخطوط أفقية؛ فرأيت أرضًا في بصيرة خيالي، عاصفةً رطبةً زاخرةً بحفيف أوراق الأشجار الذي يملأ جوَّها. وقد نثرت أشجار الكستناء في الربيع أزهارها البيضاء بتويجاتها المُرقَّشة ببقع حمراء، فوق المدينة. وكان هناك قدرًا عظيمًا من تلك الأزهار حتى أنَّه حجز مياه الأمطار عند هطولها، وحوَّل بعض طرقات المدينة إلى بحيرات صغيرة. وبعد سقوط الأمطار، كانت قبة كييف الزرقاء تتألق بلون فيروزي، وعندئذ خطرت ببالي الأشعار الآتية بقوة غير منتظرة :

يحكم سحر الربيع، بقبلات حلوة،

بسماء تضيئها النجوم منثورة،

لقد نقلت إليَّ كلمة السعادة

في دنيانا هذه غير المجدية...

ذلك هو الوقت الذي بدأتُ فيه أنْ أُفكر في الحب، كنت في السن التي تبدو لي فيها كل الفتيات جميلات، أحس بوجودهن في كل مكان، في الشوارع،

وفي الحدائق، وفي الترام...، فنظرة خجل في اتجاهي، أو نسمة عطر من شعور الفتيات، أو صف من الأسنان المتلألئة يبدو من خلال الشفاه نصف المفتوحة، أو لمحة مركبة دقيقة التكوين أسفل "جونلة" رفعتها الريح، أو لمسة أصابع رخصة رطبة،جميع هذه كانت تحرك عاطفتي في شدة وعنف، وتملؤني بشوقٍ غريب. فعرفت أنَّ الحب سوف يأتي في طريقي عاجلًا أو آجلًا.

كان نُظُمْ هذه الأشعار، وهذا الشوق الغامض، يملئان القسم الأكبر من شبابي، وكان قسمًا سعيدًا كل السعادة.

سرعان ما هجرت الشِّعر؛لأنَّني تحققت أنَّني لا أُنتج غير التفاهات:أزهارًا صناعية جميلة مُحلاة بالسكارين .

بعد ذلك حوَّلت نشاطي إلى كتابة القصص القصيرة وكانت أُولى محاولاتي في هذا المحيط هو تاريخ حياتي أنا نفسي.

أولى قصصي القصيرة

عزمت على السفر من بلدة "شرنوبيل"Chernobyl الصغيرة إلى "كييف" عبر "بريبيات"Pripyat ، قضيت الصيف في "شرنوبيل" بمزرعة "ليفكوفيتش "Levkovich أحد القواد المتقاعدين، وقد أوصاه بي مُدرِّسي لأُعلِّم أحد أبنائه، وهو صبي كسلان غبي، رسب في فرقته سنتين متتاليتين .

يقع منزل الأسرة العتيق على منحدر بقرية يَغشاها الضباب الكثيف البارد في المساء، وتسمع فيها نقيق الضفادع عاليًا ينبعث من المستنقعات المجاورة، وتشم رائحة نبات شاي البرك قوية لدرجة أنَّها تسبب الصداع. وفي وقت تناول الشاي، يقف أبناء القائد المتهورون في شرفة المنزل يصيدون البط البري.

والجِنِرَالْ "ليفكوفيتش": رجل ممتلئ الجسم، ذو عينين سوداوين جاحظتين، وشارب وخطه الشيب. ولِمَا كان عصبيًا ومصابًا بأزمة صدرية؛ فإنَّه يقضي طول يومه جالسًا في مقعد بالشرفة يسعُل ويصرخ من آونة لأخرى بصوت مبحوح، قائلًا: "أتسمعون ؟ هذه أسرة تلك الفئة من الأشخاص الذين لا يصلحون لشيء قط، لقد حوَّلوا المنزل إلى زريبة خنازير، سأطرد كل واحد منهم، ولا أترك لهم بنسًا واحدًا."

بَيْدَ أنَّ أحدًا منهم لم يكن ليعيره أي اهتمام، إذ كانت السيدة "ليفكوفيتش" زوجته الفاتنة المدبرة، التي كانت تسير طوال الصيف وقد شدَّت جسمها "بكورسيه" أحكمت ربطه، هي التي تُدير شئون البيت والمزرعة.

وفضلًا عن أولاد هذا القائد غير الطائلين، فإنَّ له ابنة أطلقوا عليها لقب "جان دارك". كانت تمضي هذه الفتاة الغضة الإهاب، جلَّ وقتها في ركوب

حصان وحشي، تجري به وسط المزرعة كما يركب الرجال. وكانت تزهو بأنَّها "سيدة خطرة". وكانت تُكرر طول الوقت كلمتها المحببة "حقير."

عندما قُدِّمتُ لهذه الفتاة، مدت إليَّ يدها من فوق سرج جوادها، وحملقت في وجهي، وقالت: "حقير."!

ظللت طول الوقت هناك أفكر في طريقة للهروب من هذه الأسرة المعتوهة. وأخيرًا جاءني الفرج؛فشعرت بكثيرٍ من الاطمئنان إذ وجدت نفسي جالسًا على بعض الدريس المغطى بقطعة من القماش فوق عربة المزرعة التي سَتُقشلُّنِي إلى سفينتي. جذب السائق "إيجناتيوس لويولا " Ignatius Loyola)لكل شخص هناك كنية، هي اسم شخصية تاريخية في عائلة ليفكوفيتش) واختصاره "إيجنات) "Ignat عنان الفرس) فتحركت بنا العربة في طريقها إلى شرنوبيل، وكانت الأدغال وراء الأبواب تُحيينا في صمت.

بلغنا "شرنوبيل" وقد اختفت الشمس وراء الأفق، فوجدنا أنَّ السفينة تأخرت، وأنَّه يجب أنْ نُقضي تلك الليلة في الفندق.

قادني صاحب الفندق، وهو رجل إسرائيلي يُدعى "كوشير "Koosher إلى حجرة ضيقة على جدرانها بعض صور أسلافه: رجال شابت لُحَاهُم يلبسون القلانس، وسيدات ذوات شعور مُستعارة على أكتافهن شيلان من المخرمات (الدانتلا) السوداء. وكانت عيون جميع أولئك الشمطاوات دامعات.

انبعثت رائحة الكيروسين من سراج بالمطبخ، وما أنْ اعتليت السرير ذو الحشايا المصنوعة من الريش؛حتى انقضَّ عليَّ جيش لجب من البَقْ خرج من جميع شقوق الأخشاب والحوائط؛ فقفزت من فوق السرير وأسرعت بارتداء ملابسي، وانطلقت إلى الباب الخارجي.

بدا نهر "البريبيات" أمام ناظري ممتدًا في وميض خافت، وقد كُوِّمت على ضفته كتل من الأخشاب. جلست على مقعد ورفعت بنيقة معطفي حول عنقي وأسفل رأسي، إذ كانت ليلة قارسة البرد جعلتني أرتجف قُراً. جلس على السلم الخارجي رجلان بدوا لي كشبحين في الظلام، كان أحدهما يدخن غليونه، بينما قبع الآخر يَغُطُّ في نومٍ عميق، أمَّا السائق فكنت أسمع شخيره آتيًا من الفناء، إذ نام على الدريس فوق العربة، وحسدته وقتذاك على ذلك...

قال الرجل الذي كان يدخن، بصوتٍ مرتفع: "لمنه البق "!

عرفت من صوته أنَّه ذلك اليهودي القصير الكئيب المنظر، بقدميه الحافيتين، والقلاشين" يُغطي ساقيه، الذي فتح لنا الباب عند قدومنا بالعربة، وطلب عشرة كوبكات Kopeks في نظير هذه الخدمة فأعطيته النقود، ولكن كوشير أبصره من النافذة فصاح فيه يقول: "اخرج من الفناء، أيها الشحَّاذ، لقد سبق أنْ قلت لك هذا ألف مرة". فلم يهتم اليهودي حتى بأنْ ينظر إلى كوشير، بل قال لي وهو يغمز بعينه: "أسمعت ما يقول؟ كل قطعة من ذات العشرة كوبكات يلمسها تحرق يده. إنَّه رجل جشع، ستقتله النقود، تمعن في كلماتي هذه."!

سألت كوشير عمَّن يكون ذلك الوغد، فأجاب مترددًا: "إنه جوزيف المجنون، يكسب عيشه من التسوُّل، ولكنَّه لا يحترم أحدًا، إذ ينظر إليك كما لو كان هو الملك داود جالسًا على عرشه."

التفت إليَّ جوزيف وقال: "أراهن على أنْ كوشير سيُطالبك بأجر إضافي عن البق". وقد لاحظت أنَّه لم يحلق ذقنه لمدة يومين أو ثلاثة. وبعد أنْ سكت قليلًا أردف يقول: "إذا وضع امرؤ في رأسه أنْ يجمع ثروة، فما من شيء عنده بقبيح بعد ذلك."

قطع الرجل النائم بجانبه عليه الحديث فجأة بقوله: "لِمَ قتلت عزيزتي "كريستينا"Christina ، يا جوزيف؟ بموتها ماتت الراحة عندي منذ سنتين."

أجاب جوزيف مُستاءً: "ما هذا الذي تقول يا "نيكيفور ! "Nikifor لا ينطق بمثل هذه الألفاظ القذرة إلَّا من خلا رأسه من أية ذرة من العقل. أتقول أنِّي قتلتها! اذهب إلى الأب ميخائيل واس"أله عمَّن قتلها. أو إلى ضابط الشرطة "سوخارنكو."Sukharenko

أخذ نيكيفور يبكي في يأس ويقول: "وا حر قلباه يا بُنيتي! آه يا وحيدتي! لا شمس تشرق لي الآن، لقد اختفت إلى الأبد وراء المستنقعات."

قال الآخر: "صِه"!

لم يكترث نيكيفور لقول جوزيف، بل استطرد يقول: "لم يسمحوا لي بأنْ أحزن مِنْ أجلها كمسيحي، سأُخبرك ما أنوي فعله، سأذهب إلى المطران في "كييف" وأطلب منه غفران ذنوبها."

فأعاد جوزيف قوله: "صِه! إنِّي لأبذل حياتي البائسة فداءَ شعرةً واحدةً من رأسها، وأنت تقول" ...

ثم خنقته العبرات، وعندما حاول كبتها؛صدرت منه صيحة تَنُمُّ عن الألم العميق.

قال "نيكيفور" بهدوء مُستحسنًا: "إذن فأنت تبكي أيُّها الأحمق، حسنًا! لو لم تكن كريستينا قد أحبتك، أيُّها النذل التعيس؛ لقتلتك! ولما كان في قتلك خطيئة."

فصاح جوزيف: "هيا اقتلني، فربما كان هذا ما أصبو إلي، من الخير لي أنْ أذوي في القبر، بدلًا من."...

قال نيكيفور في أسى: "كنتَ أحمق، ولا تزال أحمق، سأقتلك عندما أعود

من كييف، حتى تَكُفُّ عن إيلام قلبي، أقول لك: إنَّ هذا كثير على قلبي المسكين."

قال جوزيف وقد استعاد رِباطة جَأْشُه: "ومن سيرعى شئون كوخك في أثناء غيابك؟"

"لا أحد. سوف أُؤجره. ما حاجتي بالكوخ الآن؟ أيحتاج الموتى إلى مكان يعيشون فيه" !

خيَّم ضباب كثيف على النهر بينما كنت أُصغي إلى ذلك الحديث الغريب. وانبعثت رائحة نفَّاذة من كتل الأخشاب الرطبة التي على الشاطئ أشبه برائحة الدواء، وقطع نباح الكلاب السكون.

قال نيكيفور مُغيظًا: "لو كنَّا نعرف فقط متى تأتي تلك السفينة اللعينة؛ لاستطعنا الذهاب لإحضار بعض الخمر يا جوزيف؛ لكي نسري عن أنفسنا، ولكِنْ أين لنا أنْ نجد الخمر في مثل هذه الساعة من الليل؟. "

شعرت بالدفء وقتئذٍ؛ فأسندت ظهري إلى الحائط، وبدأت أنام. أصبح الصباح ولم تكن السفينة قد وصلت بعد، فقال كوشير إنَّها لابد أنْ تكون قد رست في مكانٍ ما؛ بسبب الضباب، وعندما تأتي ستقف في "شيرنوبيل" بضع ساعات، فتناولت الشاي. أمَّا "إيجناتيوس لويولا" فعاد بالعربة إلى المزرعة.

ذهبت إلى المدينة لتمضية الوقت، وكان هناك عدة حوانيت على جانب الطريق، تنبعث منها رائحة "الرنجة" وصابون المغاسل. ومن علامة مشوهة على أحد الأبواب؛عرفت أنَّه دكان حلاق. وقف صاحبه ذو الوجه المليء "بالنمش" في مدخله يأكل بذور عباد الشمس. ولِمَا لم يكن لدي ما أفعله أفضل من حلاقة ذقني!؛ فقد خطوت إلى الداخل لأحلق. تأوَّه الحلاق، ثم وضع الصابون

على ذقني، وبدأ يسأل في أدب تلك الأسئلة التي أعتادها أهل مثل هذه الأماكن الإقليمية، كمن أنا؟، ولأي سبب حضرت إلى هذه المدينة؟...

وعلى حين غَرَّة مر بعض الصبيان بدكان الحلاق يُصفرون ويعملون إشارات بوجوههم، ثم سمعت صوت جوزيف يُغني :

لن توقظ أغنيتي

فتاتي الحسناء مِنْ رُقادها...

فإذا بصوت سيدة من خلف الحاجز الخشبي تقول: "اقفل الباب بالمزلاج، يا "لازار"Lazar ، فها هو ذا جوزيف سكران ثانية! يا إلهي، ماذا سيحدث بعد ذلك؟"

أقفل الحلاق الباب وأنزل الستار.

قال الحلاق: "ما إنْ يرى جوزيف زبونًا هُنا، حتى يندفع داخلًا يُغني ويرقص ويصرخ."

قلت: "وما خطبه؟"

وقبل أنْ يتمكن الحلاق من الإجابة على سؤالي، ظهرت سيدة من وراء الحاجز، غير مرتبة الهندام، تلمع عيناها غيظًا، وبدأت تقول :

"أصغ إليّ أيها السيد الزبون، أولًا– اسمح لي بأنْ أقول: "كيف حالك؟" ثُمَّ، لن يعرف لازار كيف يَقُصُّ عليك الحكاية، هل يستطيع الرجال فهم قلب السيدة! ماذا؟ لا تهز رأسك الغبي، يا لازار! دعني أخبره بالقصة، وأُمدُّه بشيء يفكر فيه. دع السيد يعرف ماذا تفعل الفتاة الصغيرة مِنْ أجل الحب."

قال الحلاق: "هدِّئي من روعك يا "مانيا"! "Manya

كان بالإمكان سماع صوت جوزيف مِنْ بُعد يغني:

تعالي إلى قبري عندما أموت

بزجاجة من الخمر المصنوع بالمنزل وفطيرة بالمشانق

ما كادت السيدة تسمع صوته حتى صاحت: "يا للفظاعة، أنْ نفكر في أنَّ هذا هو نفس جوزيف الذي كان مؤهلًا لدرجة مساعد طبيب في كييف، ابن السيدة "بيسيا"Pesya ، أطيب شخصية في شرنوبيل! حمدًا لله فإنَّها لم تعش لتراه قد وصل إلى هذه الحال. أتتصور، أيُّها السيد الزبون، أنَّ سيدة تُحب رجلًا حبًا جارفًا جامحًا؛لدرجة أنَّها تتحمل أي عذاب من أجله؟"

قال الحلاق متعجبًا: "لقد شردت ثانية يا مانيا. إنَّني لَعَلَى يقين مِنْ أنَّ السيد لا يفهم أي شيء مما تقولين."

قالت: "حسنًا، سأبدأ بسوق المدينة. ومَنْ يأتي إلى هذه السوق غير نيكيفور! ذلك الحطَّاب الأرمل الذي موطنه طريق "كاربيلوفكا "Karpilovka، مع ابنته الوحيدة كريستينا. والآن أقول لك، إنَّها كانت فتاة، أيُّ فتاة! لو رأيتها لأظهرت استعدادًا لأنْ تموت من أجلها عن طيب خاطر؛ عيناها أشدُّ زُرقة من رقعة السماء هذه، وشعرها ذهبي جميل كما لو كنت قد غمرته بمحلول العسجد، حلوة القسمات، نحيلة الخاصرة، ما إنْ وقعتْ عليها عينا جوزيف؛حتى فقد قدرته على الكلام. لقد هام بحبها مِنْ أوَّل نظرة. ولكنْ لا عجب في هذا بالطبع، فإنَّ القيصر نفسه لو رآها؛لجرى وراءها الآن مِنْ فوره. والشيء الذي نعجب له، هو أنَّ الفتاة وقعت في غرام جوزيف. وهل رأيت ذلك الجوزيف؟ إنَّه كالأربيان (الجمبري)، ذو شعر أحمر، وتقاطيع مضحكة للغاية. واختصارًا لهذه القصة الطويلة، هجرت كريستينا بيت أبيها،

وذهبت لتعيش مع جوزيف. يجب أنْ ترى المسكن جوزيف، إنَّ رؤيته لتسبب لك المرض، يضيق بعنزة واحدة، فما بالك بثلاثة أشخاص بالغين! بَيْدَ أنَّه ما إنْ انتهى كل شيء؛ حتى غدا ذلك العش مرتبًا نظيفًا. وما ظنك فيما قالته بيسيا؟ إنَّها رحَّبت بالفتاة كما لو كانت إحدى الأميرات، فبدأ جوزيف وكريستينا يعيشان في السعادة كل السعادة، كما يعيش الرجل وزوجه. أمَّا جوزيف، فقد أحسَّ بأنَّه في السماء، ما في ذلك شك. ولكن أتعرف معنى حب فتاة كافرة لشاب يهودي؟ لن يستطيعا الزواج إطلاقًا. وعلى ذلك كانت قصتهما مدار حديث المدينة كلها. راح يُثرثر بها الناس جميعًا كما تُثرثر كتيبة من الدجاج؛ فقرر جوزيف أنْ يعتنق الدين المسيحي، وذهب إلى الأب ميخائيل، فقال له: "يجب أنْ تفكر طويلًا قبل أنْ تعتدي على عفاف فتاة مسيحية، لقد تصرفت خطأ ولا أستطيع أنْ أعمدك بدون تصريح من المطران، فما كان من جوزيف إلَّا أنْ شتمه وانصرف. وعندئذ تدخل حاخامنا في الأمر؛لأنَّه علم بعزم جوزيف على اعتناق المسيحية، فلعنه ولعن نسله إلى الجيل العاشر في الكنيس. والأدهى من هذا، أنَّ نيكيفور توسل إلى كريستينا، جاثيًا أمامها على ركبتيه؛ لكي تعود معه ثانية". ولكنَّها استسلمت إلى دموعها السواجم، ولم تنطق ببنت شفة. بعد ذلك، حرَّض بعض الأشرار أطفال المدينة على أنْ يغيظوا كريستينا المسكينة. فأخذوا يصيحون في الطرقات قائلين: "أتريدين قطعة من اللحم المسيحي يا كريستينا كوشير"؟ وكانوا يمرون أمام كوخها. ويحكُّون أنوفهم بسباباتهم. وكان كل فرد ينظر إليها من الطريق ويضحك. وزاد بعضهم على ذلك بأنْ كانوا يقذفونها بالمواد البرازية من خلف الأسوار، ولطخوا منزل بيسيا بالقار ."

تأوه الحلاق، وقال: "آه يا بيسيا! يا لك من سيدة " !

فصاحت فيه مانيا، بقولها: "كُفَّ عن مقاطعتي!، بعد ذلك استدعى الحاخام بيسيا وقال لها: إنَّكِ تربين الخطيئة في بيتكِ، يا عزيزتي المُبَجَّلة بيسيا إيزرائيليفنا .Izraelevna لقد خالفتِ قانون ديننا. يمكنني أنْ أصب اللعنة عليك وعلى ذريتكِ، فيعاقبك "يحوفا "Jehova كما يُعاقب الزانيات. أشفقي على شعركِ الأشيب. وماذا تظن كان جوابها له؟ قالت له: ما أنت بحاخام، إنَّ أعظم شرًا مِنْ الشرطي! لم تَدُس أنفك بين شاب وفتاة يحب كل منهما الآخر؟ ثُمَّ بصقت وخرجت. كما أنَّ الحاخام حرمها وطردها. إنَّهم هنا، يعرفون كيف يُخرسون الناس. لا تقل إنِّي قلت لك هذا. وأخذت المدينة كلها تتحدث عن هذا الموضوع. ثم إنَّ الضابط "سوخارينكو" استدعى جوزيف وكريستينا، وقال: إنَّني أعتقلك، يا جوزيف، لإهانتك للأب ميخائيل، رجل الله. وسأحكُم عليك بالشغل. أمَّا أنتِ، يا كريستينا، فعليك بالذهاب إلى بيت والدك. سأُمهلك ثلاثة أيام لتفكري فيها. لقد أثرت المدينة كلها. وسأقع في مُشكل مع صاحب السيادة المحافظ العام، قبل أنْ أعرف ذلك المشكل.

"زج سوخارينكو بجوزيف في زنزانة. وقد قال فيما بعد، إنَّه إنَّما فعل ذلك ليخيفه. ولن تُصدق ما حدث. ماتت كريستينا كمدًا عليه. لقد رثى لحالها كل من رآها بعد ذهاب جوزيف إلى السجن. ظلت تبكي عدة أيام حتى جفَّت الدموع في مآقيها، ولم تتناول طعامًا قط. كانت توسل أنْ ترى جوزيف فقط! وفي عيد "التكفير"Yom Kippur ، ذهبت لتنام نومة لم تستيقظ منها. رقدت بقلبٍ رَضِيْ، سعيدة، كأنَّما قد شكرت للمولى أنْ انتشلها من تلك الحياة البائسة. وإني لأسألك أيها السيد، لماذا عُوقبت بالوقوع في حب جوزيف؟ لماذا؟ والدنيا زاخرة بغيره من الرجال، يقينًا؟.... أطلق "سوخارينكو" سراح جوزيف، ولكنَّه منذ ذلك اليوم وهو مجنون، يحتسي الخمر، ويستجدي الأكف.

قال الحلاق: "لو كنت مكانه لآثرت الموت، ولأطلقت الرصاص على رأسي."

فصاحت مانيا ساخرة: "هكذا أنتم معشر الرجال، تظنون أنفسكم شجعانًا! ولكنْ إذا وقفتم أمام الأمر الواقع هربتم من الموت بسرعة ميل في الدقيقة، أمَّا إذا ألهب الغرام قلب سيدة، فهذا شيء يختلف عن ذاك تمام الاختلاف، شيء لا يمكنك فهمه."

هز الحلاق كتفيه وقال: "المسألة واحدة، سواء أكان قلب رجل أو قلب امرأة"!

انصرفت من دكان الحلاق إلى الفندق مباشرة، ولم يكن هناك جوزيف ولا نيكيفور. وإنَّما وجدت كوشير جالسًا يشرب الشاي أمام النافذة، وقد ارتدى صديرية سبق لها أنْ رأت أيامًا أفضل حيث كان الذباب السمين يطن حواليه.

لم تأت السفينة إلَّا في المساء، وبقيت في شرنوبيل حتى ساعة متأخرة من الليل، فاتخذت من مقعد مغطى بالشمع البالي سريرًا لي، وقد تجمع الضبابُ ثانيةً في الليل، وألقت السفينة مرساتها على الشاطئ، ولم أر نيكيفور على ظهرها، فلا بد أنَّه ذهب ليحتسي الخمر مع جوزيف.

لقد أطلَّت الحديث في ذكر تفاصيل هذه القصة؛ لأنَّها أثَّرت في نفسي تأثيرًا بالغًا، فما كِدت أبْلُغْ كييف حتى ألقيت كراسات مذكراتي بما فيها من أشعاري –جميعًا– في النار، وبدون أقل أسف وقفت أُلاحظ الأوراق بفقراتها الخيالية، تحترق وتتحول إلى رماد بعد أنْ تعلوها بلورات مزبدة وسُحب زرقاء.

كان لهذه القصة التي سمعتها أثر طيب حكيم في نفسي، إذ تحقَّقتُ من أنَّ ما كنت أكتبه عن الحب ليس سوى سفاسف وأقذار إذا قيس بقصة "ذبول الزنابق

المحتضرة"، بينما في قصتي تُقذف كتل من البراز نحو الغادة الحسناء التي أحبت.

ذكَّرتني هذه الأفكار بما سمعته ذات مرة من أنَّ: "العصر المُفزع يخلق قلبًا مفزعًا" . فعزمت على أنْ أكتب أولى قصصي القصيرة عن كريستينا، وقلت لنفسي إنَّها "قصة حقيقية."

قضيت وقتًا طويلًا في كتابتها، ولكنِّي لم أفهم لماذا كانت فاترة تافهةً بالرغم من قوتها الدرامية، ثم أدركت: أولًا– صعوبة كتابة قصة على لسان غيري، وثانيًا– اقترفت خطأً باندماجي كُليةً في حب كريستينا ولم أهتم إلا قليلًا بتلك "البلدة الصغيرة" المتوحِّشة التي كانت كريستينا ضحية أخلاقها...

أعدت كتابة القصة ثانيةً، ولكنْ أدهشني أنَّه لم تأت إلى ذهني أيَّة كلمات جميلة أو مزخرفة، كانت القصة تفتقر إلى الحقيقة الجامدة والبساطة.

بعد أنْ انتهيت من قصتي أخذتها إلى ناشر إحدى المجلات، كان قد نشر بعض أشعار من قبل.

قال الناشر: "إنَّها مضيعة للوقت، لا يُمكننا أنْ نطبع مثل هذه المواد، سنقع في إشكال؛بسبب وصف ضابط البوليس وحده، هناك مغامرة في نشر هذه القصة، أحضر لنا شيئًا آخر، ومن الأفضل أنْ تُكتب باسم مستعار إذا كنت لا تريد أنْ تُطرد من المدرسة."

عدت أدراجي بالقصة. وفي الربيع التالي قرأتها صدفة فأدركت شيئاً آخر: لم أضع في تلك القصة ما يكفي من مادة نفسي: من سخطي، وأفكاري، وإعجابي بحب كريستينا، فأعدت كتابتها وانطلقت بها إلى الناشر، لا لينشرها؛ بل ليُبدي رأيه فيها، فقرأها كلها بإمعانٍ في حضوري، وربَّت بيده على ظهري قائلًا: "مادة طيبة."

أدركت من هذا أنَّ الكاتب لا بُد أنْ يُعبر عن كل ما يجول بخاطره وقلبه ولا يحذف منه شيئًا، حتى ولو كان في قصة قصيرة كهذه، متحدثًا بروح عصره وبإيحاء قومه، لا يجب أنْ يكون هناك حياء في إبداء أي شيء أمام القارئ، ولا خوف مِن تكرار ما سبق أنْ قاله الكُتاب الآخرون (معبرًا عنه بأفكاره ومشاعره، بالطبع)، وألَّا يكتب عن آراء النقاد أو الناشرين.

يشغل الكاتب نفسه كُليةً بما يكتبه وينسى كل ما عداه، ويكتب كما لو كان يكتب لنفسه أو لأعز مخلوق لديه في الدنيا كلها؛ بذلك فقط يُمكنه أنْ يسيطر تمامًا على أفكاره، فتنطلق في حرية، ويُدهشه أنْ يجد في نفسه أفكارًا ومشاعر وقوة شاعرية أكثر مما كان يتصور، وهكذا تبدأ العملية الابتكارية في حركتها، وفي أثناء جريانها في طريقها تتخذ صفات جديدة وتغدو أكثر تعقيدًا وغزارة.

تميل العملية الابتكارية إلى حب الربيع،حيث تُذيب أشعة الشمس الثلوج،وتُدفئ الهواء والتربة والأشجار، فتملأ الأرض صخبًا وخريرًا؛من انهمار قطرات الماء وجريان تيار المياه، هناك آلاف من أمارات الربيع. وما إنْ تبدأ العملية الابتكارية حركتها؛حتى يستمر تدفُّق الأفكار والخيالات والمشاعر والألفاظ، حتى ليُدهش الكاتب نفسه من النتيجة التي حصل عليها.

لا يصير الفتى كاتبًا إلَّا إذا كان لديه شيء جديد وعظيم وممتع ليقوله، وإذا كان في مقدوره أنْ يرى كثيرًا مما يفوت الآخرين ملاحظته.

أعود إلى نفسي فأقول، عندما بدأت أكتب؛أدركت في ألم أنَّه لا يوجد عندي ما أقوله غير القليل، وإنَّه إذا لم يُغذ دافع الابتكار؛خَمِدَ في نفس اللحظة التي يُشعل فيها، وإنَّ ملاحظاتي عن الحياة ضئيلةً جدًا تكاد لا تُذكر، وإنَّ معلومات الكتب تفوق معلوماتي عن الحياة. شعرت بهذه الحقيقة تمامًا، وعلمت أنَّه يجب عليَّ أنْ أملأ نفسي بالحياة إلى أقصى ما يمكن.

ولكي أقوم بهذا؛تركت الكتابة تمامًا لمدة عشر سنوات، وكما قال "ماكسيم جوركي" :"Maxim Gorky خرجت إلى الحياة، بدأت أطوف بالمملكة، أتدرب على شتَّى الأعمال، وأحتك بمختلف أنواع الناس، لم أَضِلُّ طريقي "ملاحظة الحياة" أو "أجمع الحقائق" للكتب المستقبلة، عشت كما يعيش سائر الناس، أشتغل وأحب وأقاسي الآلام وأعلل نفسي بالآمال والأحلام، بَيْدَ أنَّه وراء كل هذا كنت أضع في نفسي أنَّه سيأتي يوم –آنَ عاجلًا أو آجلًا– أبدأ فيه الكتابة، وربما كان هذا في شيخوختي، ليس لأنِّي كنت أصبو إلى أنْ أكون كاتبًا، وإنَّما لأنَّ كل جزء في كياني كان يصرخ طالبًا ذلك، ولأنَّ الأدب كان لي أجمل شيء في الدنيا .

البرق

كيف تتكون الفكرة لدى الكاتب عن كتابه أو قصته؟ .

مِنَ النادر أنْ تنشأ في ذهن الكاتب فكرتان بنفس الطريقة، وعلى ذلك يختلف الجواب على هذا السؤال باختلاف الحالات.

إنَّه لأسهل لنا أنْ نجيب على هذا السؤال: "ماذا يسبق مولد فكرة العمل الأدبي؟" والجواب هو: حالة الكاتب العقلية.

ربما كان في مقدوري شرح ما أقصد بعمل مقارنة، فالمقارنات تُلقي ضوءً لذهني على المسائل المُعقدة. ولنضرب لذلك مثلًا من: الفلكي "جيمس جانز James Jeans"، فعندما سُئل عن تقديره لعمر الأرض، أجاب: "تصوروا جبلًا ضخمًا، وليكن جبل "إيلبروس "Elbrus بالقوقاز، مثلًا،وتصوروا عصفورًا صغيرًا ينقر فيه ببطء، فعمر الأرض بالسنوات يساوي المدة التي يستغرقها هذا العصفور في أنْ يأكل ذلك الجبل حتى قاعدته ."

وسأفسر لك بمقارنة أخرى أسهل من هذه كيف تنشأ الفكرة في ذهن الكاتب، فنشبه الفكرة نفسها بوميض البرق، تستغرق الكهرباء عدة أيام في تجمعها من فوق سطح الأرض، حتى إذا ما تجمعت كمية ضخمة منها؛ أصبح الجو مشحونًا بكمية أكثر مما يتحمل، وعندئذٍ تتحول السحب البيضاء إلى غمام أدكن، وتنفجر الشحنة الكهربية،مُحدثة شرارة ضوؤها هو البرق، وغالبًا ما يتبع البرق مباشرة انهمار المطر وبللًا .

بنفس الطريقة تُومض فكرة القصة أو الرواية في وعي الكاتب،عندما يفيض بالأفكار والعواطف والذكريات التي تتجمع فيه بالتدريج، قليلًا قليلًا، إلى أنْ

تبلغ درجة التشبُّع فتتطلب تخرجا. وذلك المخرج الذي تجده هذه المجموعة المزدحمة غير المرتبة من الأفكار والعواطف –هو: فكرة قصة أو رواية جديدة.

في أغلب الأحوال لا تحتاج الفكرة إلَّا إلى محرك ضعيف فقط ليُطلقها، وقد يكون هذا المحرك لقاءً غير متوقع مع صديق، أو كلمة عابرة تتضمن كثيرًا من المعاني، أو حلمًا، أو صوتًا بعيدًا، أو منظر انعكاس أشعة الشمس على قطرة من الماء، أو صوت صفارة باخرة. وكل شيء حولنا في هذه الدنيا وفي نفوسنا يصحُّ أنْ يكون ذلك المحرك.

رأى "تولستوي "Tolstoi نبتة "حي علم" مقطوعة، فأمدَّته بفكرة قصته الرائعة"Khadzhi– Muyat" ، فأتته الفكرة كوميض البرق. ومن جهة أخرى لو لم يقطن تولستوي بالقوقاز، ولم يسمع هناك عنKhadzih– Murat ، فابطَّبع ما كانت تلك النبتة لتُحرك قطار الأفكار الذي أعطاه فكرة القصة، كان الوعي الداخلي لتولستوي مستعدًا للموضوع، وما كان "حي العلم" إلَّا مجرد أداة لإشعاله.

تكون الفكرة غامضة عندما تخطر للكاتب أول مرة، وكما كتب "بوشكين "Pushkinيقول: "خافتة بدرجة جعلتني لا أكاد أبصر حدود الرواية في البلورية السحرية لعقلي". ثم تأخذ شكلها بالتدريج وتُسيطر على عقل وقلب الكاتب الذي يقلبها عدة مرات في ذهنه.

تَحدث عملية تبلور الأفكار وازدهارها كل ساعة، وكل يوم في حياة الكاتب تحدث بطريقة عادية جدًا متأثرة بتجارب الكاتب اليومية، وبأتراحه، وبأفراحه، وبأقصى ما يمكن قربًا من الحقيقة، يجب ألَّا يقف الكاتب بعيدًا منعزلًا عن الحياة، وألَّا ينطوي على نفسه، فلا شيء يُساعده على توليد فكرته أفضل من احتكاكه بالحياة.

هناك عدة أفكار خاطئة ومُبتذلة وشائعة عن طبيعة الأدب، ولا سيما عن الإيحاء، مبتذلة بدرجة تجعلها مُملة. فمثلًا: لا يزال الكثيرون يذكرون فيلم "الشاعر وقيصر" عن بوشكين، وفيه يُرى بوشكين جالسًا رافعًا عينيه إلى فوق، ثُم يُمسك ريشته في عصبية، ويبدأ في الكتابة، ثم يتوقف، وينظر إلى أعلى، ويعضُّ بأسنانه على طرف قلمه، ثُم يُسرِع بكتابة بضعة سطور، ومن الواضح أنَّ هذه الحركات إنَّما نُقلت عن كثير من اللوحات التي صورت هذا الشاعر الروسي كرجل مجنون مذهول.

عندما يزور الإيحاء المُلحَّن (ولا يجب أنْ نقول غير "يزور")، ينبغي له أنْ يقف، وينظر إلى فوق، ليُوصل إلى نفسه تلك الموسيقى الداخلة تُطن في نفسه وقتئذٍ من غير شك. هذه هي الكيفية التي صُور عليها تمثال "شايكوفسكي Chaikovsky" في موسكو، وهو تمثال "في حلاوة السكر."

وإذا أردنا تعريف الإيحاء قلنا إنَّه إحدى حالات العمل التي لا دخل لها في الوقفة المسرحية.

تحدَّث بوشكين عن الإيحاء بطريقته الدقيقة البسيطة، فقال: "الإيحاء حافظة قوية للنفس، تُحدد قبضتها السريعة على الأشياء طريقة تفسيرها"، وقال في مكان آخر: "يخلط النقاد بين الإيحاء والبهجة". وبنفس الطريقة يخلط القراء أحيانًا بين الاحتمال الحقيقة.

لا غضاضة في هذا، ولكنْ في حالة وجود الرسامين والنحاتين الذين يخلطون بين الإيحاء وبعض حركات الذهول؛ يُصبح سمة للجهل المطبق وعدم تقدير لمهمة الكاتب الشاقة.

وتبعًا لشايكوفسكي ليس الإيحاء ازدهار المخيلة، وإنَّما هو حالة تطرأ عندما

يشتغل المرء إلى أقصى ما في مكنته بقلبه وبروحه، وأرجو أنْ يلتمس لي بعض العذر في أنْ خُضت الموضوع إلى هذا الحد الذي قد أكون قد تطرفت فيه، ولكنْ كل ما ذكرته هام؛ لأنَّه يوضح أنْ الرياء لا يزال قائمًا بيننا.

لا بُد أنْ كل فرد قد جرَّب حالة الإيحاء -ولو بضع مرات في حياته- سمو في الروح وإدراك للحقائق وفيض من الأفكار وإحساس بالقوى الابتكارية.

الإيحاء:حالة من حالات العمل ذات طابع غرامي، هو: تعليق شعري "بين السطور"،

يأتينا الإيحاء كصباح مشرق الأديم يُبدد ضباب الليل الهادئ، لينفُث في وجوهنا برقة، نفسًا رطبًا حلوًا مجددًا للنشاط.

هناك شَبَه عظيم بين الإيحاء وبين الحب الأول،حيث ينبض القلب عاليًا وهو ينتظر المقابلات المُبهجة ونظرات الهيام والابتسامات والكلمات المعبر عنها بغير اللسان؛ فتتحول حالتنا العقلية، في رقة وبدون ألفاظ، كما لو كانت آلة موسيقية سحرية، تصدر أعمق الأصوات الخفية للحياة.

تحدَّث كثيرٌ من الكُتاب والشعراء عن الإيحاء بعبارات جميلة، فقال بوشكين: "لا تدع غير الكلمة الروحية تمسُّ أذننا الرخصة"، وقال بلوك **Blok**: "يتقدم الصوت نحوي، وعندما تصغي إليه نفسي تصبح فتية"، وقد اعتبر ليرمونتوف **Lermontov** الإيحاء "تهدئة للنفس"، أمَّا الشاعر فيت **Fet** فقد عرف الإيحاء تعريفًا في غاية الدقة، إذ قال :

"بدورة واحدة يُحرك دفَّة السفينة،

بعيدًا عن الشواطئ التي سوَّى المدُّ رمالها،

لتركب متن الأمواج إلى ناحية أخرى،

ولتستنشق نسيم الأراضي المزهرة،

وبكلمة واحدة يجعل اليائس الهادئ،

يفيض بشيء ثمين، غير معروف،

ينطلق من عقاله فيصب بلسمًا على الآلام الخفية،

لتشعر في الحال بأنَّ إحساسات غير مِلك لك.

وأطلق "تورجينيف "Turgenev على الإيحاء اسم "اقتراب الله"، وهو نور للفكر وللعاطفة، بَيْدَ أنَّه هز كتفيه عندما تكلم عن المَشَاقْ التي يُلاقيها الكاتب في التعبير بالألفاظ عن هذه الأفكار والعواطف.

كان تعريف تولستوي للإيحاء بسيطًا جدًا، إذ قال: "الإيحاء هو: ما يوضِّح أنَّ المرء قادرًا على القيام بالعمل، وكلما كان الإيحاء قويًا، كانت المشقَّة اللازمة للإنجاز ذلك العمل عظيمة."

غير أنَّه مهما قلنا وأطنبنا في وصف الإيحاء، فهو ليس بخامل على الإطلاق، بل يُغذي الوازع على الابتكار، إنَّه يُؤتي ثمرته.

تمرد أشخاص الروايات

قبل عصر الثورة بمدة طويلة، كان يجوز للناس عند انتقالهم من منزلٍ إلى آخر، أنْ يستأجروا المسجونين من سجن مدينتهم للقيام بنقل الأثاث.

بطبيعة الحال، كنَّا نعجب، نحن الأطفال، من رؤية المسجونين الذين كنا نعطف عليهم كثيراً.

كان يحضر أولئك في حِراسة رجال ذوي شوارب طويلة ومسدسات ضخمة تتدلى من أحزمتهم، بينما يرتدي المسجونون حُللا رمادية اللون وقلانس ليس لها حافة أُفقية. وكان بعضهم مقيَّدًاً بسلاسل تربط بسيور في الحزام، ولسببٍ ما كنا نحنو أشد الحنو على هؤلاء. كان وجود المسجونين يُضفي على المكان جوّاً غامضًا. غير أنَّنا، نحن الغِلمان، لم ندهش قط لأنْ نجد معظم هؤلاء المسجونين لا يختلف عن بقية البشر إلَّا في الملامح الهزيلة، وكان بعضهم طيبًا لدرجة أنَّه يستحيل أنْ تُنسب إليه أية رذيلة أو جريمة. كان هؤلاء مِثال الأدب، بل هم الأدب نفسه. وعند نقل الأثاث كانوا يَحذرون، بل يخافون أشد الخوف أنْ يصطدموا بأحد أو كسروا شيئًا .

ولمَّا كنا نتلاقاها شوقًا إلى أنْ نقدم لهم خدمة بمساعدة أهلينا، لجأنا إلى خطة بسيطة، وهي: أنْ نرجو والدتنا في أنْ تدعو حُرَّاس السجن إلى تناول الشاي بالمطبخ، وعندما يخلو الجو من هؤلاء؛ نُسرع نحن بملء جيوب المسجونين بالخبز والمشانق والسكر والتبغ، وأحيانًا بما نقتصده من نقود، وإذ كنا نعتبر أنفسنا أعضاء في مؤامرة كبيرة، كان يسرُّنا أنْ نسمع المسجونين

يشكروننا بصوتٍ خافت، ويغمزون بعيونهم تجاه المطبخ، ثم ينقلون هدايانا إلى جيوب داخلية سرية.

وأحيانًا كان المسجونون يعطوننا –سرًا– خطابات لنضعها لهم في صندوق البريد، فكنا نلصق عليها الطوابع، ونأخذها –جميعًا– في حزمة واحدة، وقد خُيل إلينا أنَّنا نقوم بمؤامرة، فننصرف إلى صندوق البريد ونحن ننظر حوالينا؛لئلَّا يكون هناك شرطي يرانا فيحدس لِمَنْ تلك الخطابات التي نتوجه بها إلى الصندوق.

أذكر حتى اليوم أحد المسجونين، كان رجلًا عجوزًا أشيب اللحية، يبدو أنَّه كان رئيس عصابة، وكان يُشرف على عملية نقل الأثاث. كانت قطع الأثاث (ولا سيما الكبيرة منها) كالأصونة،والمعازف (البيانو) تُحشر بطريقة ما في المداخل، أو تفلت من أيدي المسجونين، فمن الخطأ أنْ تضع بالقوة قطعة أثاث في المكان الجديد المُعدُّ لها.

في مثل تلك الأحوال كان ذلك الرئيس يقول: "ضع الشيء في المكان الذي يُريد أنْ يستقر فيه، إنِّي أُمارس نقل الأثاث طيلة هذه السنوات الخمس الأخيرة، فأصبحتُ مُلمًّا بخفاياها وحيلها؛ وعلى ذلك أقول إذا لم يرغب شيء في أنْ يقف في المكان الذي تُريد أنْ تضعه فيه، فإنَّه لن يقف أصالةً، إنَّه ينكسر، ولكنَّه يتشبث بطريقته."

أتذكر حكمة ذلك المسجون العجوز لعلاقتها بأفكار وأشخاص قصص الكُتاب، فأشخاص الكِتاب كقطع الأثاث، يجب أنْ تسير على طريقتها، إنَّها لتُمسك العصا وتُبارز الكاتب، ثُم تخرج ظافرة.

يرسم أغلب الكُتاب خطة لما ينوون كتابته، فالبعض يُصمم خططًا

مستفيضة، وبعض آخر خططًا تجريبية، بينما يضع غيرهم كلمات لا ارتباط بينها.

أمَّا الكُتاب ذوو موهبة الارتجال فهم وحدهم الذين يستطيعون الكتابة بدون رسم أي نوع من الخطط، ومن بين الكُتاب الروسيين الذين لهم هذه الموهبة إلى درجة عظيمة بوشكين، ومن بين مُعاصرينا من الكُتَّاب "ألكساي تولستوي. **Alexei Tolestoi**"

نستثني من هؤلاء (عباقرة الأدب) الذين قد لا يتَّبعون خطة ما، ولمَّا كانت طبيعتهم فيَّاضة؛ فإنَّ أي موضوع أو فكرة أو حادث أو شيء يجعلهم ينطلقون في الكتابة بقطار لا ينتهي من الأفكار.

ذاتَ يوم قال "شيخوف**Chekhov**" الشاب للكاتب "كورولينكو **Korolenko**": " انظر إلى هذا المنفض (الطقطوقة) الموضوع على نضدك، أتُريدني أنْ أجلس وأكتب لك عنه قصة؟"،وبالطبع كان في إمكان شيخوف أنْ يبر بوعده ويزيد.

قد يرى أو يتصور الكاتب رجلًا يُمسك بقطعة ورق مُغضنة مُلقاة بجانب الطوار، فيمدُّه بفكرة يبدأ بها رواية؛ وعندئذٍ يبدأ كتابتها بطريقةٍ سلسة وفي سهولة وإفاضة، وسرعان ما تتسع الأبواب التي يكتبها طولًا وعرضًا، وتمتلئ بالناس وبالحوادث، ويُضفي عليها روحًا وحيويةً؛ فتتدفق بقوة ويُسر في تيار من الأفعال، التي يُوحي بها خيال الكاتب وتصويره ولغته. وهكذا يظل سرد الرواية يتدفَّق بواسطة حافز ضئيل الشأن أشعل خيال الكاتب حتى ينمو ويتضخم في محتوياته وشخصياته المعقدة،ويستطيع الكاتب، وقد سيطرت عليه أفكاره وعواطفه– أنْ يبكي في روايته، كما فعل "ديكنز"**Dickens** ، أو يتأوَّه ألمًا مثل "فلوبرت"**Flaubert** ، أو يُقهقه ضاحكًا كما حدث من "جوجول ."**Gogol**

وبنفس الطريقة يُمكن لصوت بعيد (كصوت انطلاق قذافة صياد فوق جبل مثلًا) أنْ تبدأ تخيُّل مساحات شاسعة من الجليد،تتألق أثناء هبوطها على منحدر أحد الجبال الشامخة، فتسير مُتجهة في هبوطها نحو الوادي المُمتد عند سفح الجبل، وتَهُزْ في سيرها الأراضي المجاورة، وتملأ الجو بياضًا ناصعًا ساطع اللمعان.

لقد أفاض الكُتاب في الكلام عن السهولة التي يبتكر بها أعاظم العظماء، وخصوصًا مَن كانت لهم موهبة الارتجال. قال "براتينسكي"Baratinsky ، الذي كثيرًا ما لاحظ بوشكين وهو يكتب: "ذلك الصغير بوشكين –المخلوق الألمعي الخفيف الروح– ما أروع السهولة التي تتدفق بها الأشعار القوية من قلمه."!

سبق أنْ ذكرتُ أنَّ الخطط التي يرسمها بعض الكُتاب لكتبهم قد تكون مجرد ألفاظ ليس غير، وهذا صحيح وينطبق عليَّ –أنا نفسي– في قصتي القصيرة التي سميتها "الثلج". فقبل أنْ أبدأ في كتابتها خططت بعض المذكرات في غير ما نظام، ملأتُ صفحة بمساحة الفولسكاب، وهذا ما كتبته :

"كتاب منسي عن الشمال، لون أوراق الأشجار السائدة في مناظر الأصقاع الشمالية، نهر يعلوه البخار، سيدات يغسلن الملابس في ثقوب الثلج، دخان، لوحة جرس باب "ألكساندرا إيفانوفنا "Alexandra Ivanovna كُتب عليها عبارتان، اولًا: الحرب، ثانيًاTanya ، أين يمكن أنْ تكون؟ أتسكن في بقعة نائية؟ وهل تسكن وحدها؟ قمرٌ خافت النور بين السحب بعيدًا، بعيدًا جدًا. حياة تضمها دائرة ضوء مصباح صغيرة، صوت طَرْقْ على الحوائط طوال الليل، فروع الأشجار تضرب على زجاج النوافذ، قلَّما نخرج في ليالي الشتاء الداجية، هذا شيء يجب تحقيقه، العُزلة، والانتظار،قطة مُسنة ضخمة لا يمكن

مداعبتها، يمكن رؤية جميع الأشياء، حتَّى الشموع الزيتونية اللون الموضوعة فوق معزف كبير، مُغنية تبحث عن حجرة بها معزف، الجلاء، الانتظار، بيت غريب، عتيق الطراز، ولكنَّه مُريح في نظامه الخاص، ينبعث منه رائحة التبغ العَطِنْ، رجل عجوز كان يسكنه ومات فيه، مكتب من خشب الجوز عليه مفرش أخضر به بقع صفراء، بنت صغيرة "سندريلا"Gindrella ،ممرضة، لا أحد غيرها هناك، يقولون إنَّ الحب يجذب الشخص من مسافة بعيدة، الانتظار– تصلح كل هذه الأشياء لأنْ يكتب الإنسان عنها قصة. ماذا تنتظر؟ ومَنْ تنتظر؟ لا تعرف نفسها، يا له من شيء محزن! يلتَقِي الناس صدفةً في مُفترق،الطرق وهم لا يعرفون أنَّ كل حياتهم الماضية إنَّما كانت تمهيدًا لهذا اللقاء، نظيرة الاحتمال، وتطبيقها على قلوب البشر. يجد البُلهاء كل شيء سهلًا للغاية. ثلج، ثلج، ثلج لا ينتهي. مُقدَّر على الرجل أنْ يأتي. لا تزال المُراسلات تجيء باسم الرجل الميت، تتراكم الخطابات حتى تصير كومة فوق المكتب. مفتاح السر كامن في تلك الرسائل، وفي طبيعتها، وفي محتوياتها (البحار، الابن يخشى قدومه، الانتظار، كريمة كرمًا لا يعرف حدودًا)،تُصبح الخطابات حقيقة واقعة. الشموع من جديد، تُغير في نوع الأشياء وطبيعتها، مُجسدات (نوتات موسيقية)، فوطة طُرز عليها رسم أوراق البلوط، معزف كبير، دخان يتصاعد من خشب الصفصاف المحترق، موسيقى يَشد أوتار المعزف ويضبط نغماتها، جميع التشيكيين موسيقيون بارعون؛ حُلَّ اللغز أخيرًا"!

وبامتداد الخيال وإطالته؛ يمكن اعتبار هذه العناصر تصميمًا لقصتي، فأي امرئ يقرأ هذه المذكرات؛ يستطيع –دون قراءة القصة– أنْ يُدرك من فوره، أنَّها –رغم غموضها– تصميم خطة قصته.

ومع ذلك فلن تدوم طويلًا تلك الخطط الكثيرة التفاصيل التي يبذل

الكُتاب فيها مجهودًا شاقًا، فما إنْ تَبرُز إلى حيز الوجود أشخاص القصة، وما إنْ تبدأ حياتها؛ حتى تتمرد وترفع أذرعها في وجه الكاتب؛ وعندئذٍ تشرع القصة في التدفُّق،سائرةً حسب ما يتطلبه منطقها الداخلي، وتتصرف الأشخاص تِبعًا لطبيعتها، بالرغم من أنَّ الكاتب هو خالقها، بدون ريب.

فإذا أصرَّ الكاتب على أنْ يتقيد أشخاص قصته بما صممه لهم في خطته، ولم يتركهم يسيرون حسب طريقتهم الطبيعية في الحياة؛ لم يصبح هؤلاء الأشخاص أُناسًا من دمٍ ولحمٍ، بل مُجرد دُمى من الورق المقوَّى .

زار بعضهم الكاتب العظيم "تولستوي" في منزله "بياسنايا بوليانا "Yasnaya Polyanaفأخبره بأنَّه كان قاسيًا في جعله أنّا "كارينينا Anna Karenina" تُلقي بنفسها تحت قطار يجري، فرد عليه الكاتب بقوله: "يُذكِّرني قولك بحكاية قيلت عن بوشكين. إذ قال هذا الشاعر –ذات مرة– لأحد أصدقائه: "تصور الخدعة التي خدعتني بها "تاتيانا"Tatyana ، لقد ذهبت وتزوجت...، لم أكن أتوقع منها هذا الأمر."!

"يُمكنني أنْ أقول نفس ذلك الشيء عن أنّا كارينينا، تقوم أشخاص قصصي أحيانًا بأفعال لا أُريد أنْ تصدر منهم ألبتَّة، إنَّهم في الحقيقة يفعلون الأشياء التي تحدث في الحياة الواقعية، لا ما أقصد أنْ يفعلوه ."

يَعرف جميع الكُتاب كيف يتمرد عليهم أشخاص رواياتهم، وقال "ألكساي تولستوي" بهذا الخصوص: "في وسط كتابتي، لا أعرف أبدًا ماذا سيعمله أشخاص قصتي أو يقولونه في الدقيقة التالية، وأظلُّ أُراقبهم مدهوشًا ."

قد يَحلُّ شخص خامل الذكر محل أعظم الأشخاص أهميةً، ويُصبح بطل القصة، فيضطر الكاتب إلى تغيير مجرى حوادث قصته.

تبدأ القصة، في الواقع، في أثناء كتابتها؛ وعلى ذلك فلا ضرر من انهيار تصميم الرواية أو خطتها، ومن الطبيعي جدًا أنْ تكتسح حياة القصة خطتها، وتغزو حياتها جميع أوراق الكاتب التي سطر عليها تصميمها .

وهذا لا يعني أنَّ الخطة التي يرسمها الكاتب لقصته تغدو عديمة الفائدة،ولا أنَّ مهمة الكاتب هي: أنْ يُسطر على الورق ما يجول بخاطره ويمليه عليه خياله لحظة بلحظة، فبعد أنْ يُقال ويتم فعل كل شيء، تكيف حياة الأشخاص بواسطة وعي الكاتب، وبخياله، وبمجموعة ذكرياته، وحالته العقلية .

قصة رواية
النظر إلى المريخ

سأحاول أنْ أتذكر كيف جاءتني فكرة"Kara- Bogaz"، وكيف تأتي لي أنْ أكتب هذه الرواية .

يعود بي هذا إلى عهد طفولتي الذي قضيته في كييف..، هناك تل صغير يطل على نهر الدنيبر، اسمه "فلاديمير يسكايا جوركا "Vladimirskaya Gorka وفي كل مساء، كان رجل عجوز يرتدي قبعة ذات حافة تميل جوانبها إلى أسفل، يصعد إلى قمة ذلك التل، ويضع منظارًا مُقربًا (تلسكوب)على حامل حديدي كسيح، وكانت المدينة كلها تعرف ذلك الرجل باسم "المُنجم"، ويظنونه إيطاليًا؛ إذ كان يتكلم بلغة روسية سقيمة في بطء وضعف.

بعد أنْ يضبط الرجل اتجاه منظاره يقول: "سادتي، سيداتي، صباح الخير! يمكنكم رؤية القمر والنجوم من قُرب بخمسة كوبكات، وأنا شخصيًا أنصحكم بأنْ تشاهدوا المريخ، ذلك الكوكب المنحوس الطالع، الذي له لون دم الإنسان، ومن يُولد في برج المريخ قد يُلاقي الموت من رصاصة في ميدان الوغى ."

حدث ذات مرة أنْ كنت مع والدي على قمة التل، فتطلعت إلى المريخ خلال ذلك المنظار؛ رأيت فراغًا قاتمًا بوسطه كرة حمراء، وأخذت أراقب الكرة وهي تقترب شيئًا فشيئًا من حافة المنظار حتى احتجبت خلف حافته النحاسية، فأدار المنجم المنظار قليلًا، فإذا بالمريخ يظهر من جديد في مكانه الأصلي، ولكنَّه سرعان ما أخذ ينزلق ثانية نحو حافة المنظار.

سألني والدي: "هل ترى شيئًا؟"

فأجبت: "بالطبع! أرى القنوات التي شقَّها سكان المريخ"، قلت هذا لأني كنت أعلم أنْ سكان ذلك الكوكب قد حفروا قنوات ضخمة على سطحه، غير أنَّني لم أكن أعلم السبب الذي من أجله حفروها.

قال والدي: "هذا مُبالغ فيه بعض الشيء، فإنَّ الفلكي الوحيد الذي استطاع أنْ يرى تلك القنوات هو "سكاباريلي Schiaparelli" الإيطالي، وقد استخدم –بالطبع– منظارًا قويًا، أكثر من غيره من المناظير التي استعملها الفلكيون الآخرون.

لم يتأثر المنجم إطلاقًا عندما ذكر والدي اسم سكاباريلي، المفروض أنَّه أحد مواطني ذلك الرجل المسن.

قلت وأنا غير متأكد مما أقول: "أرى كوكبًا آخر على يسار المريخ، يسبح في جميع الجهات."

ضحك المنجم ملء شدقيه، وقال: "ها ها، لقد ظننت خنفساء فوق العدسة كوكبًا!" قال هذا بلهجة أُوكرانية فُصحى، عن غير قصد؛ فأفصح عن جنسيته الحقيقية.

خلع المنجم قبعته وذب بها الخنفساء عن العدسة.

ملأني النظر إلى المريخ إحساسًا بالخوف والذُّعر، وكان من المريح لي أنْ ابتعد عن المنظار، وأسير على الأرض الصماء لشوارع كييف، تلك الشوارع التي، في ضوء مصابيحها الخافت، وضجيج عجلات عرباتها، والرائحة المغبرة لأزهار الكستناء التي تملأ الجو– تبدو مبهجة ومطمئنة لنفسي. لا شك في أنَّه لم تكن لي أية رغبة في السفر إلى القمر أو إلى المريخ.

سألت والدي: "لماذا كان لون المريخ أحمر كلون الآجر؟"

أجاب والدي بأنَّ المريخ الذي كان في وقتٍ ما عظيم الشبه بأرضنا، به بحار وجبال ومزروعات ناضرة– قد أصبح الآن كوكبًا يحتضر، لقد جفت بحاره وأنهاره بالتدريج، واختفت المزروعات، وأزالت الريح الجبال وجعلتها بمستوى سطحه. وما المريخ اليوم إلَّا صحراء شاسعة جرداء، تُغطيها رمال حمراء؛ لأنَّ الجبال التي كانت على سطحه، كانت ذات يوم من الصخور الحمراء."

قلت: "أمعنى هذا أنَّ المريخ كرة من الرمال الحمراء؟"

قال: "بهذا الشكل تقريبًا، وما حدث للمريخ قد يحدث لأرضنا، فربما يأتي يوم تتحول فيه إلى صحراء، ولكن هذا يستغرق ملايين وملايين من السنين؛ ولذلك لا يجب أنْ نُشغل بالنا بهذا الآن، وفضلًا عن ذلك ففي ذاك الوقت يكون الإنسان قد اخترع وسيلة لاجتناب مثل هذه الكارثة."

أكَّدت لوالدي أنَّه لم يكن عندي أدنى اهتمام أو خوف، والحقيقة أنَّني كنت مبلبل الخاطر،مرتا ع الفؤاد لمجرد التفكير في أنَّ مثل تلك الكارثة قد تحل بكوكبنا، ولما رجعت إلى منزلي، عَلِمت من أخي الأكبر أنَّ نصف سطح الكرة الأرضية اليوم عبارة عن صحراء.

تملكني منذ ذلك اليوم خوف من الصحراء؛ فتغلغلت في نفسي كراهية للبيداء وذعر منها رغم أنني لم أرها، ولم يفلح جميع ما قرأته عن الصحراء الكبرى وريح السموم والجمال التي يطلقون عليها اسم "سفن الصحراء" في إغرائي على حبها.

مضت مدة بعد ذلك، وانتقلت عائلتي إلى الريف لتعيش مع جدي "ماكسم جريجوريفتش"Moxim Grigoryevich ، وفي ذلك الوقت شعرت

لأول مرة بالميل إلى البادية، ولكنَّ مخاوفي لم تذهب، بطريقة ما.

كان صيفًا شديد الحرارة غزير الأمطار، فَنَمَتْ الحشائش وترعرعت وغدت بارتفاع الرجل تقريبًا، وتمايلت عيدان القمح في الحقول تحت عبء سنابلها الناضجة السمينة، وتضوَّع الجو برائحة الشمر تفوح من حدائق الخضراوات، وكان كل شيء يُوحي بمحصول وفير غزير.

بينما كنت أجلس ذات يوم على شاطئ النهر أصيد الأسماك الصغيرة بقصبتي، وكان جدي جالسًا إلى جانبي، فإذا به يَهب واقفًا على قدميه بسرعة، ويضع يده على عينيه وينظر إلى الحقول عبر النهر.

بصق جدي غيظًا وقال: "إنَّها آتية! تلك اللعينة! ليتها تُهلك إلى الأبد، إلى ما شاء الله"!

اتَّجهت ببصري إلى نفس الجهة التي ينظر إليها جدي، غير أنَّني لم أشاهد شيئًا سوى موجة دكناء متدحرجة تُسرع نحونا؛ فاعتقدت أنَّ العاصفة وشيكة الهبوب، بَيْدَ أنَّ جدي تطلَّع إليّ، وقال :

"إنَّها الريح الجافة القادمة من صحراء بخارى، تحمل معها موجة من الحر الشديد يلفح الأرض، يا لها من كارثة أيُّ كارثة، يا ولدي"!

في تلك الأثناء كانت الموجة المشئومة قد وصلت إلينا؛

أسرع جدي يجمع أدوات الصيد، وقال: "أسرع بالجري إلى المنزل يا بني، وإلَّا ملأت الريح عينيك غبارًا، وسألحق بك بعد دقيقة، أسرِع."

جريتُ إلى الكوخ، ولكنْ ريح الصحراء الساخنة أدركتني في الطريق مُحملة بالرمال، تُزمجر في هبوبها وتصفر، وتدفع في طريقها ريش الطيور وقطع

الأخشاب إلى ارتفاع عظيم، لقد كوَّنت ستارًا من الرمال حجب كل شيء؛ فاختنقت الشمس فجأة وغدَتْ في حُمرة المريخ، ومالت نباتات قش المكانس وتكسرت، ولفحت موجة من الحرارة ظهري؛فشعرت بأنَّ قميصي يكاد يحترق، واستقر التراب بين أسناني وغشَّى عيني.

كانت عمتي "فيدويسا ماكسيمونا "Fedoysa Maximouna واقفة على باب الكوخ تحمل أيقونة ملفوفة في غطاء مطرز، فتمتمت بعض ألفاظ ملتاعةً :

"رُحماك يا رباه! أنقذينا، أيتها العذراء المباركة!"

مرت عاصفة الرمل بكوخنا في ذلك الوقت، فجعلتْ زجاج النوافذ غير الثابت يهتز بصوت رتيت، وأطارت القش الموضوع على السطح، والذي انطلقت منه جيوش العصافير كَسِتار من قذائف رصاص البنادق.

لم يكن والدي معنا، إذ بقي في كييف، وقد شغلَتْ والدتي من أجله أيَّما انشغال.

كانت الحرارة لا تُطاق، وكان يبدو أنَّه سيأتي وقت يشتعل فيه القش فوق السطح، وأنَّ شَعْرَنا وملابسنا ستحترق كذلك. وفي المساء كانت أوراق الأعشاب الكثيفة قد ذبلت وجفَّت وتدلت من سوقها بلون رمادي، وتراكمت الرمال فوق أوراق النباتات المُتسلقة على السور، وما إنْ أقبل الصباح؛حتى كانت الزروع قد انكمشت وتصلَّبت وجفت أوراقها حتى ليُمكن تحويلها إلى مسحوق بين الأصابع، أمَّا الريح فاشتدت في هبوبها وأطاحت بأوراق الشجر الجافة، فتعرَّت الأشجار واقتتم لونُها، وبدت كأنَّها في أواخر فصل الخريف.

كان جَدِّي في الحقول، فعاد حائرًا مبهوتًا حزينًا ترتجف يداهُ؛ لدرجة أنَّه لم يستطع حَلْ بِنيقة قميصه الذي غُزلت خيوطه بالمنزل.

قال: "لن تهدأ في الليل؛ لقد أتلفت الغلال، وبساتين الفاكهة وحدائق الخضراوات أيضًا."

لم تسكن الريح بل ظلَّت تهب باستمرار لمدة أسبوعين، لا تضعُف إلَّا لتبدأ في الهبوب من جديد، فتحوِّل الأراضي بيدًا جردًا أمام عيوننا؛ فملأت النساء الأكواخ عويلًا، وجلس الرجال واجمين يحتمون خلف الحوائط، يعبثون في الأرض بعصيهم وهم يقولون :

"لقد تصلبت الأرض وغَدَتْ كالصخر الجلمود، هذه هي قبضة الموت على الأرض، ولا يدري الناس إلى أين يفرون."

حضر والدي ليصحبنا إلى كييف، وكان يُجيب بحذر على أسئلتي الخاصة برياح الصحراء.

قال: "نعم إنَّ رياح الصحراء ستصل في هبوطها إلى أُوكرانيا، وهي مُتلفة للمحاصيل."

قلت: "أَمَا من شيء يُمكن عمله؟"

قال: "لا شيء، إلَّا إذا بنينا حائطًا من الحجر طوله مئات الأميال ليَصُدْ الريح ويمنعها من الوصول إلينا، وهذا مستحيل طبعًا ."

قلت: "لماذا؟ ألم يُقِم الصينيون حائطًا عظيمًا؟"

قال: "الصينيون أساتذة عظام، يا ولدي!"

أخذَتْ آثار الطفولة هذه تنمحي شيئًا فشيئًا على مر السنين، ولكنَّها لم تنمحِ من ذاكرتي، بل تعود إلى مُخيلتي من آنٍ إلى آخر، وخصوصًا في أوقات العواصف حيث تُجدد مخاوفي.

عندما بلغتُ مبالغ الرجال، شغفت كثيرًا بالقسم الأوسط من روسيا، وقد سيطر على قلبي بزروعه الناضرة الخضرة، ومجاريه الكثيرة ذات المياه الرائقة الباردة، وغاباته الرطبة، وأمطاره الخفيفة، وسمائه الغائمة. وعندما رأيت العاصفة تجتاح هذه المنطقة وتلفح أرضها، عاد إليّ خوفي السابق، وتحوَّل إلى ثورة جامحة ضد الصحراء.

الحجر الجيري الريفوني

مضت عدة سنوات قبل أنْ تُذكِّرني الصحراء ثانيةً بوجودها كان ذلك في عام ١٩٣١،عندما ذهبت لأقضي الصيف في مدينة "ليفني "Livni بمنطقة "أوريول"Oryol ، كنت في ذلك الوقت أكتب أولى رواياتي، وشعرت برغبة في أنْ أتوجه إلى بلدة صغيرة لا أعرفُ فيها أحدًا؛حيث يُمكنني العمل دون أنْ يزعجني أحد.

لم يسبق لي الذهاب إلى مدينة ليفني من قبل، غير أنَّني ما كدت أصل إليها ووجدت شوارعها النظيفة، وأكوام أزهار عباد الشمس وطواراتها الصخرية، ونهر بيسترايا سوسنا Bistraya Sosna السريع الجريان؛ حتى أحببتها كثيرًا.

اتخذت مسكني في ضواحي المدينة في بيت خشبي عتيق على شاطئ النهر البالغ الانحدار، وخلف المنزل حديقة فاكهة نصف ذابلة بجوار الأعشاب النامية على ضفة النهر، كان صاحب المنزل رجلًا خجولًا يُدير محلًا صغيرًا لبيع الصحف بمحطة السكة الحديدية، أمَّا زوجته فكانت سيدة نحيفة، تنمُّ ملامحها على حِدة الطبع، وكان له ابنتان تُدعَيَان أنفيسا Anfisa وبولينا.Paulina

كانت بولينا: فتاة هزيلة الجسم في السابعة عشرة، تتحدث إليّ دائمًا في خجل وهي تعبث بعصبية في خصلات شعرها الشقراء، أمَّا أنفيسا فكانت: في التاسعة عشرة، ممتلئة البدن، ذات وجه ممتقع وعينين خضراوين وصوت عذب، كانت تسير في ثياب سود كأنَّها راهبة جديدة، تتهرب من الأعمال المنزلية، وتقضي ساعات طوالًا، مُستلقية على الحشائش الجافَّة بالحديقة تقرأ، كانت تأتي بكتبها من الحُجرة العليا أسفل السقف، وهي عبارة عن: مجلدات عبثت بها

الجرذان، وأغْلَبُها من الترجمة الروسية للأساطير القديمة العالمية، وكنت أستعير تلك الكتب.

بين آونة وأخرى، وأنا في الحديقة، كنت أرى أنفيسا جالسة على شاطئ النهر بقرب بعض الأعشاب العالية، وإلى جانبها شاب في السادسة عشرة، تبدو عليه علامات المرض، ذو شعر أصفر وعينين واسعتين، ورأيت أنفيسا تُحضِر إليه الطعام سرًا، وتنظر إليه بشغف وهو يأكل، وأحيانًا كانت تعبث بشعره. وذات مرة أَخْفَتْ وجهها بيدها في سرعة، وأجهشَّت في البكاء؛ فتوقف الصبي عن الأكل ونظر إليها مذعورًا. فتسللت خارجًا في هدوء، وحاولت لمدة طويلة ألَّا أفكر في ذلك المنظر الذي شاهدته .

تصورت بسذاجة أنَّه سيمكنني في هذه البلدة الصغيرة الهادئة أنْ أتفرغ كُليةً للأشخاص والحوادث التي أكتب عنها! بَيْدَ أنَّ الحياة كانت تتدخل هنا وتقلب خُططي رأسًا على عقب؛ علمت أنَّه لن يهدأ لي بال حتى أعرف سلوك أنافيسا الغريب، تحققت (حتى قبل أنْ أراها مع ذلك الصبي) أنَّ عينيها الحزينتين تنطويان على سر خفي، وقد كشف لي عنه بأسرع مما كنت أتوقع.

أيقظني الرعد في منتصف الليل، والمعروف أنَّ عواصف الرعد كثيرة في ليفني، ويعتقد السكان أنَّ ما تَحوِيه أرضهم من رواسب خام الحديد يجذب العواصف...، كانت ليلةً صاخبةً شديدة الرياح،تشقُّ فيها ومضات البرق دياجير الظلام، وسمعت أصواتًا ثائرة آتية من الحجرة المجاورة، سمعت أنفيسا تصيحُ ساخطة تقول: "أخبراني، أي قانون ذلك الذي يُحرم عليَّ حُبه؟ أريانيه كتابةً بخطيكما، لقد أوجدتماني في هذه الدنيا، وتُريدان الآن أنْ تقتلاني، يا لكما من وحشين! إنَّه يذوي نحافةً، يحترق كما تحترق الشمعة"!

قال صاحب الدار لزوجته، في خجل: "اتركيها وشأنها! دعي هذه الحمقاء

تسلك الطريق التي اختارتها لنفسها، لن تُجدي المناقشة معها اعلمي، يا أنفيسا، إنَّك لن تحصلي مني على أية نقود، لا تعتمدي على ذلك"!

قالت أنفيسا: "لستُ بحاجة إلى نقودك اللعينة، سأكتسب أنا نفسي بعض المال، وسآخذه إلى المصحة، لإطالة حياته، ربَّما إلى عام آخر سأغادر هذا المنزل، ستريان، وإنِّي لأقول لكما إنّكما لن تفلتا من عار هروبي"!

بدأتُ أدرك الموضوع كله، وكان في البهو وراء "بابي" شخص يتمخَّط وينتحب، فتحت الباب فرأيت يولينا على وميض البرق، كانت جالسة مُلتفَّة بشالٍ كبير، وقد أسندت رأسها إلى الحائط.

نطقت باسمها في هدوء، ولكنْ قَصْفْ الرعد كان شديدًا في تلك اللحظة حتى خلتْ أنَّه سَيَدُكْ كوخنا تحت سطح الأرض حتى سقفه؛فأمسكت يولينا يدي في خوف، وهمست قائلة :

"ربَّاه! ماذا سيحدث الآن؟ وهذه الزوبعة قائمة؟"

أسرَّت إليّ بصوت منخفض أنَّ أنفيسا تَهِيْمُ بحب غلام اسمه كولياKolya ، ابن الأرملة الهادئة الطيبة كاربوفنا Karpovna التي ترتزق من غسل الملابس، لا فائدة من نصح أنفيسا العنيدة التي برح بها العشق، تُريد أنْ تتَّبع هواها أو تنتحر.

سكتت الأصوات في الحجرة المجاورة فجأة، فأسرعت يولينا إلى حجرتها، بعد ذلك ذهبت إلى فراشي، غير أنِّي كنت أسْتَرْق السمع ولم استطع إلَّا بعد وقت طويل، ولما هدأ كل شيء في المنزل، بدأتُ أنام خلال أصوات قصف الرعد المُتلاشية ونباح الكلاب، وسرعان ما استسلمت لنومٍ عميق.

لا بُد أنِّي نمت مدة طويلة إلى أنْ أيقظني طَرْقْ صاحب البيت على باب حجرتي.

قال في صوت مُتَهَدِّجْ: "آسف؛لأن أزعجك، ولكنْ بالمنزل مصيبة ." !

قلت: "ما الخطب؟"

قال: "لقد هربت أنفيسا في قميص النوم، سأذهب إلى كاربوفنا في آخر المدينة، لعلِّي أجدها هناك، وأرجوك أنْ تبقى مع الأسرة، إذ أُغمي على زوجتي ."

أسرعتُ بارتداء ملابسي، وأخذت معي زجاجة من أملاح روح الخل، وذهبت إلى صاحبة البيت؛عسى أنْ تفيق من إغمامها، بعد بُرهة أشارت إليّ بولينا أنْ أتَّبعها إلى الباب، لا أستطيع تفسير ما حدث، ولكنْ كان يُخالجني إحساس بحادثٍ مُفجع.

قالت بصوت رقيق: "هَلُمْ بنا نذهب إلى شاطئ النهر."

قلت: "ألديكِ مصباح؟"

"نعم".

"أسرعي بإحضاره!"

جاءت برولينا بمصباح خافت الضوء؛ فانطلقنا إلى ضفة النهر الشديدة الانحدار.

طفِقت بولينا تُنادي بصوت مرتفع وتُردد: "أنفيسا– ١ – ١!" فقلت لها: "لا فائدة من المُناداة! لا فائدة"!

ومضت عدة أضواء من البرق في السماء وراء النهر، وقصف الرعد بعيدًا عن الأفق، وتساقطت قطرات الغيث على الأعشاب النامية عند ضفة النهر؛ فأخذنا نسير على الشاطئ بمحاذاة التيار، وكان ضوء المصباح ضعيفًا جدًا، وفجأة ومض البرق فوق رؤوسنا فإذا بي أرى شيئًا أبيض على حافة النهر.

عندما بلغت مكان ذلك الشيء؛ رأيت ثوب فتاة، وقميص نوم، وحذاء.

أطلقت باولينا صرخة مُدوية،رَدَّدَ سكون الليل صداها، وجرت نحو المنزل، أمَّا أنا فأسرعتُ إلى زَوْرَقْ العبور وأيقظت "المعداوي" من نومه، وشرَعنا نجُوب النهر جيئة وذهابًا، ننظر خلال الماء طول الوقت.

كان الرجل شِبه متيقظ، فقال وهو يتثاءب: "لا جدوى من البحث عن الجثة في ليلة عاصفة كهذه، لن تجدها حتى تطفو على سطح الماء، إني أتذكر تلك الفتاة الحسناء الرائعة الجمال، ولكن الموت لا يترك أحدًا، لا بُد أنَّها خلعت ملابسها ليكون الغرق أسهل."

وفي الصباح التالي، عثروا على جثة أنفيسا طافية بجانب سد النهر.

كانت أنفيسا وهي راقدة في نعشها جميلة كفلقة القمر، تبدو خصلات شعرها المبتلة في لون الذهب البراق، وتعلو شفتيها الشاحبتين ابتسامة آثمة.

جاءت سيدة عجوز إلى جانبي وقالت: "لا تنظر إليها مليًا هكذا؛ إنَّها لجميلة فاتنة حتى ليحز جمالها في قلب المرء"!

غير أنَّني لم أستطع إبعاد نظري عن وجه أنفيسا، وكنت أعرف أنَّ هذه هي أول مرة في حياتي أنظر فيها إلى وجه سيدة كان حُبها أقوى وأشد عنفًا من الموت، قرأت في الكتب قبل ذلك عن مثل هذا الحب، ولكنِّي لم أكن أؤمن بوجوده، والآن، لسبب ما جال بخاطري أنَّ مثل هذا الحب يقع غالبًا للسيدة الروسية.

حضر الجنازة جمعٌ غفير، وكان كوليا يسير في المؤخرة؛خشية أنْ يلتقي بأحد من أهلها، فلما رآني أحاول الوصول إليه؛ تسلل واختفى فلم أره بعدها.

كان أثر موت أنفيسا المُفجع في نفسي بالغًا، فلم أتمكن من الاستمرار في كتابة روايتي؛ ولذلك انتقلت من ضواحي المدينة إلى منزل كئيب المنظر بجوار محطة السكة الحديدية تملكه طبيبة موظفة بالسكة الحديدية اسمها "ماريا ديمترينا ساتسكايا. "Maria Dmitriyvna Shatskaya

ذات مرة، قبل غرق أنفيسا بوقتٍ ما، كنت سائرًا في متنزه المدينة، فرأيت حشدًا من الصبيان جالسين على الأرض، على بضع خطوات من دار خيالة صيفية، وقد علا ضجيج وصخب الغبطة والسرور بينهم.

بعد دقيقة، أقبل رجل أشيب الشعر من دار الخيالة، وشَرَعَ يُوزع تذكرات الدخول على أولئك الغِلمان المبتهجين، الذين صاحوا وصفَّروا واندفعوا إلى بابها، كان وجه ذلك الرجل ذو الشعر الأشيب؛يدل على صغر سنه التي قدرتها بما لا يزيد على الأربعين سنة. وبعد أنْ التفت نحوي بروح طيبة، مرَّ بجانبي وسار في طريقه بعدَ أنْ لوَّح إليّ بيده.

دفعني الفضول إلى معرفة سر ذلك الرجل الغريب المسلك، فتبعت الأولاد إلى دار الخيالة حيث بقيت ساعة ونصف الساعة أُشاهد فيلمًا قديمًا اسمه "العفاريت الصغيرة الحمراء"، بين صفير الأولاد والدَّب بأرجلهم على الأرض، وصيحات الاستحسان والاشمئزاز .

جمعتُ الأولاد المُثرثرين حولي بعد العرض، وحالفني النجاح في أنْ أحصل منهم على كل ما يعرفونه عن ذلك الرجل الذي أدخلهم "السينما" على حسابه الخاص.

علمت أنَّه شقيق الدكتورة ماريا شاتسكايا، وأنَّ بعقله لوثة، وأنَّه يتقاضى من الحكومة معاشًا ضخمًا، ولكن لا أحد منهم يعرف السبب الذي من أجله

يتقاضى ذلك المبلغ، كان يتسلَّمه مرة واحدة في كل شهر، ويوم حصوله عليه يشتري تذكرات السينما لأطفال الحي. وقد تمكن الأولاد، بطريقة ما، من معرفة اليوم الذي يتسلم فيه معاشه بالضبط، فيجتمعون في الحديقة القريبة من منزل شاتسكايا، ويحاولون الظهور كأنَّهم إنَّما وجدوا هناك بمحض الاتفاق.

بعد موت أنفيسا؛ لزمت والدتها الفراش، تشكو باستمرار من قلبها، وقد استدعيت الدكتورة ماريا شاتسكايا ذات مرة لتعودها، فكان هذا سبب معرفتي بها، إنَّها سيدة فارعة الطول قوية العزيمة، تلبس منظارًا بسيطًا، ولا تزال تحتفظ بمظهر طالبة الطب رغم تقدم سنها، أخبرتني بأنَّ أخاها من عُلماء طبقات الأرض المبرزين، وأنَّه يشكو من مرض عقلي. وأيَّدت ما قاله الغلمان من أنَّه يتقاضى معاشًا نظير خدماته في المحيط العلمي، كما أخبرتني بأنَّ كتبه ذات شهرة عالمية.

قالت لي بلهجة المِهنة: "لا يصلُح هذا المكان لك، سيأتي الخريف وستكثر الأوحال هنا بدرجة فظيعة، كما أنَّني على يقين من أنَّك لن تستطيع الكتابة في هذا الجو الكئيب، لماذا لا تنتقل إلى منزلي؟ ليس هناك سوى ثلاثتنا: أنا وأمي وأخي، وبه خمس غرف، وهو بجانب محطة السكة الحديدية، لا تخفِ من أنْ يتدخل أخي في عملك، إنَّه مثال الذوق."

سرَّني هذا الاقتراح، وبذلك تعرفت على فاسيلي ديمتريفيتش شاتسكي Vasily Dmitriyevich Shatsky الذي صار الشخصية الرئيسية في روايتي "Kara Bogaz".

كان مسكني الجديد هادئًا بحق، يُسيطر عليه كله روح النُّعاس؛ فالدكتورة ماريا تقضي جَلَّ وقتها خارج المنزل: في المستشفى، أو في زيارة المرضى، وكانت أمها تتسلى وهي جالسة بشيء ما، أمَّا أخوها فقلَّما كان يُغادر حجرته، وقد

لاحظتُ أنَّه يقرأ جريدة الصباح من أول سطر فيها إلى آخر سطر، ثم يقضي بقية اليوم في الكتابة، فما يأتي المساء إلَّا ويكون قد ملأ كراسة كبيرة، وكنت أسمع بين آونة وأخرى صُفَّارة القاطرة الوحيدة في المحطة.

كان فاسيلي شاتسكي يتحاشاني في أوَّل الأمر، ولكنَّه لم يمضِ وقتًا طويلًا حتى اعتاد رؤيتي بالمنزل، وكان يميل كثيرًا إلى أنْ يتحدث معي، وقد علمت من اتصالاتي اليومية به غرائب مرضه، ففي الصباح عندما يكون عقله لا يزال مرتاحًا، يكون حديثه ممتعًا لا يختلف عن حديث أي رجل عاقل، وكان من الواضح تمامًا أنَّه على قدرٍ عظيم من العلم، غير أنَّ آثار التعب تبدو عليه بسرعة، فيشرد عقله، ولكنَّه يتكلم بطريقة منطقية مدهشة حتى في أوقات شرود ذهنه.

ذات يوم أطلعتْني ماريا ديمترينا على مذكرات أخيها، كانت تحتوي على سطور من الألفاظ لا ارتباط بينها، أو بعض تراكيب من الألفاظ، تبدأ كلها عادةً بنفس الحرف، ولكن ليس بينها جملة واحدة كاملة، مثل: هنغاري، هواء، هلع، فرنسوا، فرن، فشل، وهكذا.

لم يحدث أنْ أزعجني شاتشكي وأنا أكتب، فكان يخشى أنْ يحدث صوتًا، ويبلغ به الحذر أحيانًا أنْ يسير على أطراف أصابع قدميه في الحجرات المجاورة.

أوضحت في روايتي كيف اختل عقله؛ فقد بعثت به الحكومة في بعثة لعلماء طبقات الأرض، إلى أواسط آسيا إبان الحرب الأهلية، فقبضت عليه عصابة باسماكي Basmachi المناوئة للثائرين، وكانوا يأخذونه كل يوم مع بعض الأسرى الآخرين إلى ميدان الإعدام، ولكن الحظ كان حليفه، وكلما اعدموا خامس رجل رميًا بالرصاص، كان هو الثالث دائمًا. إذ كلما أعدموا ثاني رجل، كان ترتيبه الأول باستمرار، وهكذا عاش ولم يُعدم، ولكن حياته كلَّفته عقله،

وظلت شقيقته تبحث عنه حتى عثرت عليه أخيرًا في مدينة كراسنو فودسك. Kransnovodsk، يعيش وحده في عربة سكة حديدية محطمة.

كان شانسكي يذهب كل يوم إلى مكتب البريد ليُرسل خطابًا مُسجلًا إلى مجلس رؤساء الشعب فاتصلت ماريا ديمترينا بوكيل مكتب البريد واتفقت معه على أنْ يُسلمها خطابات أخيها، فكانت تحرقها من فورها.

اجتاحتني رغبة مُلِحَّة في أنْ أعرف ماذا يستطيع شاتسكي أنْ يكتب في تلك الخطابات، فلم أستغرق وقتًا طويلًا حتى تم لي ما أردت.

وذات مساء بينما كنت مستلقيًا على سريري أقرأ، وقد وضعت حذائي تحت السرير، جاء إليّ شاتسكي وقال: "لا تضع حذاءك أسفل السرير ومقدمته إلى الأمام"!

"ولماذا؟"

"ستعرف بعد دقيقة".

ثم خرج وعاد بعد لحظة ومعه قطعة من الورق، فقال:

"اقرأ هذه، وبعد الانتهاء من قراءتها، اطرق على الحائط إذا ستعصى عليك فهم شيء منها؛فآتي إليك لأفسره لك بكل سرور."

قال هذا وأعطاني خطابا بعنوان "مجلس رؤساء الشعب".

قرأت الخطاب، فإذا مقدمته هكذا: "لقد حذرتكم مرارًا من الخطر العظيم الذي يُهدد وطنا، فكلنا نعرف أنَّ القشرة الأرضية تحتوي على كميات هائلة من الطاقة المادية، ومن أمثلتها: رواسب الفحم والبترول والطمي"، بعد ذلك أخذت أقرأ عبارات لا تصدر إلَّا من شخص مجنون، فاستطرد يقول في

الخطاب: "وقد عَرِفَ الإنسان كيف يطلق هذه الطاقة ويستعملها.

"ولكنْ قليلًا من الناس هم الذين يعرفون طاقة الذهن لعدة عصور، مخزونة في القشرة الأرضية.

"توجد في مدينة ليفني أضخم طبقة من الحجر الجيري الديفوني Devonianفي أوروبا كلها، لقد وُلد الوعي العالمي الخافت في العصر الديفوني، قاسيًا، مُجرَّدًا من أقل علامات الإنسانية، ذلك الوعي الذي تركه لنا عقل أسلافنا الخامل.

"تتركز هذه الطاقة العقلية الفطرية في الأمونيت ammonites الصخري، ويحتوي الحجر الحيري الديفوني على كثير من الأمونيت المتحجر الحضري، فكل أمونيت هو في الحقيقة: عقل صغير من عقول ذلك العصر الغابر البعيد، هو قابلة تحتوي على أكثر أنواع الطاقات شرورًا .

"ولحُسن الحظ لم يستطع الإنسان اختراع وسيلة لإطلاق هذه المقادير الضخمة من الطاقة، أقول "لحسن الحظ"؛ لأنَّه إذا وُجدت وسيلة لإطلاق هذه الطاقة كان فيها القضاء على المدنية، فكل إنسان يعدى بقوتها الشريرة يتحول إلى وحش قاس، وينقاد إلى غرائزه الشريرة السافلة انقيادًا أعمى، وبذلك تهلك جميع الكائنات.

"ولكنْ كما سبق أنْ حذَّرت مجلس رئاسة الشعب عدة مرات، نجح الفاشيون في إيجاد وسيلة لإطلاق طاقة المخ الموجودة بالطبقة الديفونية، ويعملون الآن على إحياء الأمونيت .

"وبما أنَّه تُوجد رواسب غنية جدًا من الحجر الجيري الديفوني في مدينة ليفني، فقد اختارها الفاشيون مركزًا يطلقون الطاقة الشريرة للمخ. ولو نجحوا في

هذا،لأصبح من المستحيل اجتناب دمار الجنس البشري خُلقيًا وبدنيًا."

شرح فاسيلي شاتسكي في خطابه كيف صمم الفاشيون خُطة مفصَّلة لإطلاق طاقة المخ الموجودة في الطبقة الأرضية بمدينة ليفني، بَيْدَ أنَّه–كبقية الخطط– مهما كانت خطة الفاشيين مُحكمة؛ فإنَّها ستفشل إذا حدث خطأ ولو في وضع مسمار واحد، الذي لا يعدو أنْ يكون شيئًا تافهًا .

ثم قال شاتسكي في خطابه: "وعلى ذلك، فضلًا عن ضرورة حِصار ليفني بقوات ضخمة، يجب إصدار أوامر مُشددة إلى السكان للبدء في أنْ يعكسوا طباعهم وأخلاقهم (حيث إنَّ نجاح الخطة يتوقف على انتظام السكان في عاداتهم)، وأنْ يفعلوا أشياء غريبة لا يتوقع الفاشيون حدوثها؛ وبذلك يوقعون الفاشيين في حيرة تامة، وسأشرح طريقة ذلك: يجب على سكان مدينة ليفني، من الآن فصاعدًا أنْ يضعوا أحذيتهم تحت أسرتهم، في وقت نومهم، على أنْ يكون كعب الحذاء إلى الأمام بدلًا من موضع أصابع القدم، فمثل هذه الطريقة التي يتعوَّدها الفاشيون من قبل، ستقلب خطتهم رأسًا على عقب.

"وزيادة على ذلك، يجب أنْ أَلفت نظركم إلى أنَّ الطاقة المخية الكامنة في الحجر الجيري الديفوني بمدينة ليفني –آخذة في التسرب شيئًا فشيئًا؛ وهذا نتيجة لانحلال الأخلاق في هذه المدينة بالقياس إلى المدن الأخرى المساوية لها في الطراز وفي المساحة.

"وأختم كلمتي بأنْ أخبركم أنَّ الصيدلي الموجود بالمدينة هو: سفير الفاشيين في ليفني."

تملَّكني شيء من الذعر بعد قراءة ذلك الخطاب، وأدركت أنَّ شاتسكي ليس عديم الخطر كما يبدو عليه، وسُرعان ما اكتشفت أنَّه يحدث له كثير من

نوبات الجنون، ولكنْ أُمه وأخته تعملان–بطريقة ما– على إخفائها عن الأغراب.

بينما كُنَّا جالسين إلى المائدة جميعًا، في مساء اليوم التالي، إذ أمسك شاتسكي إبريق اللبن فأفرغه كله في مدخنة الساموفار (جهاز روسي يتكون من: موقد وإناء كبير لعمل الشاي) المشتعل، فأطلقت والدته صرخة، أمَّا ماريا ديمترينا فنظرت إليه برزانة، وقالت:

"هل رجعت إلى حِيلك القديمة من جديد؟"

ابتسم شاتسكي ابتسامة المُعترف بذنبه وقال: إنَّه أفرغ اللبن في مدخنة الساموفار ليخدع الفاشيين، أي ليُحبط خططهم، ويُنقذ البشرية من كارثة مُحققة.

أَمَرَتْه أخته في لهجة حاسمة بأنْ يذهب إلى حجرته فورًا، ثُم نهضت وفتحت النوافذ ليخرج دخان اللبن المحترق، بينما انسحب شاتسكي من الحجرة صاغرًا مُطأطئ الرأس .

يتحدث شاتسكي في لحظات اتِّزانه بشوقٍ دافق، فعلمت منه أنَّه قضى جزءًا كبيرًا من حياته بأواسط آسيا، وأنَّه واحد من أوائل مُكتشفي خليج بوغازقرةKara– Boqaz ، وأنَّه خاطر بحياته مُغامرًا بالذهاب إلى شواطئه الشرقية، وطَفِقَ يصِفُها ويبيِّنها على الخريطة. وكذلك اكتشف رواسب ضخمة من الفحم في الجبال الصخرية بقرب ذلك الخليج.

أطلعني على صور فوتوغرافية كالتي يصورها علماء طبقات الأرض مُخاطرين بحياتهم، ومن بينها صور جبال بها شقوق وأخاديد تشبه إلى حد كبير تضاريس مخ الإنسان. وصور أراضي Ust– Urt أوست أورت المشئومة التي ترتفع عن سطح الصحراء.

وهكذا كان شاتسكي أوَّل مَن أخبرني عن بوغاز قرة: ذلك الخليج الخطر الغامض ببحر قزوين، وعن رواسب الميرابيليت التي لا ينضب معينها، والتي يمكن استعمالها في تعمير الصحراء وتحويلها إلى حدائق غنَّاء.

أمَّا الصحراء فكان شاتسكي يمقُتها مقتًا شديدًا، كما لو كانت كائنًا حيًّا، وكان يقول عنها إنَّها قُرحة أو سرطان على سطح الأرض، آفة مُفزعة، وسفالة من الطبيعة تفوق كل وصف.

قال: "يجب أنْ نقهر الصحراء ونمحوها من الوجود: بالجهاد المستمر في غير ما هوادة ولا رحمة، ونُقيم فوق جثتها أرضًا استوائيةً غزيرة الأمطار.

جددت كلماته هذه كراهيتي للصحراء، تلك الكراهية التي خمدت منذ عهد الطفولة.

استمر شاتسكي بعد ذلك في حديثه، فقال: "لو أنَّ نصف الأموال والجهود اللتين تُبذلان في الحروب، تُنفَقان في محاربة الصحراء، لما كانت هناك صحراء اليوم، إنَّ الحرب تستنفد ثروتنا القومية، وتذهب بملايين الأرواح من الناس، ويتعاون العلم والثقافة وحتى الشعر نفسه على تقدم هذه المذبحة البشرية.

صاحت ماريا ديمتريا من الحجرة المجاورة وقالت: "أي فاسيلي! تمالك نفسك، لن تكون هناك حروب بعد ذلك، على الإطلاق"!

فأجابها بلهجة تُخالف لهجته الأولى: "يا له من هُراء! ستدبُّ الحياة في الأمونيت في هذه الليلة بالذات، وسأخبرك عن المكان الصحيح بالضبط: إنَّه بقرب مطحن الدقيق، نستطيع الذهاب إلى هناك ونتحقق بعيون رؤوسنا ."

بدأ يهذي؛ فاقتادته ماريا ديمترينا خارج الحجرة، وأعطته دواءً مهدئًا للأعصاب، وجعلته ينام في سريره.

تغلَّبت عليّ فكرة أكثر من غيرها؛ لكي أنتهي من الرواية التي كنت أكتبها بأسرع ما في مكنتي؛ ولكي أبدأ في كتابة رواية أُخرى عن الجهد اللازم لتحويل الصحراء إلى أرض خصبة، وهكذا نشأت خطة رواية بوغاز قرة وتكوَّنت في مخيلتي .

غادرت ليفني في أواخر الخريف، وقبل رحيلي ذهبت لأودع أسرة أنفيسا، فوجدت والدتها لا تزال في الفراش، ولم يكن والدها بالمنزل، أمَّا بولينا فعادت معي إلى المدينة.

كان الوقت مساءً، وطبقة الثلج الرقيقة تتكسر تحت أقدامنا، وتعرَّت أشجار الفاكهة إلَّا من بضعة أوراق جافة هنا وهناك، واختفت آخر سحابة وراء الشمس الغاربة الباردة.

سارت بولينا إلى جانبي وقد وضعت يدها في يدي، في ثقةٍ تامة؛ فاعتبرتُها بذلك طفلة بالنسبة لي، طفلة وحيدة على شيء كثير من الخجل، وتحرَّك قلبي نحوها بالعطف والشفقة.

عندما اقتربنا من المدينة؛ وصلت إلى أسماعنا أصوات موسيقى خافتة آتية من دار الخيالة، وبدأت الأنوار تتألق في الأكواخ، ودخان الساموفارات يرتفع فوق البساتين، وتتألق النجوم فيبدو لألاؤها خلال فروع الأشجار العارية.

تملَّك قلبي هياجٌ غريب،خلّته من أجل تلك الأرض الجميلة حولي، ومن أجل فتاة حسناء كبولينا؛ يجب أنْ يُناضل الناس من أجل الحياة السعيدة المعقولة، كما يجب القضاء على كل شيء يُسبب الأحزان والبؤس للجنس البشري: كالصحراء والحروب والظلم والنفاق واحتقار الغير.

رافقتني بولينا حتى أوَّل منزل بالمدينة، وكانت تُسبل عينيها وتعبث

بخصلات شعرها، ثم قالت فجأة: "سأقرأ كثيرًا الآن يا قسطنطين جريجوريفتش Konstantin Grigoryevich" والتفتت إليّ في خُفر، فسلمت عليها، وأسرعت راجعة في الطريق إلى بيتها .

كانت عربة القطار التي سافرت فيها إلى موسكو مزدحمة بالراكبين، وفي أثناء الليل خرجت إلى الممر؛لأُدخن لفافة تبغ؛ فخفضت زجاج النافذة وأخرجت رأسي إلى الهواء الطلق.

انطلق القطار يجري وسط الغابات المظلمة التي يحجبها الظلام الدامس، ولكنَّها كانت تُعلن عن وجودها بترديد صدى صوت عجلات القطار وهو يسير... هبَّت الريح في وجهي باردة تحمل معها رائحة الثلوج المبكرة وأوراق الأشجار التي جمَّدها الصقيع، وكانت سماء الخريف تسير مع القطار، تتألق بوميض نجومها، وكانت الجسور تُطقطق تحت عجلات القطار المسرعة، وتنعكس أضواء النجوم على صفحة الماء القاتم في الترع والجداول التي تَمُر عليها.

كان القطار ينفخ ويزمجر ويقرقع في سيره، يتطاير الشرر من مدخنته، ويُرسل ضوءه الكشاف؛لينير الطريق أمامه بعض الشيء، وتُصفر القاطرة بكل قوتها كما لو كانت سَكرى من فرط سرعتها.

شعرتُ بأنَّ القطار كان يحملني إلى انجاز عملي العظيم، عن جمال الليل، وصلتي الوثيقة بأرض ميلادي، وكانت قُبلات الريح تنهال على وجهي أشبه بأريج خصلات شعر الفتيات الفاتنات؛ فأخذني الشوق إلى أنْ أُقبِّل تلك الخصلات والريح والأرض الباردة الرطبة تحت أقدامي، ولمّا لم أتمكن من ذلك؛ شرعت أُغني كمن به مس، أنطق بعبارات عديمة المعنى، مُتغنيًا بجمال السماء الشرقية التي بدأت زُرقتها الجميلة تُطل من خلال الظلام؛ وعندئذ أدركت أنَّ قد آن مولد فجر يوم جديد.

حفَّزتني المناظر الخلابة التي رأيتها والبهجة الجمَّة التي شعرت بها بطريقة خفية بارعة– إلى عقد النية على الكتابة، على الكتابة في الحال، ولكن ماذا أكتب؟ علمت أنَّ تأملي في جمال الأرض، وشوقي الجارف إلى إنقاذ هذه الأرض من الفناء والموت، سيكوِّنان فكرة الرواية، بَيْدَ أنَّني لم أهتم قَيْدَ أُنْمُلَة بما سوف تكون عليه هذه الفكرة.

سُرعان ما اتخذت أفكاري شكلًا محدودًا عن فكرة الرواية التي أطلقت عليها اسم "بوغاز قرة"، وكان من السهل أنْ تجد تلك الأفكار مصطلحًا لها،وتُصبح فكرة لكتاب آخر. ولكن كان يجب أنْ تتشبع بنفس العواطف والأفكار التي تملَّكتني في ذلك الوقت؛ فجعلني هذا أؤمن بأنَّ فكرة الكتاب إنَّما تخرج من القلب غالبًا.

وإذا وجدت الفكرة، فإنَّه لا بُد للكاتب من فترة أخرى لتحدد فترة "التنشئة"،أو بالأحرى الفترةِ التي يكسو فيها الأفكار ثوبًا من واقع الحياة.

دراسة الخرائط

عندما وصلتْ إلى موسكو، حَصَلت على خريطة تفصيلية لبحر قزوين، وظللت مدة طويلة أجدل على سواحله الشرقية الجدباء (في مُخيلتي طبعًا.(

كنت أعجب بالخرائط منذ حداثة سني، وكنت أنكبُّ عليها الساعات الطوال كما لو كانت أشد الكتب إثارة للمتعة، فدرست اتجاه الأنهار والشواطئ ذات التضاريس العجيبة، والغابات التي تحدد فيها مراكز التجارة بدوائر صغيرة تتكرر كما يُكرر الإنسان أبياتًا من الشعر، وتحمل أسماء جغرافية متجانسة مثل: هبريديس **Hebrides** وجبال جواداراما **Guadarrama** وإنفرنيس **Inverness**وبحيرة أونيجا **Onega** وكورديليراس.**Cordilleras**

بدأتْ تتكون في مُخيلتي صور حية عن هذه الأماكن، حتى أصبح في إمكاني عمل مذكرات سياحية عن عدة أجزاء من ظهر الكرة الأرضية.

لم يرقَ والدي (ذا العقل الخيالي) شغفي الزائد بالجغرافيا، قائلًا: إنَّ فيها خيبة أمل كبيرة لي.

قال: "لو واتتك الفرصة في المستقبل للسفر، لوجدت نفسك قد خُدعت، إذ تجد الممالك التي تزورها مختلفة تمام الاختلاف عمّا كنت تتصورها، فمثلًا: تجد المكسيك بلادًا كثيرة الغبار وفقيرة فقرًا مدقعًا، وتجد سماء المناطق الاستوائية رمادية اللون كالحة.

لم أُصدق ما قاله والدي؛لأنَّني كنت أعلم أنَّ سماء المناطق الاستوائية يستحيل أنْ تكون رمادية قط، بل شديدة الزُّرقة، لدرجةِ أنَّ ثلوج جبل كليمنجارو Kilimanjaroنفسها تتلون باللون النيلي المنعكس من لون السماء.

وعلى أيةِ حال، فإنَّ شغفي بالجغرافيا لم يضعُف ولم يفتر، ولمَّا سنحت لي الفرصة بعد ذلك بالسفر؛ تأيَّد اتهامي بوالدي بأنَّ آراءه بعيدة كل البعد عن الصواب.

فعندما زرت كريميا لأوَّل مرة (وكنت قد درست كل جزء منها على الخريطة) وجدتها حقيقةً تختلف عن الأرض التي كنت أتصورها في مُخيلتي، ولكن دراستي لها، ووجود فكرة في مخيلتي عنها؛ جعلاني أُلاحظ أشياء أكثر مما لو لم تكن لدي أي فكرة عنها، فكنت أرى في كل مكان بعض المناظر أو المظاهر التي فاتتني معرفتها؛ فتثبت تلك المظاهر عميقًا في ذاكرتي.

ومثل هذا ينطبق تمامًا عن الناس وصورهم في مُخيلتي، فمثلًا: كل فرد منا لديه فكرة عن هيئة جوجولGogol ، ولكنَّا لو أبصرنا جوجول شخصيًا،

بدمه ولحمه؛ للاحظنا عدة خواص لا تتفق وصورة جوجول في مخيلتنا، وهذه الخواص تؤثر فينا أكثر من غيرها، وبعبارة أخرى، إذا لم تكن لدينا أي فكرة عن ذلك الكاتب؛ فاتنا كثير من الأشياء الجديدة بالملاحظة، فأغلبنا يتصور جوجول رجلًا عابس الأسارير متغطرسًا لا يهتم بغيره،ولكنْ ملامح جوجول، التي تدل على عكس ذلك تَثبُت في مخيلتنا أعمق من أي شيء آخر كنا نعرفه عنه: أي أنَّنا وجدناه على عكس ما كنا نتوقع، طلق المحيا، خفيف الروح مع شيء من التحفُّظ، يميل إلى الضحك، أنيقًا في ملبسه، يتكلم بلغة أُوكرانية فصحى.

ورغم وجود كثير من المرونة في هذه الأفكار؛ فإنَّني مقتنع بصحتها .

وهكذا، فإنَّ دراسة بقعة من الأرض على الخريطة، والتجوُّل خلالها في مخيلتنا، يُضفيان عليها صورة معينة، حتى إذا ما سافرنا إليها بعد ذلك، لم نجد بها غموضًا.

عندما بلغتُ موسكو كنت أجول في مخيلتي على شواطئ بحر قزوين الباردة، وفي نفس الوقت قرأت كل ما أمكنني العثور عليه في مكتبة لينين Leninالصحراء:من حكايات خيالية وقصص الرحلات والمقالات، حتى الأشعار العربية، فقرأتPrzhevalsky ، وAunchin، وSven Hedin، وVàmbéry، وMac Gaham، و Grum– Grzhimailoومذكِّرات Shevchenkoعن شبه جزيرة مانجيشلاكMangyshlak ، وتاريخ خيفا Khivaوبُخارى، وتقارير بوتاكوفButakov ، ومؤلفات الرحالة كاريلين Karelin،ومختلف الأبحاث الجيولوجية، وما قرأته من ثمرة التقصِّي العميق العنيد للإنسان؛ قد فتح أمامي دنيا عجيبة.

وأخيرًا جاء الوقت الذي لا بُد أنْ أسافر فيه لأرى بحر قزوين وخليج بوغاز قرة بنفسي، بَيْدَ أنَّه لم يكن لدي المال اللازم لذلك.

ذهبت إلى إحدى دور النشر وقابلت مديرها وأخبرته بأنني أكتب رواية عن خليج بوغاز قرة؛ أملًا في أنْ أُبرم معه عقدًا، غير أنَّ حديثه كان بعيدًا عن التشجيع.

قال: "لا بُد أنَّك فقدت كل معلوماتك عن الحقائق السوفييتية باقتراحك شيئًا غير معقول كهذا"!

قلت: "ولماذا؟"

قال: "لأنَّ كل أهمية خليج بوغاز قرة تنحصر في كمية ملح جلوبر (سلفات الصودا) الموجود بمائه، ولستَ بحاجة إلى كتابة رواية عن مادة مُسهِّلة، أليس كذلك؟ فإذا لم تكن تهزأ بي، وكنت جادًا في اقتراحك؛ أبعد فكرة الجنون هذه من رأسك، فلن تجد ناشرًا قط يُعطيك كوبيكا واحدًا من أجلها ."

استطعت الحصول على بعض المال، بمشقةٍ بالغة، من مصادر أخرى .

سافرت إلى ساراتوفSaratov ، ومِن هناك ركبت سفينة في نهر الفولجا إلى مدينة استراخانAstrakhan ،حيث توقفت عن المسير إذ أنفقتُ جميع المبلغ الصغير الذي كان معي، بَيْدَ أنَّني كتبت بضعة قصص لصحيفة في أستراخان ولمجلة في موسكو اسمها "ثلاثون يومًا"؛ وبذلك أمكنني الحصول على مبالغ تكفيني في أسفاري بعد ذلك.

ولكي أكتب تلك القصص؛سافرت في نهر إمبا Emba إلى سهول أستراخان التي كانت ملائمة جدًا لكتابة روايتي، ولأصل إلى نهر إمبا؛ ركبت قاربًا عتيقًا في بحر قزوين سار بي بجوار شواطئ مليئة بالغاب الكثيف، وكان اسم القارب غريبًا """الهليوتروب"Heliotrope ، وأينما سِرت في ذلك القارب؛وجدت النحاس الأصفر شأنُه شأن جميع القوارب القديمة، فدرابزين

السلم من النحاس، وكذلك البوصلة والمناظير وآلات الملاحة، وحتى عتبات المقاصير كانت من النحاس الأصفر اللامع، كل ذلك جعل الهليوتروب يتهادى على صفحة ماء ذلك البحر الضحل كأنَّه ساموفار مصقول يبرق،ويخرج الدخان فيرتفع إلى عنان السماء.

كانت عجول البحر تسبح على ظهورها في ذلك الماء الدافئ، وتضربه بزعانفها القوية بين آونة وأخرى، وقد تبعث الهليوتروب فتيات صغيرات في ملابس البحارة الزرقاء، يركبن أطوافًا، وقد التصقت فلوس السمك بوجوههن الحسناء، وكُنَّ دائمات الضحك والصفير.

اختلطت صور السحب البيضاء، والجزر الرملية المجاورة، عند انعكاسها على سطح الماء اللامع، وبدت مدينة جورييف **Guryev** وسط سحب كثيفة من الدخان، بعد ذلك ركبت قطارًا جديدًا كل الجِدَّة، كان في أول رحلة له عبر السهول الواسعة إلى نهر إمبا، وكنت أسمع أزيز مضخات البترول في مدينة دوسور **Dossor** الواقعة على نهر إمبا وسط بحيرات عديدة من الماء الأحمر المتألق، وأشمُّ رائحة محلول الملح، ولا يستعمل أهل هذه المدينة الزجاج لنوافذ منازلهم، بل يستعيضون عنه بشباك من السلك تُغطيها طبقات كثيفة من السناج (الهباب) تحجب الضوء.

ما إنْ بلغت نهر إمبا،حتى كان كل تفكيري في استخراج البترول؛ فجمعت كل ما أستطيع جمعه من معلومات عن آبار البترول، والتنقيب عنه في الصحاري، والزيت الثقيل، والزيت الخفيف، وآبار البترول الشهيرة في ماراكايبو **Maracaibo**بفنزويللا،حيث يذهب المهندسون من إمبا؛لزيادة التمرُّن، وذات يوم أبصرتُ أفعى ضخمة تعضُّ أحد المهندسين، فمات في اليوم التالي.

هذه هي أواسط آسيا بحرها اللافح المُلهب، ونجومها المتألقة خلال سحب

الغبار الكثيفة،حيث يسير القوزاق العجائز بسراويلهم الفضفاضة المصنوعة من منسوج البفتة الحمراء الزاهية المزركشة بنقوش من أوراق الأشجار الخضراء.

كنت أعود إلى استراخان عقب كل رحلة، كنت أعيش في بيت خشبي صغير يملكه أحد مُحرري جريدة استراخان اليومية، فعندما وصلت إلى هذه المدينة؛ أخذني إلى منزله لأعيش معه، والحق أنَّني تمتَّعت بُحرِّية وراحة تامتين في ذلك المنزل القائم على شاطئ غدير يمر وسط حديقة صغيرة زاخرة بشجيرات أبي خنجر المزهرة، وكنت أكتب قصصي لتلك الصحيفة في عرش (تكعيبة) به قُمرة صغيرة في قلب الحديقة، لا تتسع لأكثر من شخص واحد، كما أنني كنت أتخذ من هذه القُمرة حجرة لنومي.

كانت زوجة هذا المحرر سيدة لطيفة طيبة صغيرة السن تبدو عليها سيماء المرض، تقضي جلَّ يومها بالمطبخ تبكي في هدوء أمام ملابس طفلها الذي مات منذ شهرين.

بعد كتابة قصصي في استراخان، اضطرَّني عملي كصحفي إلى أنْ أتجول في مدن أخرى: ماخاش كالا Makhach– Kala ، وباكو Baku وكراسنوفودسك Krasnovodsk. أمَّا مشاهداتي وما قمت به في هذه المدن،فقد أوضحته في روايتي "خليج بوغاز قرة"، ثُم رجعت بعد ذلك إلى موسكو، ولكنِّي لم ألبث أنْ عدت إلى السفر بعد بضعة أيام ككاتب صحفي، أجوب الأجزاء الشمالية من جبال أورال– بمدينتي بيريزنيكي Berezniki وسوليكامسك Solikamsk ، وبعدما عهدته من القيظ المستعر في أواسط آسيا، وجدت نفسي في بلاد بها غابات أشجار الصنوبر السوداء، وتلال تكسوها الطحالب في أوائل فصل الشتاء.

بدأت أكتب روايتي "خليج بوغاز قرة" في مدينة سوليكامسك، في دير

حُول إلى فندق. وكما يفعل الجنود إبَانْ الحرب، كنت أعيش مع ثلاثة أشخاص آخرين في حجرة مظلمة باردة. كان أولئك الأشخاص الثلاثة مهندسين كيميائيين، عبارة عن سيدتين ورجل، يشتغلون في مؤسسة مناجم البوتاسيوم بسوليكامسك، وكان جَوْ ذلك الفندق يُوحي بعصر القرن السابع عشر؛ تملؤه رائحة البخور والخبز وجلود الحيوانات، وكان حراس الليل يرتدون معاطف من فراء الأغنام، ويبيتون الوقت بالطرق على ألواح من الحديد، وكانت هناك كنائس من المرمر الأبيض بُنيت في عصر الاستراجانوفيين Straganovs الواسعي الثراء، ترتفع بمناراتها وقبابها وسط الضوء الخافت للثلوج المتساقطة، ولم يكن في هذه المدينة شيء ما يُذَكِّرني بأواسط آسيا؛ وكان هذا ما جعلني أكتب في سهولة.

هذا مختصر سريع لما حفَّزني على كتابة روايتي "خليج بوغاز قرة"، ولا شك أنَّني حذفت منه بعض المشقَّات والحوادث والرحلات والمحادثات التي نسجتُ منها رُقعة قصَّتي. ومن جهة أخرى، لم أذكر بها كل ما جمعته من مادة، ولست بنادمٍ على هذا؛ لأنَّه سيكون مادةً جاهزةً لبعض رواياتي المستقبلة.

وبينما كنت أكتب رواية "خليج بوغاز قرة"، كنت أنتفع بما شاهدته ولمسته في أسفاري العديدة على شواطئ بحر قزوين، دون مراعاة لتصميم الرواية أو خطتها، فلما اكتملت الرواية وانتهيت من كتابتها واطلع عليها النقاد، قالوا: "إنَّها ذات تركيب حلزوني"؛ فشعرت بالسعادة لهذه الملاحظة، وأرى لزامًا عليَّ أنْ أعترف بأنَّني عند كتابتها لم أكن أفكر كثيرًا في التركيب.

وما كنت أفكر فيه كثيرًا هو أنَّني يجب أنْ أضع نُصب عيني روح الخيال والبطولة التي تُضفي على الرواية طابع الحياة الواقعية مع التعبير عنها في قوةٍ وأمانةٍ، سواء أكانت رواية عن ملح جلوبر، أو عن مصانع الورق في الغابات الشمالية.

وإذا أراد الكاتب أنْ يكون عظيم التأثير في قلوب البشر؛ وجب عليه أنْ يتوخَّى الصدق، بل أقول يعبُد الصدق، ويؤمن تمامًا بعقل الإنسان ومحبته المفرِطة للحياة.

قرأت ذات يومٍ أشعارًا لبافيل أونتوكولسكي **Pavel Ontokolsky** ، فوجدت بها فقرتين توضحان تمامًا حالة المرء المُحب للحياة، وها هما :

تعلن التأوهات البعيدة للقيثارات
عن نفوذ الربيع القريب،
ويُجيب السكون برنينه البلوري
على ندائها في قطرات عديدة.
وجميع أصوات الطبيعة هذه
التي يعجز الزمن عن إبادتها،
ستبقى دون زخرفة خلال العصور
لتملأ قلوب الناس بالبهجة.

يتذكر القلب

ذاكرة القلب أقوى من ذاكرة العقل الحقيرة

باتيوشكوف Batyushkov

كثيرًا ما يسأل القراء الكُتّاب، كيف يجمعون المادة اللازمة لرواية أو قصة، وكم من الوقت يستغرقون في جمعها؛ فيدهشهم أنْ يخبروهم بأنَّهم لا يجمعون أية مادة على الإطلاق، وبالطبع لا ينطبق هذا على الكتب العلمية أو ذات الوقائع الحقيقية، وإذا قلنا "المادة"، فإنَّنا نقصد "الحياة"، أو كما عبَّر عنها دوستوفسكي Dostoyevsky: "الأشياء الصغيرة التي تكوِّن الحياة."

والحقيقة أنَّ الكاتب لا يدرس الحياة، بل يعيش فيها، فنستطيع أنْ نقول إنَّ الكُتاب يعيشون في مادتهم؛ فيقاسون الآلام، ويفكرون ويتمتعون بالملذات، ويشتركون في الحياة المحيطة بهم، فكل يوم يترك آثاره، والقلب يتذكر ويحفظ.

والفكرة المأخوذة عن الكاتب من أنَّه هو الشخص الذي يتجول في الدنيا، ويكتب بعناية كل ما يحتاج إليه لكتبه المستقبلة– فكرة خاطئة.

لا شك في أنَّ بعض الكُتاب يُدوِّنون المذكرات ويجمعون الملاحظات أيًا كان نوعها، ولكنْ مثل هذه الملاحظات لا يمكن أنْ تُنقل ميكانيكيًا من كُراسة المذكرات إلى تصميم الكتاب، فلن تستقيم هذه الملاحظات قط وتلتئم بموضوع الكتاب.

كذلك الكاتب الذي يسير في الحياة قائلًا لنفسه: "يجب أنْ أدرس عنقود العنب هذا، أو ذلك الطِبَال الأشيب الشعر في تلك الفرقة الموسيقية، أو شخصًا ما، أو شيئًا بعينه؛ لأنَّني قد أحتاج إليه في مهنتي يومًا ما، لا يفيد كثيرًا من تلك الدراسة.

لا فائدة من ضغط الملاحظات صناعيًا في أي موضوع، مهما كانت ممتعة؛ فللملاحظات طريقتها الخاصة التي تدخل بها في قصة الكاتب، في اللحظة المناسبة، وفي المكان المناسب من تلقاء نفسها، والحقيقة أنَّ الكُتاب أنفسهم يُدهشون عندما يرون أنَّظ ما لديهم من معلومات كانت نسيًا منسيًا تُعاود المجيء إلى مخيلتهم في الوقت الذي يحتاجون فيه إليها بالضبط، وعلى ذلك، فالذاكرة الجيدة رأس مال الكاتب.

ربما أمكنني بَيان وجهة نظري بطريقةٍ أوضح،إذا شرحت كيف تأتي لي أنْ أكتب إحدى قصصي القصيرة التي عنوانها "البرقية."

ذهبت في نهاية الخريف لأُقيم بقرية ريازاRyaza ، فسكنت بمنزل كان يعيش فيه يومًا ما أحد مشاهير النحاتين، وكانت صاحبته في هذا الوقت إيكاترينا إيفانوفنا بوزها لوستينا Ekaterina Ivanovna Pozhalostina ابنة ذلك النحات، وهي: سيدة عجوز طيبة النفس نحيلة الجسم في مساء شيخوختها، لها ابنة تُدعى ناستيا Nastya تعيش في لننجرادLeningrad ، تُرسل إلى والدتها بعض النقود مرة واحدة في كل شهرين، أمَّا فيما عدا هذا، فلا تأتي لزيارتها قط.

استأجرت غرفة بذلك المنزل الفسيح ذي الحوائط التي جُللها سواد طول العمر. وكنت إذا أردت الاتصال بإيكاترينا إيفانوفنا، سرت عبر بهو كبير وعدة حجرات أرضها مغطاة بالأخشاب البالية، لم يكن بهذا المنزل التاريخي الذي اشتهر بسبب صاحبه السابق سواي أنا وهذه السيدة.

وخلف المنزل فناء واسع تمتد وراءه حديقة للفاكهة مُترامية الأطراف، أتلفها الإهمال كما أتلف المنزل نفسه، رطبة قارسة البرودة، تُصفر الريح خلال أشجارها.

جِئتُ إلى ذلك البيت لأكتب قصصي، وكان نظامي اليومي في بدء إقامتي به أنْ أكتب من الصباح حتى يُخيم الليل على الكون، وكان الظلام يُبكر بإرخاء أستاره الدكناء في الساعة الخامسة؛ فكنا نضيء مصباح بترول عتيق أنَاخَ عليه الدهر بالقِدم، بعد ذلك بدأتُ أكتب في المساء منذ الغسق مُفضلًا قضاء ساعات ضوء النهار الباكرة خارجَ المنزل، أتنزه في الغابات والحقول.

أينما توجهت رأيت علامات آخر الخريف؛ ففي الصباح تكسو سطح الماء في البرك طبقة من الجليد،تتخللها هنا وهناك بضعة فقاقيع هوائية؛فيُخيل إليك أنَّها بلورة كثيرة الفجوات بداخلها أوراق أشجار الصفصاف والحور المُرقَّشة بالبقع القرمزية والذهبية، وكنت أكسر الثلج وأُخرج هذه الأوراق المتجمدة وآخذها معي إلى المنزل، وسرعان ما تجمَّع منها كومة كبيرة على قاعدة نافذة حجرتي، غير أنَّها أصبحت دافئة تضوع الجو بأريجها الكحولي.

كان يلذُّ لي كثيرًا أنْ أسير خلال الغابات،حيث الريح أقل شدة مما في الحقول المكشوفة، وحيث يُخيم هدوء رهيب لا يقطعه إلّا صوت انكسار الجليد الرقيق، كان جو الغابات ساكنًا كئيبًا،وربما كان هذا بسبب الغيوم الدكناء المنخفضة قريبًا من سطح الأرض، حتى لتكادُ تَحْتَكْ بقمم أشجار الصفصاف الباسقة التي تبدو مُعمَّمة بالضباب.

كنت أذهب أحيانًا لصيد السمك في الجداول المتفرِّعة من نهر أوكاOka ، عبر غابات تتخللها رائحة أوراق الأشجار الغضَّة النفَّاذة تُزكم الأنوف وتخترق بشرة الوجه، وكان لون مائها أسود مُشوبًا بخضرة، كما هو الحال دائمًا في نهاية الخريف، وكان السمك بطيئًا في تهافُتِهِ على الطعم.

سرعان ما نزلت أمطار الشتاء الباكرة فأفسدت رونق الحديقة وأمالت الحشائش الذابلة،حتى صارت بمستوى سطح الأرض، وملأت الهواء برائحة الثلوج.

كانت علامات نهاية الخريف وأوائل الشتاء كثيرة في كل مكان، ولكنِّي لم أشأ إجهاد ذهني بتذكُّر شيء منها، بل أقنعت نفسي بأنَّني لن أنسى ذلك الخريف وزمهريره القاسي، الذي رفع روحي –بطريقة ما– وطهر رأسي.

كلما اشتدت قتمة المزن المتفرقة وسط السماء وفي جنباتها؛ اشتدت برودة المطر المنهمر منها، وزاد خوفي، وانطلقت الكلمات تتدفق من قلمي.

وأهم شيء للكاتب هو: الشعور بذلك الخريف، الذي يُثير قطار الأفكار والعواطف، وأمَّا جميع ما تبقى –كل ما نسميه، الناس والحوادث والتفاصيل– فكان –كما أعلم– مغلقًا داخل ذلك الشعور، يبعث إليَّ الحياة عندما أكتب، إذ ينطلق كل شيء جاهزًا لأسطُرُهُ على الورق.

لم أجعل من عناصر قصتي دراسة ذلك البيت العتيق، كمادة لها؛ ولكنِّي أحببته لمنظره الموحش وهدوئه، وعدم انتظام دقات ساعته العجوز، ورائحة احتراق كتل خشب الصفصاف في موقده، والصور المنحوتة العتيقة المعلقة على حوائطه،وكان بالمنزل وقتذاك بقية قليلة منها، إذ يبدو أنَّ أغلبها قد نُقل إلى متحف المدينة كتمثال بريلوف **Bryullov** لنفسه، وحمل الصليب، وكصائد الطيور الذي صنعه بيروف**Perov**، والتمثال النصفي لبولين فياردوت **Pauline Viardot**.

كان زجاج النوافذ الذي قوَّسه الدهر وبلاه طول العهد يتألق بجميع ألوان قوس قزح بالنهار، وتنعكس عليه في المساء صورة لهب الشمعة يتراقص ذات اليمين وذات الشمال،أمَّا الأثاث جميعه(الأرائك والموائد والكراسي) فكان من الخشب الباهت اللون الذي أكل عليه الدهر وشرب فتآكل، وكانت رائحة السرو تنبعث من الأيقونات.

كان بالمنزل بضعة أشياء غريبة: كمصابيح صغيرة من النحاس الأحمر بشكل الشعلات تُضاء طول الليل، وأقفال سرّية، وآنية قديمة أصفر لونها؛لطول عهدها عليها بطاقات باريسية، وبضعة أزهار من الشمع للكاميليا غطَّاها التراب (مُعلقة في مسامير كبيرة صدئة)، وطلاسة مستدير المحو الأرقام المكتوبة بالطباشير على مناضد اللعب.

كان هناك أيضًا ثلاثة تقاويم للسنوات ١٨٤٨، ١٨٥٠، ١٨٥٢ لُصقت عليها قوائم بأسماء سيدات من البلاط الروسي، فوجدتُ من بينهن اسم زوجة بوشكين ناتاليا نيقولايينا لانسكاياNatalia Nikolayevna Lanskaya ، واسم معشوقة ذلك الشاعر إليزافيتا كسافيريفنا فورونتسوفا Elizaveta Ksaveryevna Vorontsova.تملَّكني حزن لا أعرف له سببًا؛ وربما كان للسكون الشامل في ذلك البيت، وبينما أنا على تلك الحال إذ أطلقتْ إحدى البواخر صفارة عالية في مكانٍ ناءٍ بنهر أوكا قُرب جسر كوزمنسكي Kuzminsky، فحركت الأشعار التي كتبها بوشكين لفورنتسوفا، وجعلتَها تدور في ذاكرتي :

انقضى اليوم بأحزانه، وأتى بظلامه الكئيب

ينشر الآن أثوابه الرصاصية خلال السماء،

وكشبح خلف غابات الصنوبر،

يظهر القمر الشاحب مُلتفًّا بالضباب.

تناولت الشاي مساءً مع إيكاترينا إيفانوفنا، وقد ضَعُفَ بصرها وجاءت نيوركاNyurka ، إحدى بنات الجيران التي تقوم ببعض أعمال المنزل، لتساعدها في إعداد ساموفار الشاي. كانت نيوركا دائمة التقطيب عابسة

الأسارير، ولمَّا جلستَ معنا إلى مائدة الشاي، شربَتْهُ في طبق القدح مُحدثةً صوتًا ملحوظًا وهي تشرب،وكانت صامتة لا تُجيب على جميع كلام إيكاترينا إيفانوفنا إلَّا بقولها:

"لزيادة التأكيد! بالله إلَّا ما زدتني من حديثكِ."!

عندما حاولت لفت نظرها إلى ذلك، قالت: "لزيادة التأكيد! إنَّك تظنني غبية، ولكنِّي لستُ كما تظن"!

كانت نيوركا هي الشخص الوحيد الذي كان على صلة وثيقة بإيكاترينا إيفانوفنا، وكانت تُحب هذه السيدة حبًا جمًا، ليس من أجل الهدايا الغريبة التي تنالها منها، من حينٍ إلى حين: كقبعة من المخمل عفى على طرازها الدهر، وزُينت بعصفور صغير محنَّط، أو قلنسوة من الخرز، أو قطع من المُخرمات (الدنتلا) اصفر لونها من شدة القِدم.

كانت إيكاترينا إيفانوفنا في حَداثة سنّها، منذ زمن بعيد، تعيش مع والدها في باريس، حيث التقت بكثيرٍ من الشخصيات الممتعة،أمثال: تورجينيف**Turgenev** ، كما أنَّها حضرت جنازة فيكتور هوجو، كانت تُخبرني بكل هذه الأشياء، بينما تقول نيوركا عباراتها المألوفة: "لزيادة التأكيد! بالله إلَّا ما زدتني من حديثكِ."!

ما كانت نيوركا لتمكُث معنا حتى ساعة متأخرة قط، إذ كان عليها أنْ تُسرع بالعودة إلى منزلها لتلاحظ نوم الصغار في فراشهم، أي: إخوتها وإخوانها.

كانت إيكاترينا إيفانوفنا تحمل معها دائمًا حقيبة صغيرة بالية، من الستان، بها أثمن ما تعتز به من نقود وجواز سفر، وخطابات ابنتها ناستيا وصورتها التي يتَّضح منها أنَّها سيدة رشيقة القوام،مُتناسقة التكوين، دقيقة الحاجبين، ذات عينين نجلاوين وشعر ذهبي، وصورتها (أي صورة إيكاترينا) وهي فتاة في مَيعة الصِّبَا، وكانت إذ ذاك

على قَدْرٍ عظيم من الفتنة والجمال والسذاجة كأجمل فتاة.

عرفتُ من إيكاترينا إيفانوفنا أنَّها لا تشكو من شيءٍ غير الشيخوخة، ولكنِّي سمعت عند حديثي مع الجيران ومع إيفان ديمتريفتش Ivan Dmitriyevich، الخفير الدائم الشكر– أنَّها كانت كثيرة الهموم، يحزُّ في قلبها ويؤلمها أنَّ ابنتها الوحيدة لا تهتم بوالدتها إطلاقًا، إذ لم تفكر في زيارتها ولو مرة واحدة منذ أربع سنوات متتاليات،بالرغم من أنَّها تعرفُ أنَّ أيامها الباقية معدودة، ولا تُطيق إيكاترينا إيفانوفنا أنْ تموت دون أنْ ترى وحيدتها ناسيتا، ودون أنْ ترى شعرها الأشقر الجميل الذي تتلهف إلى أنْ تتحسسه بيدها.

ذات يومٍ طلبتْ مني أنْ أصحبها إلى الحديقة؛لاعتلال صحتها؛ إذ لا تجرؤ على الذهاب إلى هناك وحدها، ولم تخرج إليها منذ أوائل الربيع الماضي.

قالت: "أيضايقك أنْ تخرج مع سيدة عجوز مثلي؟ أُريد أنْ أرى الحديقة التي كنت أيام صباي أتلذذ بقراءة روايات تورجينيف Turgenev فيها، ربَّما تكون هذه آخر مرة أراها فيها، لقد زرعت بعض أشجارها بنفسي."

استغرقتْ وقتًا طويلًا في ارتداء معطف ثقيل وشال، ثم هبطت درجات سلم المدخل في بطء وهي تستند إلى ذراعي.

كان الظلام ينسكب في السماء قطرةً قطرة، وتعرَّت الحديقة من جميع أوراقها؛ فَسِرْنَا وأوراق الأشجار المُلقاة على الأرض تعوق خطواتنا، تتكسر وتُطقطق تحت أقدامنا. وقد تألَّق أول نجم في الأفق حيث صبغهُ غروب الشمس باللون الأخضر، وبدا الهلال خلف غابة بعيدة يتسلق سلم السماء.

وقفت إيكاترينا إيفانوفنا لتستريح عند شجرة زيزفون عصفت بها الرياح، واستندت إليها بيدها، ثم طَفِقَتْ تبكي.

خشيتُ عليها السقوط؛ فأمسكتها بيدي في قوة، فانحدرت الدموع غزيرة من مآقيها، وكأغلب كبار السن لم تخجل من البكاء.

قالت لي أخيرًا: "عسى الله يجنبك شيخوخة كشيخوختي، يا ولدي العزيز."!

رجعت معها برفق إلى المنزل وأنا أفكر، إنَّه لو كان لي أمٌّ كهذه لكنت أسعد رجل على ظهر البسيطة.

في ذلك المساء، أعطتني إيكاترينا إيفانوفنا حِزمة من خطابات والدها حال لَوْنُها إلى الأصفر؛لطول العهد، وجدت بينها خطابات من الرسَّام الروسي الذائع الصيت "كرامسكوي"Kramskoi ، والنحات أيواردان Iordan بعث بها من روما، وقد كتب هذا الأخير يصف صداقته الوثيقة العرى بالنحات الدانمركي الشهير ثوروالدسينThorwaldsen ،وتماثيل لاتيران Lateran الرائعة المصنوعة من الرخام.

قرأت الخطابات ليلًا كما هي عادتي، والريح تُزمجر خلال الشجيرات العارية البليلة في الخارج، والمصباح يُطن وحده كأنَّما يُحدث نفسه في عُزلته التامة. كانت ليلة مطيرة قارسة البرودة، وكان خفير المزرعة يصلُ بمصلته (الشخشيخة) دون انقطاع، حقًا إنَّ قراءة خطابات روما في ذلك الجو أمرٌ غريب فيه تسلية ومتعة، أيقظتْ في نفسي حبي لشخصية ثوروالدسين، وعندما رجعت إلى موسكو، شرعتُ أتقصَّى عن كل ما يتعلق به؛ فاكتشفت أنَّه كان صديقًا حميمًا لهانزكريستيان أندرسنHans Christian Andersen ؛ فساقني كل هذا إلى كتابة قصة قصيرة عن أندرسن؛ إذًا: لقد كان ذلك المنزل العتيق هو الذي جعلني أكتب تلك القصة.

بعد الخروج إلى الحديقة ببضعة أيام لزمتَ إيكاترينا إيفانوفنا الفراش للمرة

الأخيرة، لم تشكُ من مرض غير الهبوط العام، فأرسلت برقية لابنتها ناستريا في لننجراد، وانتقلت نيوركا إلى منزل إيكاترينا لتكون بجانب هذه السيدة آخر ساعات حياتها .

وذات ليلةٍ بعد أنْ مضى هزيع طويل من الليل، أيقظتني نيوركا بأنْ طرقت على الحائط طرقًا شديدًا، وصاحت بصوتٍ يرتجف ذُعرًا وهلعًا،قائلةً: "أسرع بربك، إنَّها تحتضر."

وجدتُ إيكاترينا إيفانوفنا في غيبوبة، يكاد لا يكون في جسمها الذابل نَفَسْ، وبدلًا من ضربات النبض العادية، كان جسمها يرتعش في ضعف، فغدا نبضها أوهى من نسيج العنكبوت.

حملت "فانوسًا" وأسرعت إلى المستشفى القروي لأستدعي طبيبًا، سائرًا خلال غابات دامسة الظلام،حيث تحمل الريح رائحة نشارة الخشب مما يدل على احتمال قطع الأخشاب هناك، كان الوقت متأخرًا جدًا؛لأنَّ الكلاب كفَّت عن النُّباح.

حقنها الطبيب بالكافور، ثُم أخبرنا وهو يتأوَّه بأنَّ لا أمل في حياة هذه السيدة العجوز، ولِمَا كان قلبها قويًا؛ فقد تبقى فيها الحياة بعض الوقت. لفظتْ إيكاترينا إيفانوفنا آخر أنفاسها في الصباح، وكنت بجانب فراشها، فأسْبلتْ عينيها فرأيت دمعة كبيرة تنحدر على خديها، فخفضتُ رموشها بيدي.

أعطتني نيوركا مظروفًا مغضنًا، وقد خنقتْها العِبرات، وهي تقول: "تركتْ إيكاترينا إيفانوفنا هذه الرسالة."

فَضَضْتُ الغلاف وقرأتُ الألفاظ القلائل التي كتبتَها يدٌ ترتجف، تشرح

الطريقة التي ترغب في أنْ تُدفن بها، ثم أعطيت الرسالة لبعض السيدات اللواتي جئن في الصباح لإعداد الجثة للدفن.

ذهبتُ إلى المقابر لتهيئة رمسها، ثم عُدت فوجدت إيكاترينا إيفانوفنا راقدة على الفراش في ملابس رحلتها الأخيرة، وأدهشتني أنَّها تبدو كفتاة حسناء نحيفة القد، ترتدي ثوب سهرة أصفرًا ذهبيًا من الطراز العتيق،يُغطي ذيله الطويل ساقيها، وحذاءً رماديًا من "الشاموا" ظاهرًا في قدميها أسفل الثوب، وقُفازًا من الجلد في يديها يصل إلى مرفقيها، وأمسكت بإحدى يديها شمعة وبالأخرى باقة من الورود الحمراء المصنوعة من "الساتان"، وغُطي وجهها بنصيف رقيق من الشفوف. ولولا مِرفقاها لخُيل إلى من يراها أنَّها غادة في ريعان الشباب باهرة الجمال.

بعد الجنازة بثلاثة أيام حضرتْ ابنتها ناستيا.

كل ما تقدم مادة لتكوين قطعة كتابية.

ويلذ لي أنْ أذكر أن ذلك الجو الذي ألفيت نفسي فيه –المنزل المهمل، ومنظر الخريف– كان نموذجيًا لمأساة أيام إيكاترينا إيفانوفنا الأخيرة.

ورغم ذلك، فبطبيعة الحال لم يدخل كثير مما رأيته وما وقع بصري عليه في قصتي "البرقية"،وإلَّا لكانت بخلاف ما هي عليه.

يحتاج الكاتب، في قصة صغيرة، إلى مادة نموذجية يختار منها أعظمها أهمية وأكثرها ضرورة.

شاهدتُّ بعض الممثلين الموهوبين يقومون بأدوار صغيرة لا تحتوي على أكثر من سطرين أو ثلاثة أسطر، ولكنْ هؤلاء الممثلين كانوا يطلبون من المؤلف أنْ يزودهم بكل شيء عن الأشخاص الذين يمثلونهم –تفاصيل إضافية، عن منظرهم وحياتهم وماضيهم– حتى يُمكنهم أنْ يُعطوا قوة لتلك الأسطر القلائل.

نفس الشيء صحيح عن الكاتب، فالمعلومات التي يجمعها تزيد كثيرًا عمَّا يستعمله فعلًا في قصته.

أوضحتُ فيما سبق كيف تسنَّى لي أنْ أكتب قصة "البرقية"؛ ومنه يتبين أنَّ لكل قصة مادتها وتاريخها الخاصين بها .

لا أزال أذكر شتاءً قضيته في يالتاYalta ، فكلما فتحتُ النوافذ هناك؛أطارت الريح القوية أوراق البلوط الذابلة إلى الحجرة وغطَّت بها أرضها. لم تكن أوراق دوحات عمرها قرون، بل أوراق شتلات غِضة تنمو بكثرةٍ في مراعي جبال كريمياCrimea ، ففي الليل كانت تهب ريحٌ صَرْصَر باردة من الجبال المكسوَّة بالثلوج الناصعة المتلألئة.

كان جاري أسييف Aseyev يكتب شعًرا عن إسبانيا الباسلة (كان ذلك الوقت إبان الحرب الأهلية بإسبانيا وسماء برشلونة القديمة)، بينما كان الشاعر فلاديمير لوجوفسكوي Vladimir Lugvoskoi يُغني بعض أناشيد البحارة الانكليز القديمة بصوته المنخفض الأَجَشْ، وكنا نجتمع حول المذياع في المساء لنسمع آخر الأنباء عن جبهة القتال الإسبانية .

قمنا بزيارة مرصد مدينة سيميز Simeiz القريبة من يالتا،حيث سمح لنا فلكي أشْيَب الشعر بأنْ نرى فضاء الكون غير المحدود يَزخر بالكواكب المتألقة، بينما نسمع دقات آلات أجهزة انكسار الضوء التي تشتغل باستمرار تحت قُبَّة المرصد.

بين آونة وأخرى كانت تصل إلى يالتا أصوات انطلاق قنابل السفن الحربية وهي تقوم بمناوراتها في البحر الأسود، فتُحدث ضغطًا بالهواء يجعل ماء الدورق يتناثر رذاذًا، كانت أصواتها المكتومة تُحمل خلال مراعي الجبال إلى أنْ تتلاشى في الغابات، أمَّا في الليل فكنا نسمع أزيز الطائرات تُحلق فوق رؤسنا.

صحبتُ معي كتابًا عن كيرفانتيس Cervantes من تأليف برونو فرانك Bruno Frank، ولِمَا لم يكن هناك كتب كثيرة عنه قرأته عدة مرات.

كان الصليب المعقوف يَنْشُبُ مخالبُه في أوروبا في ذلك الوقت،وكان أنبل العقول والقلوب الألمانية يهربون من وطنهم،ومن بينهم: هنريخ مان Heinrich Mann، وأينشتينEinstein، وريمارك‌Remarque، وستيفان زويج Stephan Zweig، إذ لم يقبلوا مَنْحْ تأييدهم لذلك الطاعون الأسمر ولهتلر المصاب بجنون قتل البشر، وقد سحبوا معهم ثقتهم الراسخة في انتصار الإنسانية.

كذلك أحضر جاري أركادي جايدار Arkady Gaidar معه –ذات يوم– كلبَ رُعاة ذا عينين عسليتين لامعتين، وكان في ذلك الوقت يكتب إحدى قصصه الرائعة "القدح الأزرق"، وتظاهر بأنَّه لا يعرف شيئًا عن الأدب، وكان هذا من عيوبه المُحببة إلى نفسه.

كان قصف المدافع بالبحر الأسود صاخبًا وشديدًا وواضحًا في أثناء الليل أكثر منه في النهار، فكانت الكتابة تتدفق من قلمي على وقع موسيقى القنابل.

كان ما كتبته تصميمًا غير واضح للجو الذي هيَّأ لي كتابة قصة قصيرة عنوانها "المجموعة الكونية، فكل ما ذكرته من: أوراق البلوط الدكناء، والفلكي الأشيب، وقصف المدافع، وكيرفانتيس، والناس الذين لا تتزعزع ثقتهم في انتصار الإنسانية، وكلب الغنم، والطائرات المُحلقة ليلًا، كل هذه مادة اشتركت في صنع قصتي، ولكنْ روح القصة، وما بذلت كل جُهدي في نقله إلى القارئ وكنت أشعر طيلة كتابتي للقصة– استلهمته من الريح الباردة التي كانت تهب من الجبال بالليل.

كنز الكلمات الروسية

يعجبُ المرء لقيمة لغتنا الثمينة: فنغماتها

كالجواهر؛ كل شيء فيها مُمَوج وثقيل

كاللآلئ الحقيقية، وفي بعض الأحيان

يكون اسم الشيء أثمن من الشيء نفسه

نيقولا جوجول

ينبوع في حرش

يشعُّ كثيرٌ من الألفاظ الروسية شعرًا بنفس الطريقة التي تشع بها الأحجار الكريمة بريقًا غامضًا.

أعرف دون شك أنَّه لا غرابة في تأثير الضوء على هذه الأحجار، لأنَّ عُلماء الطبيعة يُفسرونه بقوانين علم الضوء، ومن السهل عدم مقارنته بإشعاع وتألق الجواهر من حيث الإحساس بالغموض،وعدم إمكان تصديق ما نعتقده من أن الجواهر لا تستمد ضوءها المشع من أي مصدر آخر.

يتَّضح هذا إذا ما نظرنا إلى حجر كريم، حتى ولو كان رخيص الثمن:كحجر "ماء البحر" المتواضع الذي لا يمكن تمييز لونه الحقيقي بالضبط، إذ يُوحي اسمه باللونين الأزرق والأخضر لماء البحر، ولكنْ أهم ما يُثير إعجابنا في هذا الحجر هو: بريقه الداخلي الشبيه بالفضة الخالصة، إذ عندما تتعمق بنظرك خلاله يبدو لك ماء البحر بلون النجوم.

إنَّ ذلك التأثير السحري للضوء بداخل ماء البحر والأحجار الكريمة

الأخرى ما يُضفي عليها ذلك الغموض ويُبدي لنا جمالًا عظيمًا يصعب التعبير عنه.

وليس من الصعب شرح قوة الألفاظ التي يُوحي معناها بشيء شعري، وإنَّه لأكثر صعوبة أنْ تعرف قوة الألفاظ التي بمجرد نطقها تُوحي بصورة شعرية، ومن أمثالها: كلمة Zaranitsa ومعناها "برق الصيف"، فجرسها السمعي يحمل صورة الومضات البطيئة للبرق البعيد في ليلة شديدة الحر.

لا ريب في أنَّ تأثُّرنا بالألفاظ تأثرٌ موضوعي بحت، وسأتحدث هنا عن شعوري أنا نفسي، ومن الأمور التي يمكن اعتبارها حقيقة عامة: أنَّ الألفاظ الروسية تحمل هالة شعرية ذات صلة قوية بالطبيعة، بطريقة ما.

واللغة التي يتكلمها العامة تدخل في هذا النوع خاصةً، ويمكن أنْ نقول عن اللغة الروسية عامة أنَّها: لا تُبدي قوة ألفاظها السحرية وغزارتها إلّا لمن يحتك بالناس ويتصل بهم اتصالًا وثيقًا، ويستجيب لجمال طبيعة أرض وطنه.

اللغة الروسية غنية بالألفاظ والمصطلحات الدالة على مظاهر الطبيعة: كالماء والهواء والسماء والسحب والشمس والمطر والغابات والمستنقعات والبحيرات والسهول والمراعي والأزهار والحشائش.

تجب دراسة لغة مشاهير كُتاب الأدب الروسي في وصفهم للطبيعة –أمثال كايجورودوف Kaigorodov وبريشفين Prishvin وجوركي Gorky وألكساي تولستوي وأكساكوف Aksakov وليسكوف Leskov وبونين Bunin وغيرهم، وأكثر من هذا، يجب أنْ يُلم المرء باللغة كما يتكلمها الناس على اختلاف مهنهم، أعني المزارعين والبحارة والرعاة والنحالين وصيادي الوحوش وصائدي الأسماك وعمال المصانع والحطابين وحراس السفن والصناع

والرسامين القرويين، وسائر من يقومون بأدوارهم في الحياة العامة، أولئك الذين تُساوي كل كلمة من كلماتهم قيمتها ووزنها.

ذات مرة دار حديث بيني وبين أحد حُراس الغابات يُفسر تمامًا ما أقصد شرحه في هذا الباب.

كنت أسير مع ذلك الحارس في حرش، كان منذ زمنٍ بعيد مُستنقعًا كبيرًا، ثم جفَّ على مر السنين وبدأت تنمو فيه الحشائش، واليوم لا أثر للمستنقع غير الأراضي الهشَّة البعيدة العهد، والبِرَكْ المزروعة، والمساحات الواسعة من نبات شاي المستنقعات .

لستُ من رأي الكثيرين الذين يحتقرون الغابات الصغيرة والأحراش؛ فإنَّ للشجيرات سحرها الخاص، وإنَّ المرء ليشعر بالمتعة عندما يرى مختلف الشتلات:كالصنوبر والحور والشربين والصفصاف تنمو بسرعة في مجموعات كثيفة، وليس جو الأحراش مظلمًا داجيًا كجو الغابات الكثيفة، بل تنفذ إليها أشعة الشمس ساطعة بهيجة، فيُخيل إليك أنَّك في كوخ فِلاحة تبتسم قُبيل العيد.

كلما وجدت نفسي في أحد الأحراش، لا أنفكُّ عن التفكير في أنَّ الرسام نيستيروف Nesterov لا بد أنْ كان في مثل ذلك المكان عندما استلهم وحيه لرسم مناظره الطبيعية الرائعة، فكل ساق وكل غصن في الحرش له شخصيته وفرديته.

كنا نعثر إبَانْ سيرنا في الحرش، بين آونة وأخرى، على بِركة وسط أرض هشَّة عميقة، وكانت المياه تبدو راكدة لأوَّل وهلة، بَيد أنَّنا إذا دققنا النظر فيها رأينا ينبوعًا جديدًا تدور فيه بعض الأوراق الجافة أو إبر الصنوبر الصفراء. وفي

إحدى مقابلاتنا في الحرش، وقفنا أمام ينبوع من تلك الينابيع لنشرب، فإذا للماء رائحة التربنتين.

وقع بصرنا أثناء سيرنا في الحرش على خنفساء صغيرة تدور مع الماء صاعدةً إلى سطحه، ثم لا تلبثُ أن تغطس في الحال إلى القاع ثانية، فقال صاحبي: "هنا ينبوع، ربما كان نهر الفولجا ينبُعُ من مثل هذا الينبوع."

قلت مُرافقًاَ: "ربما ."

أتلذذ كثيرًا لسماع الكلمات المنطوية على بعض الألغاز، وأجعل منها هواية لي، فقال حارس الغابة –دون قصد– وهو يبتسم ابتسامة تدل على الحيرة: "يحدث أحيانًا أن تلتصق كلمة برأسك فتُشغل بالك وتُبلبل أفكارك وتُقلق راحتك.."

توقف الحارس قليلًا ريثما يُريح قذافته على كتفه، ثم قال :

"يقولون إنك كاتب، فهل هذا صحيح؟".

قلت: "نعم، أنا كذلك".

قال: "إذن فأنت تعرف الكثير عن الألفاظ، أما أنا فلا أهتم بالتفكير في الكلمات، وقلَّما أستطيع تفسير أصل كلمة، وأحيانًا أظل أُقلب عدة كلمات متباينة أثناء مروري في الغابة،ولكنّي لا أهتدي إلى الكيفية التي تكونت بها؛وذلك لأنني لم تعلم، ورغم ذلك، ففي بعض الأوقات يبدو لي أنَّني وفقت إلى الحل الصحيح فيغمرني السرور، غير أنَّه يُحيرني أيضًا سبب غِبطتي. وعلى أية حال فلست أستاذًا في مدرسة لأشرح مثل هذه الأشياء للأولاد، وإنما حارس غابة جاهل ليس غير."

قلت: "وهل تضايقك كلمة الآن؟".

قال: "نعم، كلمة **rodnik** أي ينبوع. لقد ضايقتني منذ مدة طويلة. فأظن أنها جاءت بمعنى ينبوع؛لأن الماء ينبع منها، من الينبوع ينبع الماء **rodent**) **rodit reku**) وتجري الأنهار خلال وطننا طولًا وعرضًا (**rodina**) ويساعد في إطعام شعبنا(**narod**) ، فانظر كيف أنَّ جميع هذه الكلمات قد اشتُقت من أصلٍ واحد**rodink, rodina, narod**، ومن عائلة واحدة **rodyna** (أقارب)".

أوضحت لي هذه المقابلة أننا جميعًا حساسون لقوة الإيحاء الموجودة باللغة.

اللغة والطبيعة

إذا أراد الكاتب أن يُوسِّع معلوماته من الكلمات، ويُنمي إحساسه باللغة الروسية؛ وجب أن يكون على صلة بالطبيعة، وما من شيء يُنمي إحساسه باللغة أكثر من وجوده في الحقول والغابات، وبين مجاري المياه وأشجار الصفصاف العتيقة، وحياته وسط الطيور المُغرِّدة والأزهار المُتضوعة المُتدلية من الشجيرات .

أظن أنَّ هناك فترة في حياة أغلب الناس يُسعدهم فيها ما يعثرون عليه من اكتشافات، حدث لي هذا في أحد فصول الصيف وأنا أطوف بغابات ومراعي روسيا الوسطى، لقد كان صيفًا زاخرًا بعواصف الأمطار وأقواس قزح .

يُعيد ذلك الصيف إلى ذاكرتي حفيف الغابات الصنوبرية، وشقشقة الكراكي، وأزيز السحب الثلجية، وتألق النجوم في السماء الداجية، وطيب عبير الأزهار في الأحراش، وصياح الديكة المقاتلة، وأناشيد الفتيات الحسان وقت الغَسَقْ،عندما ينثر الشفق تبره البراق على عيونهن، وتتصاعد أوائل الضباب فوق البرك والغدران.

كان في ذلك الصيف أنْ كشفت لي عن نفسها كثير من الكلمات الروسية المألوفة منذ زمن طويل، بعد أن كان يَكْتَنِفُها بعض الغموض، وأبانت لي معناها كاملًا؛ فشعرت كأنني بدأت أعرفها باللمس والذوق والشم، كانت تُوحي فيما مضى بشيء غامض الصورة، فأصبحت الآن ترفل في صورة حية قيمة.

كوَّنتُ بنفسي عدة كلمات بهذه الطريقة –منها ما يصف المطر– فمثلًا: هناك المطر المتساقط رذاذًا، والنازل على هيئة قطرات، والمطر المنهمر، والمطر

السريع، والمدرار، والسيل، والمتجمع، والوابل لفترة قصيرة والشمس ساطعة، والمتزايد، والمائل وهكذا... . كانت كل هذه الكلمات التي تصف المطر معروفة لي من قبل، ولكن اتصالي واحتكاكي بالطبيعة، ورؤيتي باستمرار مختلف أنواع المطر؛ جعل ذِكْرُها يرسم في مخيلتي صورًا حية.

وعلى ذكر هذا المثال، هناك قانون يُسيطر على قوة الألفاظ التي يستعملها الكاتب، وتتناسب هذه القوة تِبعًا لما يراه الكاتب نفسه خلف هذه الكلمات. وإذا كان الكاتب يرى شيئًا خلف ألفاظه وعباراته هو نفسه، فكن على يقين من أنه لا يرى شيئًا قط، أما إذا كان لدى الكاتب صورة حية للكلمة التي يستعملها، فحتى لو كانت هذه الكلمة مُبتذلة مطروقة، لغَدَتْ ذات قوة عجيبة تُسيطر على الكاتب نفسه وتُثير أفكاره وعواطفه وملاحظاته التي كان يأمل كثيرًا في أنْ تأتي إليه؛ وهذا هو سر التعليق الذي يُدوِّنه الكاتب بين السطور.

كل هذا ولم أنتهِ من المطر بعد، فقبل كل شيء هناك علامات نستدل منها على قُرب سقوط المطر، فالشمس تختفي وراء الغمام، وينحدر طائر الخُطَّاف هابطًا في الجو ويطير منخفضًا بقرب سطح الأرض، ويهبط الدخان في الهواء، وتنتشر السحب في السماء على هيئة قطع دكناء، وقبل أن تمطر السماء، وقبل أن تصبح السحب محملة بكميات كبيرة من المطر، تحسُّ برائحة الرطوبة في الهواء تأتي من أماكن يُحتمل أنْ تكون قد أمطرت فيها.

إن صفة واحدة تكفي لأن تُنقل إلى ذهن القارئ نوعًا خاصًا من المطر، فإذا تكلمنا عن المطر المتزايد، جاءت إلى ذهننا في الحال صورة مطر شديد يتزايد عنفًا باطراد. ومن الممتع حقًا مشاهدة المطر المتزايد يسقط في النهر، إذ أن كل قطرة منه تُحدث دوامة صغيرة، وتقفز إلى أعلى ثم تهبط ثانية وهي تتألق

كحبة اللؤلؤ، ويملأ المطر الجو صخبًا بصوته الرتيب، ويمكننا أن نستبين من صوته ما إذا كان آخذًا في الشدة أو في الضعف.

أمّا المطر الدقيق الكثيف فيختلف عن هذا، إذ يسقط من السحب المنخفضة بطيئًا كما لو كان النعاس يُداعب عينيه، ويترك وراءه بركًا صغيرة دافئة، ولا يُحدث صوتًا غير همهمة ضعيفة رقيقة، وينزل بنظام على الشجيرات فيغسل أوراقها برفق ورقةً ورقةً، فتتشربه أرض الغابات الهشة ببطء، ولكن لا بد لها من أن تتشربه، وهذا هو السبب في أنه بعد هذا النوع من المطر تبدأ جميع أنواع فُطر عش الغراب في النمو، ولا عجب أن نُطلق على هذا المطر اسم "مطر عش الغراب"، وبالروسية**Gribnoi Dozhd** ، وفي هذا المطر يمتلئ الجو برائحة الدخان، وتخرج الصراصير، وهي المشهورة بالحكمة والحذر، لتُقرض ما شاء لها أن تُقرض.

ومن منا في أثناء سقوط الأمطار لم يلاحظ الدور الذي يلعبه الضوء، ولم يصغُ إلى تغير الصوت، من وقعه المنتظم على السقوف الخشبية، وصوت الماء يهبط داخل الميازيب، إلى الصوت المستمر لانهماره وابلًا

مِن هذا ترى أن موضوع المطر يُزود الكاتب بإمكانيات لا تنتهي، وليس جميع الكُتاب مثلي يتحمسون للطبيعة وظواهرها، إذ قد حاول أحد زملائي الكُتاب تثبيط حماسي هذا ذات مرة، قائلًا:

"لقد مللتُ الطبيعة، إنها ماتت. وإني لأُفضل عليها شوارع مدننا الزاخرة بالحركة وبالأصوات، وكل ما يمكنني أن أقوله عن المطر، هو أنني أكره الخروج فيه، وأنه أحد مُضايقات الحياة، أما أنت يا صديقي فتترك العنان لخيالك يشردُ كما يشاء."

الأزهار والحشائش

لم يكن حارس الغابة الذي تحدثت عنه هو وحده الذي يجد متعة مثيرة في التلاعب بالألفاظ ومعانيها، فإني أعرف كثيرين يَرُوقهم أن يقدحوا أذهانهم في تتبع أصول الكلمات ومشتقاتها.

أتذكر كيف حاولت –أنا نفسي– ذات مرة تخمين معنى كلمة غير مألوفة عثرتُ عليها في أشعار يسينينYesenin ، وظللتُ أتقصى وأبحث عن أصلها، وبطبيعة الحال لم تكن موجودة بالمعاجم، ولكني استطعت معرفة المعنى بالتقريب من صوت النطق بها، فإذا معناها شعري محض، هذه هي الحال في الكلمات الروسية. وبعد ذلك عرفت المعنى الحقيقي لتلك الكلمة وأصلها من الكاتب يورينYurin ،عندما أتى لزيارتي أيام أن كنت أسكن على شواطئ نهر أوكا، كان ذلك الكاتب شخصًا غير عادي، درس كل شيء يتعلق بروسيا الوسطى دراسة مستفيضة: جغرافيتها، ونباتها، وحيوانها، وتاريخها، ولهجات جميع سكانها. وبعد أن عرفتُ كل شيء عن تلك الكلمة التي حيرتني، أصبحت مُرتاح البال مسرور النفس، كما لا بد أن يكون قد حدث لذلك الحارس. ومن المحتمل أن تكون هذه الكلمة من تنسيق سرجي يسينينSergei Yesenin ، ومعناها:سفو الرياح للرمال الذي يراه الإنسان كثيرًا على ضفة نهر أوكا. وقد ولد يسينين بقرية كونستانتينوفكا Konstantinovka التي لا تبعد كثيرًا عن نهر أوكا (اسمها الآن يسينينو(Yesenino).

خرجتُ ذات يوم بصحبة يورين للتنزه وسط الحقول وعلى شاطئ النهر، وتقع قرية يسينينو بقرب النهر، ويحجُبها عن النظر شاطئه المرتفع الشديد

الانحدار، وكانت الشمس قد غربت خلف القرية، فبدا لي نهر أوكا في أجمل صورة له عند الغسق، إذ لفَّ الضباب الشفق الأحمر فوق المراعي الرطبة، أو على الأصح:لفه دخان يميل إلى الزُّرقة ينبعث من النيران المشتعلة بالغابة، أكثر مما يلفه شعر يسينين .

صادفتني لقاءات ومحادثات ممتعة في المراعي المحيطة بنهر أوكا.

كنت أصيد السمك في أحد الأيام من بحيرة صغيرة تحدُّها ضفاف النهر العالية التي تنمو فيها الأشواك، وكانت أشجار الصفصاف العتيقة وأشجار الحور السوداء تقف حارسة على هذه البحيرة،تدرأُ عنها الرياح السافية وتمدُّها بالظلال الوارفة حتى في أيام الشمس الساطعة. جلست بقرب حافة الماء وقد حجبتني الحشائش العالية عن ضفة النهر، وأينما سرحتَ بنظرك حول البحيرة؛أبصرتَ السوسن مُزهرا. وعلى مسافة قصيرة من شاطئ البحيرة تتصاعد فقاقيع الهواء الصغيرة فوق سطح مائها آتية من القاع فتوحي إليّ بأن الأسماك تبحث عن طعامها هناك.

كان بعض أطفال القرية يجمعون الحماض فوق شاطئ النهر حيث تنمو الأزهار بارتفاع صدر الرجل، ومن أصواتهم عرفت أنهم ثلاث فتيات وصبي.

كان الأطفال يلعبون لعبة تتخيل فيها فتاتان أن كلا منهما أم لعائلة كبيرة، ومن الواضح أنهما كانتا تقلدان والدتيهما هيئةً وكلامًا، ويبدو أن الفتاة الثالثة لم تَرُقْها اللعبة؛ فأخذت تغني أغنية تُكرر سطريها عدة مرات وتخطيء في نطق إحدى الكلمات.

قالت إحدى الفتاتين وهي تتصور نفسها سيدة كبيرة: "ألا تخجلين من نفسك؟ أنا أشتغل طول النهار حتى أستطيع توفير مصروفات إرسالك إلى

المدرسة، فماذا تتعلمين فيها إذا كنت تنطقين جميع الكلمات نطقًا غير صحيح؟ أخبريني! رويدك، سأخبر والدك، وسترين"!

وقالت الفتاة الأخرى: "حصل ابني بثيا Petya على درجات مُخجلة في المدرسة، فضربته ضربًا مُبرحا؛ حتى إن يدي لا تزالان تؤلماني."

قال الوالد بصوت مبحوح: "يا لكِ من كذابة يا نيوركا !Nyurka إن أمي هي التي ضربتني. ولم يكن الضرب مُوجعًا إطلاقًا."

فصاحت نيوركا تقول: "اسمعن ماذا يقول!"

قالت الفتاة الجذلة التي كانت تغني: "أنصتن إليّ يا بنات! سأخبركما بشيء عجيب حقًا، أعرف شُجيرة لا تبعد عن هنا، تتوهج طول الليل حتى مطلع الفجر، بنارٍ زرقاء جميلة، ولكني أخاف الاقتراب منها."

قالت نيوركا مذعورة: "وماذا يسبب توهُّجها على تلك الصورة يا كلافا Klava؟"

قالت: "هناك قلم رصاص من الذهب مدفون في الأرض تحتها، إذا أمكنكِ العثور على هذا القلم وتمنيت أي شيء؛ تحقق فورًا"!

قال الصبي: "أعطينيه"

"أعطيك ماذا؟"

"القلم الذهبي!"

"إليك عني!"

بكى الغلام وأعول وأخذ يكرر قائلًا: "أعطينيه، أعطينيه، أعطيني القلم، أيتها الفتاة الشريرة"!

ضربته نيوركا وقالت: أهكذا يكون مسلكك! إنك تُجلب المتاعب والموت لي، لماذا جئت بك إلى هذه الدنيا"!

وللعجب، كان لهذه الألفاظ تأثير مُهدئ، إذ سكت الصبي في الحال،قالت كلافا بصوت عذب: "يا عزيزي "لا يُضرب الأطفال هكذا، إنهم في حاجة إلى التعليم، علميهم الأشياء كما أعلم أولادي، حتى لا يشبوا خاملين بل ينفعوا أنفسهم وغيرهم."

قالت نيوركا محتدة: "ولكن ماذا أعلمهم إذا كانوا لا يريدون أن يتعلموا شيئًا؟"

قالت كلافا: "سيتعلمون إذا علمتهم شيئًا، علميهم كل ما تعرفينه، انظري إلى هذا الصبي مثلًا، كان يبكي بدلًا من أن ينظر إلى هذه المجموعة الكبيرة من الأزهار التي يُعجُّ بها المرعى حوالينا، ويتعلم أسماءها."

ما هي إلا لحظة حتى كانت كلافا تسأل الغلام عن أسماء الأزهار الباسمة في ذلك المكان، فلما رأت أنه يجهل أغلبها ويتلهف إلى معرفة أسمائها؛ أنشأت تعلمه إياها، وكانت تجعله يكرر كل كلمة جديدة عدة مرات؛لكي تثبت في ذهنه، وهكذا تعلم الصبي الكثير في "لعبة"، وسُرَّ أيما سرور .

أخذت أنصت مدهوشًا إلى معلومات تلك الفتاة القروية، كانت تعرف أسماء جميع الأزهار والأعشاب النامية في الحقل، بَيْدَ أنه سرعان ما قطع ذلك الدرس الرائع في علم النبات صراخ الغلام فجأة،

"لقد جرحت نفسي، لماذا جئتُنَّ بي إلى هنا أيتها الفتيات الشريرات؟ كيف أستطيع العودة الآن إلى المنزل؟"

صاح رجلٌ عجوز بصوت أَجَشْ، يقول: "ويحكن! لماذا تؤذين هذا الولد الصغير؟ "

قالت كلافا: "لم نضرُّه بشيء يا جدي باخوم"Pakhom ، ثم خاطبت الصبي بقولها: "إنك تُسبب المتاعب لغيرك دائمًا"!

وصل إلى سمعي وقع أقدام الرجل وهو يذهب إلى الأطفال، ولما نظر إلى البحيرة ورأى القصبة التي أصيد بها السمك، قال: "ها هنا رجل يصيد السمك، لا تتجمعوا كلكم في بقعة واحدة كما لو كان المكان لا يتسعُ لكم."

فصاح الصبي قائلًا: "أين يصيد؟ أريد أن أصيد مثله"!

عنُّفتهُ نيوركا بقولها: "لا تحاول الهبوط إلى هناك، أيها الغبي، وإلا سقطتَ في الماء."

سرعان ما انصرف الأطفال دون أن أراهم، ولكن الرجل العجوز نزل إلى حافة البحيرة وسعل، ثم قال في خجل: "أتتفضل بإعطائي لُفافة تبغ؟ "

قدمت له لفافة، ولكي يأخذها؛ سار نحوي يتعثَّر في مشيته ويقع ويلعن الشيخوخة ويتشبث بشجيرات الشوك، كان رجلًا هزيل الجسم ضعيفًا، يُمسك في يده سكينًا ضخمًا في غمْدٍ من الجلد.

ظن أنني أرتاب في السكين، فقال: "أتيت لأقطع بعض الأغصان، إنني أصنع السلال وخيوط الصيد وما أشبه ."

تحدثتُ إليه وذكرتُ له إعجابي بتلك الفتاة الريفية التي تعرف أسماء جميع الأزهار والأعشاب معرفة جيدة.

قال: "أتقصد كلافا؟ إنها ابنة كلاف (سايس) بالمزرعة الجماعية، إن لها جدة تعرف عن الأعشاب ما لا يعرفه أي شخص آخر على مسافة مئات ومئات من الأميال حولنا، يجب أن تتحدث معها عن الأزهار". ثم سكت قليلًا،

وتأوَّه، واستطرد يقول: "نعم لكل زهرة اسم، إنه كجواز السفر لها."

انصرف الرجل بعد أن قدمت له لفافة تبغ أخرى، فتبعته.

بعد أن خرجت من حَرش الأعشاب إلى طريق بجانب المرعى، أبصرت الفتيات اللائي سمعت أصواتهن منذ قليل، كُنَّ يحملن باقات كبيرة من الأزهار، وكانت إحداهن تُمسك بيد الغلام الذي كان يلبس قبعة كبيرة، كان الأطفال يسيرون بسرعة، وأعقاب أقدامهم الحافية تلمع من بُعد. انتشر الوهج الخابي لأشعة الشمس المائلة عند الغروب، بامتداد نهر أوكا وخلف قرية يسينينو القريبة من الغابات الممتدة إلى مسافات بعيدة نحو الشرق.

مذكرات المفردات اللغوية

ظللت مدة طويلة أُقلِّب في ذهني فكرة جمع عدد من المعاجم على طريقة خاصة، وفعلًا بدأت العمل فيها وجمعت كثيرًا من المادة اللازمة لها .

أخذتُ أفكر في أنَّه لا بد من تخصيص قاموس للطبيعة، وقاموس آخر للألفاظ الأدبية،وثالث للمصطلحات التي يستعملها مختلف الصناع وأرباب المهن، ورابع للكلمات العامية،وخامسٌ للألفاظ المهجورة مع إهمال جميع الكلمات المستعارة من اللغات الأجنبية والتي ليست لغتنا في حاجة إليها، وحذفُها من لغة الحديث الروسي حذفًا تامًا.

خطرت بذهني فكرة جمع معجم لكلمات الطبيعة وحدها يوم أن كنت أصيد في البحيرة وسمعت تلك الفتاة القروية الصغيرة تُسمى كل زهرة وكل نبتة في المرعى، وكانت خُطتي أن أذكر (عِلاوةً على التعاريف) فقرات من الأدب توضِّح معنى الكلمات، فمثلًا: وجدت أنه من الأوفق أن أذكر بجانب الكلمة الدالة على "الجليد المتدلي" الفقرة التالية من كلام بريشفين :**Prishvin**

"تحولت جذور الأشجار، تلك الجذور الطويلة النامية بكثرة والبارزة من كهوف ضفة النهر الرقراق، إلى قطع من الجليد تتدلى من سقوف الكهوف، ثم طفقت تستطيل وتستطيل حتى تكاد تصل إلى ماء النهر، وعندما يُداعب النسيم العليل سطح الماء، وتلمس الأمواج الضئيلة ذلك الجَمَدَ المُتَدلِّي؛ تتأرجح وتُحدث رنينًا هو: موسيقى الربيع الأولى التي في حلاوة القيثارة الأيولية **Aeolian**".

ولنُضفي على كلمة سبتمبر صورة حية في مخيلتنا؛ نذكر الأشعار الآتية لباراتينسكي :Baratynsky

ها هو ذا سبتمبر يُؤخِّر مجيء فجره،

تتلألأ فيه الشمس كقرص من الذهب،

وتنعكس أشعتها على مرآة البركة ذات الخرير

فيرتجف شعاع الشمس بلون ذهبي باهت.

طال بي التفكير في طريقة جمع كل هذه القواميس، وخصوصًا قاموس كلمات الطبيعة الذي يجب تقسيمه إلى أبواب: كالغابات والمراعي والحقول والفصول والظواهر الجوية والماء والأنهار والبحيرات والنباتات والحيوانات. فَأَلْفَيْتُ أنَّ معجمًا على هذا النحو يجب أن يُجمع بطريقة خاصة بحيث يُقرأ على أنه مؤلَّف خيالي، وبهذه الصورة وحدها يمكنه أن يُعطي طبيعة أرضنا وغزارة لغتنا حقهما من الإنصاف.

من الجَلِيُّ أن هذا عملٌ ضخمٌ ولا ريب، لا يستطيع أن يضطلع به شخص فرد، ولا يكفي لإنجازه عمر الإنسان، ومع ذلك، فكلما فكَّرتُ في ذلك المعجم، تمنيتُ لو أني أصغر سنًا بمقدار عشرين سنة حتى يمكنني أن أقوم بجزء منه على أقل تقدير.

شرعتُ أجمع المذكرات، ثم فقدته بعد ذلك، والآن يصعب عليَّ تدوينها من الذاكرة، قضيت أحد فصول الصيف أجمع الأزهار والأعشاب وأدرس أسماءها وخواصها، مستعينًا بأحد الكتب القديمة في علم النبات، فوجدت في هذا العمل لذة ومتعة بالغتين، وما كان أشد إعجابي بالطريقة التي تُنجز بها الطبيعة عملياتها، كما ظهر لي في كل وريقة تويجية، وفي كل زهرة وكل جذر وكل بذرة درستها!

شعرتُ بحكمة الطبيعة في إحدى المصادفات الغريبة، حدث هذا في أحد أيام الخريف،بينما كنت مع صديق لي في رحلة لصيد السمك نصيد في بحيرة مستطيلة عميقة كانت منذ عدة قرون خلت مجرى قديمًا لنهر أوكا، ثم انفصل عنه فيما بعد، كان يحيط بهذه البحيرة أحراش كثيفة بحيث يصعب أن تصل إلى الماء إلا بعد جهدٍ ومشقة، وفي بعض الأماكن كان يستحيل عليك الوصول إليه البتة، وقد اشتبكتْ بمدرَّعتي (جاكتتي) عدة بذور من الشبيط وأنا أصيد.

كان الجو صحوًا بديعًا لمدة يومين في بدء الرحلة، وكنا نَبِيتُ في فسطاط دون أن نخلع ملابسنا، ثم أمطر السماء في اليوم الثالث، فلما أردت النوم؛ وجدت مدرعتي مبتلة، وفي منتصف الليل شعرت بوخز غريب في صدري وذراعي دونه وخز الإبر، وسرعان ما علمت أن سبب الوخز:بعض بذور مستديرة مسطحة لنوع من الحشائش قد التصق بمدرعتي، فامتص الرطوبة من الملابس،وبدأ يخرج منها محاليق اخترقت نسيج المدرعة حتى وصلت إلى جسمي فعملت على أن تنفذ فيه.

لا أَكُفُّ عن التفكير في حكمة الطبيعة، فالبذرة تقع في الأرض فتبقى فيها دون حراك تنتظر سقوط المطر، لم تكن البذرة لتحس وهي جافة فتتخذ طريقها إلى الأرض، غير أنها ما إن تبتل حتى تنتفخ وتَدُبُّ فيها الحياة، فتتعمق في التربة وتنمو.

كان هذا ممتعًا حقًا، بَيد أن الكتابة عن البذور ذكرتني بشيءٍ عجيب آخر في الطبيعة، وجدت فيه نموذجًا مثاليًا عن مصير الكتب، ذلك هو: الطريقة الغريبة التي لا نشم فيها رائحة أشجار الليمون إلا من مسافة بعيدة كما لو كانت الشجرة مُحاطة بسياج من رائحتها، ولستُ أعرف السبب الذي تقصده الطبيعة من هذا، ولكن لا يسعني إلا التفكير في أنَّ الأدب الجدير بالصيت الحَسَنْ يشبه أزهار الليمون، يحتاج إلى بلاد بعيدة وإلى وقت طويل لكي يحظى

بالتقريظ، ولكي تُقدَّر قوته الحقيقية ودرجة كماله ورسالته وجماله.

في مكنة الدهر أن يعمل أشياء كثيرة، فيستطيع إخماد جذوة الحب وغيره من العواطف، ويمحو ذكرياتنا عن مشاهير الرجال، ولكنه يقف مكتوف اليدين أمام الأدب، قال "سالتيكوف شكدرين" :" **Saltykov– Shchedrin** إن الأدب لا يخضع لقانون الفَنَاء". وكتب بوشكين يقول: "تعيش روحي في موسيقى القيثارة الشجية أكثر مما تعيش رُفاتي، وتخدع الموت نفسه". وجاء في أشعار فيت" :**Fet** هذه الورقة الجافة التي سقطت من شجرتها، ستعيش مُحوطة بالذهب البرّاق في أغنية ."

ولقد أفاض الكُتاب والشعراء والفنانون والباحثون، على اختلاف أجناسهم وتباين عصورهم– في الكتابة والتغنّي بمثل هذه الأفكار، ولا بد أن يتفوق ما كتبوه على ما يكتبه كُتابنا ذوو الإحساس بمسئولية فَنِّنَا البالغة، ولا بد أن نشعر بالبون الشاسع الذي يفصل بين ذلك الأدب الصحيح بكل معاني الكلمة، وبين ذلك الكلام الفاتر الضعيف الركيك الذي يدخل تحت هذا الاسم، رغم أنه يَشِلُّ نشاط الروح البشرية ويسبب لها العار والاحتقار.

إن لذلك الأدب الجزل صيحةٌ بعيدة المدى تُطلقها رائحة نوار الليمون لتنبه الأفكار إلى سرمدية الأدب، ومن طبيعة الإنسان أن يتبع قطارًا من المتشابهات عند التفكير، ألا تستطيع حبة دقيقة من الحمص، أو رقبة زجاجة مكسورة أن تُثير أفكار الكاتب فيسترسل في كتابة قصة؟

لا أزال أحاول التفكير في بعض المذكرات التي جمعتها لأجل القواميس التي كنت آمل في أن أراها مطبوعة في يوم من الأيام لبعض كُتابنا، كما أعرف مفرداتهم اللغوية الخاصة. ولكنهم لا يُطلعون عليها أحد، ولا يتحدثون عنها إلا نادرًا وفي حذر.

إن كل ما أوضحته فيما يختص بعدد من الكلمات الروسية مُستمَدْ جزئيًا من مذكرات معاجمي.

كانت أول مذكرة دوّنتها عن الغابة، لما كنت قد وُلدت وترعرعت في الجنوب حيث لا توجد غابات، بالمعنى الصحيح إطلاقًا؛ كان من الطبيعي أن تجذبني إليها الغابات في روسيا الوسطى أكثر من أي شيء آخر في الطبيعة، فأول كلمة جمعتها هيGlookhoman :، وقد سمعتها لأول مرة في حديث حراس الغابات، وهي كلمة لا توجد في المعاجم، ومعناها بالتقريب: "كثافة الأشجار في الغابة"، وقد طبعت هذه الكلمة في ذهني فور سماعها، صورةَ غابة كثيفة هشَّة التربة شديدة الرطوبة، تكسرت فروعها بفعل الرياح، وتشم فيها رائحة النباتات العَطِنَة وجذوع الأشجار العفنة، وترى فيها الشفق الأخضر،وتحسُّ بالسكون الشامل، ثم تلتها الكلمات ذات الصلة بالغابة، وهي كلمات رغم بساطتها، توحي بصورة في غاية الجمال عن مختلف أنواع الغابات والأشجار.

ولكي يُقدِّر المرء قيمة هذه الكلمات، يجب أن يحب الغابة، فإذا فعلت؛ أَوْحَى إليك كل لفظ فني مهما كان جافًا بصورة ممتعة بمجرد أن يصل إلى سمعك، حتى ولو كان "قضيب حدود الغابة"، فحول كل قضيب من هذه كومة رمل صغيرة من الحفرة التي حُفرت لدفعهِ في الأرض، تنمو عليها الحشائش الطويلة والشليك (الفراولة)، وإن هذه القضبان التي تُضيئها الشمس بأشعتها الساطعة، والتي تقف عليها الفراشات مُطبِّقة الأجنحة لتدفئ جسومها، وتُنشط النمل بالعمل حواليها، لتغريك إلى أن تستريح بجانبها بعد طول المسير، فالجو عند هذه القضبان أدفأ منه في وسط الغابة (أو ربما يبدو هكذا). فتجلس على الأرض وتُسند ظهرك إلى ذلك القضيب، تُصغي إلى حفيف أوراق قِمم

الأشجار، وتسرح ببصرك عبر السماء الصافية الزرقاء التي تسبح فيها السحب الفضية الأطراف، لا تجد من يُضايقك عند هذه القضبان حتى ليُخيل إليّ أنك تقضي هناك شهراً دون أن ترى أحدًا، هناك هدوء الظهيرة في السماء وفي السحب، كما هو في الغابات وفي الزهرة الزرقاء عندما تسقط من الفنن إلى الأرض، وكما هو في القلب.

يحدث أحيانًا أن تتعرف على قضيب بعينه مررت به منذ سنة أو سنتين، ثم تتصور كم من الماء مر أسفل الجسور منذ أن رأيته، وكم أماكن زرتها، وكم من أفراح وأحزان صادفتها، بينما ذلك القضيب باقٍ في مكانه لم يتغير ولم يتزحزح، ليلًا ونهارًا، صيفًا وشتاءً، ينتظر قدومك كصديق وفيْ حميم، غير أنه أصبح مُغطى بطبقة أكثف من الطحالب الصفراء، والتف حوله العُلّيق حتى قِمته، وعندما تؤثر حرارة الشمس في العُلّيق؛ ينمو ويتسلق ويُخرج براعمه وتنبعث منه رائحة كرائحة اللوز النفاذة.

يمكنك أن تتمتع برؤية جمال الغابة إذا صعدت إلى قمة برج مراقبة لإحدى فرق المطافئ القريبة، إذ ترى قمم الدوح ممتدة حتى الأفق، ترتفع فوق التلال وأسفل الوديان، ويبدو حائط الأشجار القريبة كأسنان المنشار تضم بينها بقعًا من الرمال، ويقع بصرك على صفحة بحيرة فِضّية تلمع هنا وهناك، أو سطح بركة تبدو حمراء من بُعد، تتطلع إلى الغابة فتجدها مترامية الأطراف لا حدود لها، ولم تُكتشف مجاهلها بعد، تُشير إليك أعماقها الغامضة بقوة توحي إليك بأنه يستحيل عليك أن تُقاوِم، فإذا ما شعرت بنداء الغابة، لم أُضيع وقتًا، بل أحمل حقيبتي على كتفي، وأصحب معي بوصلة، وأتعمق في ذلك الخضم الفسيح الأخضر.

ذات مرة كنت مع أركادي جايدار، فجذبتنا الغابة إليها بهذه الكيفية، فأخذنا

نضرب في أرضها غير المطروقة أطراف النهار وآناء الليل، تُطل علينا النجوم من بين قمم أشجار الصنوبر الشاهقة كأنما هي تُقصر ضوءها علينا وحدنا، وقُبيل الفجر ظهر لنا جدول متعرج تعلوه سحابة كثيفة من الضباب الدافئ؛ فأوقدنا نارًا بجانب ذلك المجرى وجلسنا صامتين مدة طويلة نُصغي إلى خرير الماء وهو ينساب تحت أحد الأغصان، وإلى صُراخ الوعول الموحش، وهكذا بقينا على تلك الحال نُدخن حتى تقهقرت جحافل الظلام، وبانت زرقة السماء في الشرق.

قال جايدار: "ما رأيك في الحياة مائة عام على هذا المنوال؟ ماذا ترى؟"

قلت: "وأكثر من ذلك! ولا أظن هناك ضيرًا في تناول بعض الشاي، أعطني الإبريق."

سار جايدار يتعثَّر في الظلام إلى الجدول، وسمعته يُنظف الإبريق بالرمل، ويلعن عندما انكسرت يد الإبريق المصنوعة من السلك، وبعد لحظة أخذ يُردد أغنية، هذا نصها :

غابات عميقة، غابات تعج باللصوص،

دامسة الظلام– منذ غابر الأزمان.

والنصل اللامع لسكين مخبأ،

قد شحذ– استعدادًا لضربة قاسية.

كان لغنائه تأثير مُهدِّئ غريب،ويبدو أن الغابة الساكنة كانت تُنصت إليه أيضًا، بيد أن المجرى وحده كان دائم الخرير يأكل في الغصن الذي يعترض طريقه.

أما الألفاظ الروسية الخاصة بالفصول فعظيمة التعبير وكثيرة، تُوحي إلينا بجمال الطبيعة الكامل في أثوابها المتغيرة.

هناك عدة ألفاظ تتعلق بالضباب وبالرياح وبالسحب، وبُرقعات الماء الواسعة، واللغة الروسية غَنِيَّة بالألفاظ المتعلقة بالأنهار، وقد التقيت بعدة أُناس من بينهم كثير من بحارة قوارب وأطواف عبور الأنهار، فأدهشتني روعة لغتهم، عادة ما تكون الجموع التي تعبر النهر على رمث أو قارب مرحة دائمة بالبهجة كثيرة الضوضاء، يُثرثرون باستمرار، ويتبادلون النكات والفكاهات، فالزوجات يعملن على معاكسة أزواجهن وهن يشددن حبال الوصول إلى البر، ويعبر النهر صغار الخيل ذات المتون اللامعة، بعرباتها وهي تمضغ العلف وتنظر إلى سيارات النقل بجانبها تحمل الخنانيص (صغار الخنازير) في طريقها إلى المجزر، وهي تصرخ وترفس، وتشاهد الفلاحين يدخنون لفائف التبغ التي يصنعونها بأيديهم من التبغ الأخضر المر، ويدخنونها حتى يحرق آخر جزء فيها أصابعهم .

أما أنتَ فتجلس على كومة من الدريس مُبعثرة فوق الطوف، تُدخن وتُصغي إلى محادثات القوم حولك: آخر الأنباء الزراعية، والأخبار العادية والحكايات الغريبة، وبعض الحكم والأمثال يقولها هذا أو ذاك هنا وهناك.

أما بحارة تلك الأطواف فقد شاهدوا الكثير من أنواع الحياة، فأصبحت ألسنتهم لاذعة وثرثرتهم بالغة، وغدوا على استعداد لأنْ يخوضوا الحديث في أي موضوع، ولا سيما في المساء عندما ينقطع الزحام على عبور الأنهار، ينتهي عمل أولئك القوم بعد أن تحتجب شمس الغسق وراء الأفق خلف ضفة النهر العالية، ويملأ البعوض الجو بطنينه، تُقدم لهم لفافة تبغ فيتقبلونها بأصابع خشَّنتها الحبال ويقولون لك إن هذا التبغ الخفيف أو الحلو لم يُجعل إلا للمترفين ولا يصلح للحلوق الصلبة كحلوقهم، ولكنهم بالرغم من ذلك يدخنون اللفافة في لذة وشهية، ويبصقون في النهر، ثم يبدءون الحديث.

يجد الكاتب فرصة عظيمة لدراسة اللغة على طول ضفة النهر وفي أماكن

رسو الأطواف والقوارب ذات الجموع الصاخبة من مختلف المهن وشتَّى النِّحَلْ، ونهرا الفولجا وأوكا عظيما الفائدة في هذا الشأن، يشبه هذان النهران في كونهما جزءًا من الحياة والتقاليد الروسية، موسكو والكرملين وبوشكين وتولستوي وشايكوفسكي Chaikovsky وشاليايينChaliapin ، وتمثال الفارس البرنزي بلننجراد، ومتحف تريتياكوف Tretyakov للفنون بموسكو .

وصف الشاعر يازيكوف Yazykov نهري الفولجا وأوكا بشعرٍ أعجبت لغته بوشكين، وهاك بعضًا من سطوره:

غني بالغابات، يتدفق بغزارة،

ولا تعوق الأرض الرملية طريقه،

فينساب في عظمة وجلال ومجد

يحميه شاطئاه المبجلان.

اللهجات الشعبية الروسية غنية بالكلمات، بَيد أن هناك خطأً شائعًا بين الكُتاب غير المدربين الذين لم يبلغوا مستوى الكاتب الناضج، إذ يستعملون كثيرًا من هذه الألفاظ في حرية وبغير حذر، فغالبًا ما تكون الكلمات التي يقع عليها اختيار الكاتب بدون روية لتضفي على الموضوع روحًا شعبية غير معروفة للقارئ العادي، فيسأم القراءة ويمل الموضوع .

لا ينبغي أن نتطرف في استعمال اللغة الروسية الأدبية استعمالًا دقيقًا، فهي لغة مرنة إلى حد بعيد ويمكن جعلها جزلة بالكلمات الشعبية، على شرط أن يكون استعمالها بمنتهى الحذر، إذ مع كل ما في تلك الألفاظ الشعبية من زخرف وتناسق؛ فإن كثيرًا منها مُبتذل تُمجه الأذن، كما أنه إذا أراد الكاتب استخدام بعض الألفاظ الشعبية، وجب أن يكون معناها واضحًا من سياق الكلام (إذا لم تكن معروفة تمامًا للقارئ).

لا يميل القُراء أبدًا إلى الأدب الغامض أو المُحير أو الذي يتضمن توريات غير ظاهرة، فكلما كان الجو صافيًا كانت الشمس ساطعة، وكذلك الحال في النثر، فكلما كان الكلام سهلًا فصيحًا؛ كان الأسلوب سلسًا، وزاد إقبال القارئ عليه، كما قال تولستوي: "السهولة إحدى ضروريات الجمال."

زادت مقابلاتي مع الفلاحين وحديثي إليهم في جزالة لغتي، فذات يوم التقيت بفلاح عجوز في مقاطعة ريازان Ryazan اسمه سيميون فاسيليفيتش يليسين Semyon Vasilyevich Yeslesin ويشتهر بين قومه باسم "الجد سيميون" لمحبة الجميع له، وكان رجلًا مُجدًا نشيطًا ساذجًا في براءة الأطفال، قانعًا بحياته البسيطة، إنه نموذج صحيح للفلاح الروسي: فخور، نبيل القلب، بالغ الكرم..

كان يلذُّ لي أن أستمع إلى حديثه إذ كان يُجيد التعبير عن آرائه وما يقصد الكلام فيه بطريقة جميلة ممتعة رائعة، كان يأمل في سره أن يصبح نجارًا، وأن يكون ماهرًا في مهنته بمعنى الكلمة، ولكنه مات قبل أن تتحقق أمنيته. إن شخصية المرء لتؤثر في بيئته وتنشر البهجة والسرور فيما حواليه، وعلى ذلك عندما توفي الجد سيميون في شتاء عام ١٩٥٤، لم تَعُد تلك المنطقة تجتذبني إليها، ولم أحاول القيام برحلة واحدة إلى تلك الأصقاع أو الذهاب إلى كومة الرمل الصغيرة القائمة بجوار النهر، والتي ووريت فيها رُفات ذلك الرجل الطيب العجوز.

لا ينبغي أن تكون هناك حدود لرغبة الكاتب في زيادة رأسماله من مفردات اللغة، وكان يعجبني التنويع في هذا المضمار، فمثلًا: قمت ذات مرة بدراسة خاصة للمصطلحات البحرية، وكانت المراجع التي انكَبَبْت على الدراسة فيها هي: كتب التعليمات البحرية لربابنة السفن، فوجدت فيها متعة بالغة، إذ

يستطيع المرء أن يتعلم فيها أشياء كثيرة عن البحر وغوره البعيد، والتيارات والرياح والموانئ والفنارات، وسلاسل الجبال المغمورة تحت سطح الماء، والأسماك، تعلمت كثيرًا مما يساعد على سهولة الإبحار، وغير ذلك من الأمور العديدة الأخرى الخاصة بالملاحة والملاحين والبحار..

تناولت أول كتاب بحري وقع في يدي شئون الملاحة في البحر الأسود وبحر أزوفAzov ؛ فدُهشت لجمال ودقة لغته، بَيد أن كثيرًا من عباراته كانت غريبة يحوطها الغموض، فحيرتني في بادئ الأمر، ولكن سرعان ما أدركت أن تلك الغرابة مَنْشَؤها خلط المصطلحات الفنية الطويلة المهجورة بالمصطلحات الحديثة، ويبدو أن تلك الكتب أُلِّفت في أوائل القرن التاسع عشر، وكانت تُصدر بانتظام في أوقات معينة، فكل طبعة بعد الأولى كانت تحوي إضافات من المصطلحات الحديثة بلغة عصرية، بينما يبقى النص الأصلي على حاله لا يتناوله أي تغيير؛ وعلى ذلك كانت هذه الكتب ذات فائدة خاصة لمن يُريد تتبع تغير الألفاظ ومعانيها على مر الزمن.

واللغة التي يستعملها رجال البحر حية ومنعشة وزاخرة بالدعابات، وهي لغة جديرة بالدراسة.

حادث في مخازن الشوانج

كنت في أوديسا عام ١٩٢١، وهو العام الذي نَشبتْ فيه نيران الحرب الأهلية وانتشرت المجاعة بين الأهلين، وكنت أسكن بالدور الثاني من مخازن ألشوانج **Alshwang** السابقة، لبيع الملابس الجاهزة.

استأجرت ثلاث حجرات كان على حوائطها مرايا طويلة، حاولت أنا والشاعر إدوارد باجريتسكي **Bagritsky** بكل ما أوتينا من قوة أن ننزعها من الحوائط لكي نُقايض عليها في السوق بشيء نأكله، ولكن دون جدوى،فبعد كل محاولاتنا اليائسة؛ لم ننزع حتى نشرح واحدة منها.

لم يكن بالحجرات أي أثاث سوى ثلاثة صناديق تراكم عليها الفِطر، ولحسن الحظ كان بالإمكان نزع الباب الزجاجي من مفصلاته، فكنت أنزعه كل ليلة وأضعه فوق صندوقين فأتخذ منها سريرًا لي، ويا له من سرير كثير الخداع !

كثيرًا ما كنت أستيقظ عدة مرات في أثناء الليل؛لأن الحشية القديمة، أو على الأصح قطع الفراش البالية التي استعملها كحشية– كانت تنزلق باستمرار من تحت جسمي حتى تسقط على الأرض، ما إن تبدأ الحشية بالانزلاق؛حتى أحس بها فأفتح عيني وأبقى ساكنًا لا أتحرك قدر طاقتي، وأخاف أن أتقلب على جنبي؛ لأنني كنت أزعم (وفيه نوع من الغباء) أنني إن بقيت ساكنًا دون حراك؛ كفَّت الحشية عن الانزلاق، ولكنها كانت تهزأ بخطتي هذه وتنزلق باستمرار.

يبدو هذا مضحكًا الآن، ولكنه لم يكن مضحكًا في ذلك الوقت، حيث تهب الريح الشمالية الشرقية من البحر المتجمد، وتُصفر فوق طوارات

الشوارع الجرانيتية، ولم ينهمر الثلج ولو مرة واحدة، وهذا ما جعل الصقيع أشد تأثيرًا وإيلامًا..

كان بالحجرة مُوقد روسي، من المواقد التي كانت تُستعمل في الحرب الأهلية والمعروفة باسم "بورزويكا "Bourzhuika وهو: موقد من الصفيح رديء الصنع، ولم يكن لديَّ حطب لأستدفئ، وحتى لو كانت هناك أخشاب لما استطعت تدفئة الحجرات الثلاث بذلك الموقد العديم النفع،كنت أستعمله فقط لتسخين منقوع الجزر، حيث كان يكفي قليل من الصحف القديمة.

أما الصندوق الثالث فاستعملته مكتبًا، فعندما يأتي المساء ويشتد البرد، ألتف بجميع ما أملك من ملابس ثقيلة، واقرأ ترجمات جورج شنجيلي Georgy Shengeliلأشعار جوزيه ماريا هيريدياJose Maria Heredia ، على الضوء الخافت لفتيل صغير بقنديل، نُشرت تلك الأشعار في أوديسا في سنة القحط المقيتة، ويجدر بي الاعتراف بأنها كانت عونًا على حفظ روحنا المعنوية، فكنا نشعر بنفس القوة التي كان يشعر بها الرومان، مرددين بيت شعر كتبه شنجيلي، نصه تقريبًا: "أيها الأصدقاء! إننا معشر الرومان، قد نزفت دماؤنا بيضاء."

لم تنزف دماء بيضاء بأية حال من الأحوال، بل كنا شُبَّانًا تغمرنا بهجة الحياة، وغاية ما في الأمر أننا قاسينا مُر البرد والجوع في كثير من الأحايين، بَيد أننا لم نتذمر .

كان يشغل الدور الأرضي من مخازن ألشوانج مؤسسة تعاونية للفنون والصناعات، يُديرها رسام عجوز بديء اللسان، يُعرف في أوديسا باسم "ملك الإعلانات"، وتقوم تلك المؤسسة بتنفيذ طلبات اللافتات، وقبَّعات السيدات الفنية، والأحذية الخشبية (على الطراز الإغريقي بنعال خشبية وبضعة سيور من

الجلد)، وإعلانات دور الخيالة ببوية من الغراء على قطع غير منتظمة من خشب "الأبلكاج."

ذات يوم بَسَمَ الحظ لتلك المؤسسة التعاونية، إذ تعهدت بصنع لوحة تدشين الباخرة بيستيلPestel ، التي كانت ستُبحر في أول رحلة لها إلى باطوم، وهي السفينة الوحيدة التي كان يحق للبحر الأسود أن يفخر بها في ذلك الوقت؛ كانت اللوحة من الصاج المدهون باللون الأسود عليه زخرفة من الأزهار الذهبية؛ فاشترك في عملها كل فرد في المؤسسة، حتى الشرطي زورا كوزولوفسكيZhora Kozlovsky ، الذي كان يأتي إلى هناك من آن إلى آخر بعد الانتهاء من نوبته.

كنت مديرًا لصحيفة "البحار"، وهي: جريدة محلية كان بها كثير من المحررين الشبان، منهم فالنتين كاتاييف Valentin Katayev وإدوارد باجريتسكي، وبابلBabel ، ويوري أوليشاYuri Olesha ، وإيليا إلفIlya Ilf ، ومن بين المحررين الشيوخ أندريه سوبول :Gndrei Sobol وهو رجل طيب القلب مهموم النفس دائم التذمر من شيء ما، وكان يزور مكتبنا كثيرًا، وذات يوم أحضر لنا قصة صغيرة غير منتظمة، اختلطت ألفاظها حتى غدت غير مفهومة، ولكنها بالرغم من ذلك كانت عملًا يدل على الموهبة القصصية الباهرة، فضلًا عن موضوعها الشيق.

قرأنا القصة جميعًا، فوضعتنا في مأزق، كان من المستحيل طبعها بالصورة التي كُتبت بها،ولا يمكن لأحد منا أن يطلب من سوبول إعادة كتابتها، فلا يستطيع أحد أن يحثه على ذلك، لا لأن فيه تجريحًا لكبريائه (على العموم لم يكن لسوبول كبرياء إطلاقًا)؛ ولكن لأنَّه عصبي حاد الطبع، ما إن ينتهي من عملٍ حتى يفقد كل لذته فيه.

وقفنا جميعًا حائرين أمام تلك القصة لاندري ماذا نفعل بها، كان بلاجوف Blagov، المصحح بجريدتنا، رجلًا عجوزًا، كان فيما سبق مديرًا لجريدة "Russkohe Slovo""أكثر صحف روسيا القيصرية انتشارًا، وكان المساعد الأول لسيتينSytin ، الناشر الذائع الصيت.

كان بلاجوف رزينًا، ذا ثقة بالغة في خبرته الماضية، عليه سيماء الوجاهة وعلو النفس، على نقيض مجموعة الشُّبان الثرثارين ذوي المناظر الرثة الذين يَعُجُّ بهم مكتبنا.

أخذت قصة سوبول معي إلى المنزل لأقرأها ثانية في هدوء، وفي الساعة العاشرة مساء طرق الشرطي زورا كوزلوفسكي الباب الخارجي، وكان جو المدينة وقتئذٍ داجيًا كالمداد، والشوارع مهجورة ليس فيها ديارًا سوى الريح تزمجر بعنف، وخصوصًا عند مفترق الطرق، فطويتُ جريدة على هيئة شريط طويل، وأشعلتها وخرجت لأفتح ذلك الباب الضخم، وكان مُقفلًا بقطعة من أنبوبة غاز عبث بها الصدأ، فلا فائدة من حمل المصباح الضعيف الهزيل الذي ينطفئ بمجرد أن تنظر إليه، فما بالك بعصف الريح القوية! لم يكن يسعني إلا أن أنظر إليه عندما يُطقطق مهددًا، ويخبو ثم يَنطفئ؛ وهذا هو السبب في أنني كنت أحاذر، قدر طاقتي، حتى النظر إليه.

قال زورا: "هنا رجل يُريد مقابلتك، ولكن –أعلم– أنني لن أسمح له بالدخول حتى تتأكد من شخصية، تذكر الحانوت الموجود بالدور الأرضي وفيه لوحات فنية يبلغ ثمنها وحدها ثلثمائة بليون روبل."

تذكرت أن مرتبي من الجريدة بليون روبل شهريًا (وتبعًا لأسعار السوق، لا يمكنني أن اشتري به أكثر من أربعين علبة ثقاب)، وعلى ذلك فإن المبلغ الذي ذكره زورا لم يكن خياليًا قط، كما قد يتوهم المرء.

كان بلاجوف بالباب، سمح له زورا بالدخول بعد أن أخبرته عن شخصيته، وبعد أن وعد بأنه سيمكث مدة ساعتين ليُدفئ نفسه ويشرب قدحًا من الماء الساخن.

قال بلاجوف: "بقيت أفكر طوال الوقت في قصة سوبول، إنها قطعة من إنتاج العباقرة، ولا بد من عمل شيء بخصوصها، إنني عريق في الصحافة– كما تعلم– ولا أحب أن تُفلت من أيدينا قصة عظيمة كهذه .

قلت: "وماذا تقترح؟"

قال: "أعطني القصة، أقسم لك بأنني لن أغير فيها كلمة واحدة سأبقى بحجرتك،لأنَّ الخروج في مثل هذا الوقت خطر، سأمر عليها في حضورك."

قلت: "تمر عليها، هذا يعني أنك ستنقحها؟"

قالت: "أخبرتك من قبل بأنني لن أغير فيها كلمة واحدة، كما أني لن أضيف إليها أي شيء".

"إذن ماذا ستفعل بها؟"

"سترى"

لم أفهم شيئًا... هذا هو بلاجوف، هادئ ورزين كعادته، ولكنه أحدث جوًا من الغموض في حجرتي، لقد خُدعت، وأطلقتُ يده ليخدعني.

أخرج من جيبه بقيةً من شمعة غريبة ذات خطوط ذهبية، فأضاءها ووضعها على الصندوق الذي كنت أستخدمه مكتبًا، وجلس على حقيبتي البالية وانكب على القصة ينقلها بقلم مبطط من الأقلام التي يستعملها النجارون .

دخل علينا زورا في حوالي منتصف الليل، وكنت أغلي ماء لعمل مشروب

ساخن، في هذه المرة من شرائح البنجر المحمصة، بدلًا من قطع الجزر المجففة، كما كانت عادتي..

قال زورا: "اعلما أنكما تبدوان من الطريق كاثنين من المزيفين، ماذا تعملان؟"

أجبته: "لا شيء غير إعداد قصة لعدد التالي من صحيفتنا."

قال: "اعلما أن أي شرطي آخر، ورآكما على هذه الصورة، لابد أن يتحرى عنكما، إذن فمن الخير أن تحمدا الله –وبالطبع لا يوجد إله– على أنني في نوبتي بهذه المنطقة، وموضوعكما معي، أنا المحب للثقافة، ولست بالشرطي البسيط، أما المزيفون فكثيرون وأعترف لكما بأن كثيرًا من العباقرة يشتغلون بالتزييف، حتى إن في مكنتهم أن يصنعوا من السماد دولارات، ويزيفوا جواز سفر للمرور بها، وقد علمت أنه يوجد بمتحف اللوفر في باريس تمثال من الرخام ليد موضوعة فوق نمرقة (وسادة) من المخمل الأسود، ويد من تظنانها؟ سارا برنار، شوبينChopin ، فيرا خولودناياVera Kholodnaya ؟، كلَّا، لم تستطيعا التخمين، إنها يد أشهر مزيف في أوروبا، لقد ضاع اسمه من ذاكرتي... قطعوا رأسه، واحتفظوا بيده، كما لو كان أستاذ كمان مشهورًا، فما رأيكما في هذا؟ "

قلت: "ليس بكثير، أمعك شيء من السكارين؟"

قال زورا: "نعم، على هيئة حبوب، سأعطيك بعضًا منها."

لم ينته بلاجوف من القصة إلا في الصباح، ولم يُطلعني عليها إلا بعد أن نُسخت على الآلة الكاتبة.

دهشت بعد قراءة القصة، لقد غدت نثرًا واضحًا كالبلور في صفائه، كلها

حيوية وجلاء، لا أثر لتكدس الألفاظ أو عدم انسجامها، وأكثر من هذا، أنه لم يحذف أو يضف كلمة واحدة إلى ما كان مكتوبًا من قبل.

نظرت إلى بلاجوف فإذا هو جالس في هدوء يدخن لفافة من تبغ كوبا، سوداء كالشاي.

قلت: "يا لله! إنها لمعجزة! ماذا فعلت؟"

قال: "لم أفعل شيئًا إلا وضع علامات الوقف والفواصل في أماكنها الصحيحة، إن ترقيم سوبول لكتابته لفي منتهى الفظاعة؛ فغيرت مواضع الفواصل ونقط الوقف والتقسيم إلى فقرات، هذا كل ما أحدث ذلك التغيير. لقد تكلم بوشكين عن أهمية الترقيم كما تعلم، فعلامات الترقيم أشبه بالمجسدات الموسيقية (النوتة)؛تربط الكلمات وتحفظ الوزن بين مختلف أجزاء الجملة ."

ظهرت القصة في صحيفة اليوم التالي، فإذا بأندريه سوبول يأتي إلى المكتب، عاري الرأس كعادته، أشعث الشعر، وعيناه تقدحان بالشرر.

"من ذلك الذي مس قصتي؟" قال هذا وهو يصرخ ويلوح بعصاه في الهواء، ثم ضرب بها على مكتب فوقه أكوام من الصحف، فثارت منها سحب من الغبار ملأت جو المكتب.

قلت: "لم يمسسها أحد، ويمكنك أن تراجعها على الأصل ."

قال: "هذا غير صحيح! هذا كذب! لابد أن أعرف من هو".

كانت العاصفة في طريقها إلى الهبوب؛ فبدأ زملاؤنا الجبناء ينسحبون من الحجرة. وكما هي العادة، جذبت تلك الأصوات انتباه كاتبي النسخ على الآلة الكاتبة، فأسرعا إلينا يُحدثان صوتًا بأحذيتهما الخشبية..

قال بلاجوف بصوت رزين: "أنا الذي مسست قصتك إذا كنت تقصد بمسها وضع علامات الترقيم في مواضعها الصحيحة، فبصفتي مصحح الجريدة، لم أفعل غير واجبي."

عندما سمع سوبول هذا، اندفع نحو بلاجوف، فأمسك بكلتا يديه وصافحه بحرارة، وما هي إلا لحظة حتى كان يقبل بلاجوف ثلاث مرات تبعًا لتقاليد موسكو.

قال سوبول: "شكرًا جزيلًا! أشكر لك هذا الدرس الذي علمتنيه، وأخشى أن يكون قد جاء متأخرًا، كنت أحس بأنني مجرم وأنا أخطئ في ترقيم كتابتي."

ولما أقبل المساء، جاء سوبول إلى حجرتي، وقد حصل على نصف زجاجة من "الكونياك" بطريقة ما، كما جاء بلاجوف وادوارد باجريتسكي وزورا كوزلوفسكي بعد الانتهاء من نوبته، فشربنا جميعًا نخب عظمة الأدب عامة، وعلامات الترقيم خاصة.

واتفقنا جميعًا على أن نقطة الوقف في المكان الصحيح، تفعل العجب العجاب.

بعض لمحات عن الكتابة

لكل كاتب ذكاؤه الخاص الذي يحفزه على الكتابة، وعادة يكون ذلك الذكاء كاتبًا في حد ذاته.

اقرأ بضعة سطور بذكائك الخاص؛ فسرعان ما تشعر بحافز يحثك على أن تكتب. لقد أصبحت نشوان، أصابتك العدوى بجرثومة الكتابة، فلا يسعك إلا أن تمسك القلم في الحال، غير أنه يُدهشني مما لاحظته أن هذا الذكاء عنصر مستقل في حدته وطريقة كتابته وموضوع مادته عن الكاتب الذي يؤثر فيه .

أعرف أحد الكتّاب الواقعيين، يكتب في الحوادث العامة للحياة العادية، رزين العقل معتدل الطباع، يستمد إيحاءه من الكسندر جرين **Alexander Green**، أحد عظماء الحالمين بالأدب.

يقول جايدار إن أحدًا ما لم يوحِ إليه بالكتابة كما أوحى إليه ديكنز، أما أنا نفسي فأشعر دائمًا بالباعث على الكتابة بعد قراءة كتاب "خطابات من روما" تأليف ستندهال**Stendhal** ، ويُدهشني الاختلاف بين أفكاري وأسلوبي، وأفكار وأسلوب ستندهال، وذات يوم بعد أن قرأت شيئًا لستندهال، كتبت "السياج رقم ٢٧٣"، عن الاحتياطي من الغابات على طول نهر برا**Pra** ، ولم يكن بالقصة شيء يدل على ستندهال.

لم أفكر في تفسير لهذه الحالة الخاصة، ولكني أعتقد أن هناك تفسيرًا ما، ما ذكرت هذا المثال إلا لأعتذر فقط عن مناقشتي لبعض عادات كُتاب معينين في كتابتهم.

كان بوشكين، مثلًا، يُفضل الكتابة في الخريف، ولذا جاءت قصة "خريف بولدينو Boldino" نموذجًا للكتابة المثمرة الكثيرة التصانيف.

كتب بوشكين لأحد أصدقائه، قال: "ها هو ذا الخريف قادم، إنه فصلي المحبب، إذ أكون في أبهج أوقاتي وأشد رغبة لي في الكتابة."

ربما كان من الصعب تعليل أثر الخريف المحفز على الكتابة، ولا سيما أواخر الخريف، فالخريف متبلور زاخر بجمال رائع من المناظر المتلاشية، وظواهر طبيعية واضحة وعبير صاف، يُضفي الخريف قسوة على نماذج الطبيعة؛ فيصبح كل شيء بارزًا في الخريف عندما تسقط أوراق الشجر الذهبية، وتتعرى الأغصان من لباسها، تتسم مناظر الخريف بطابع الوضوح والظهور والجلاء، وتتشكل في صورة تغلب على كل شيء، وتسيطر على نفسية الكاتب ومخيلته وقلبه، فيتدفق الرشاش رطبًا رائقًا، من نافورة النثر والشعر، إذ عندما يكتب المرء يكون رأسه صافيًا، وتتذبذب ضربات قلبه، أما أصابعه فتعتريها برودة قليلة.

تنضج الأفكار في الخريف، وكما كتب باجريتسكي: "ويكون المحصول الثمين ناضجًا، فتجمع أفكارك في هيئة حبوب، وبعد ذلك يكون مصير الرجال."

وكما يقول بوشكين نفسه، إنه يحس بالشباب يدب في جسمه في كل خريف. إن الخريف يُعيد إليه شبابه، ومن الجلي أن جوته Goethe كان على حق عندما قال إن الذكاء ليتبارك بأكثر من شاب .

كان الوقت خريفًا عندما كتب بوشكين شعرًا رائع الجمال عن قوة الابتكار في الكتابة :

"وأنسى الدنيا، وفي السكون العميق

أسرح في النوم الحلو بدافع مخيلتي.

ويستيقظ الشعر الآن في ذهني:

وتتفتح نفسي بنفحة غنائية،

فأسمع صوتها المتهدج، وهي تناضل كالنائمة

لتزود نفسها أخيرًا بالتعبير الكامل الطليق-

ثم تأتيني ضيوف أطيافي تنساب في تيار،

إنها أصدقاء قديمة، وأطفال أحلامي.

وتحتل عقلي أفكار الشجاعة إذ أثيرت،

فتسرع نحوها القوافي البسيطة،

وتبحث أصابعي عن قلم، ويجري القلم فوق القرطاس،

وما هي إلا دقيقة، حتى تتدفق الأشعار بغير عائق"...

***ملاحظة أن بوشكين لم يتوقف قط ليهذب سطرًا وجد فيه صعوبة، بل كان يستمر في الكتابة، ثم ينتظر لحظات الإيحاء ليعود إلى عباراته التي لم يتمها من قبل.

شاهدت أركادي جايدار وهو يكتب، فوجدت ما أدهشني، إذ أن عاداته تختلف تمامًا عن عادات أي كاتب آخر أعرفه.

كنا نقيم في قرية بغابات ميشكوراMeshchora ، يسكن جايدار كوخًا واسعًا يطلُّ على شارع القرية، أما أنا فأقيم في مكان كان فيما سبق حمامًا بالحديقة الخلفية لنفس منزل جايدار، كان جايدار يكتب قصة "مصير طبال"، واتفقنا على أن نشتغل في الصباح حتى الظهر دون راحة، على ألا يزعج أحدنا الآخر بأية حال من الأحوال.

بَيد أنه في الصباح عندما جلست لأشتغل أمام نافذة مفتوحة، ولم أكن قد كتبت أكثر من ربع صفحة، حتى ظهر أركادي يسير بجانب شباكي؛ فتظاهرت بعدم رؤيتي له؛ سار في طريقه يُتمتم شيئًا في سره، ثم عاد بسرعة مارًا أمام نافذتي، ولكنه يصفر في هذه المرة، ويتعمد السعال لكي أعرف أنه يريد جذب انتباهي، فجلست ساكنًا، فمر بنافذتي للمرة الثالثة ونظر إليَّ بغيظ، ولكني لم أنبس ببنت شفة.

لم يطق صبرًا بعد ذلك، فقال: "أصغ إليّ، ولا تتظاهر بالغباء، لو كنت أكتب بالسرعة التي تكتب بها أنت، ولا أضيع دقيقة من وقتي لأصدقائي، لبلغت مؤلفاتي الكاملة مائة وثمانية عشر مجلدًا على الأقل."

ومن الجَلِيُّ أنه كان مغرمًا بذلك العدد.

كرر قوله: "لا أقل من مائة وثمانية عشر مجلدًا"

قلت: "حسنًا، ماذا تريد؟"

قال: "أريدك أن تُصغي إلى جملة رائعة جالت برأسي."

"أسمعنيها، إذن!"

"حسنًا اسمعها، قال المسافرون: "لقد قاسى، حقًا، لقد قاسى ذلك الرجل العجوز... أهي جميلة؟."

"كيف أعرف؟ إن ذلك ليتوقف على موضعها وعلى موضوعها".

فحاكى صوتي قائلًا: "على موضوعها، إن موضوعها هو ما يجب أن تشير إليه، وموضعها هو ما يجب أن تقع فيه، لعنة الله عليك– استمر في تنقيح كتابتك، بينما أكتب أنا هذه العبارة."

ولكنه لم يغب طويلًا، بل عاد بعد عشرين دقيقة يسير جيئة وذهابًا خارج شباكي.

قلت: "هل فكرت في عبارة جميلة أخرى؟"

قالت: "كنت أرتاب في أنك نذل قذر، أما الآن فقد تحققت من ذلك".

قلت: "حسنًا جدًا، أريد أن تكف عن إزعاجي."

قال: "نعم، إنك مشغول جدًا، هذا ما يبدو عليك!" ثم عاد أدراجه.

عاد من جديد بعد خمس دقائق، يقول لي عبارة من بُعد بصوت مرتفع...، لم يكن مسمعها رديئًا، فلما أخبرته بذلك تغير مسلكه تغيرًا كُليًا، فقال:

"الآن، أنت تتحدث، لن أزعجك بعد ذلك! سأكتب دون الاستعانة برأيك الثمين."

وعلى حين غرة أخذ يتكلم بلغة فرنسية ركيكة، كان يدرسها بحماس شديد في ذلك الوقت.

فقال بصوت مرتفع: "وداعًا، أيها السيد الكاتب الروسي السوفيتي"!

رجع إلى الحديقة عدة مرات بعد ذلك، ولكنه لم يقترب من نافذتي إطلاقًا، بل كان يسير في أحد الممرات ويتحدث إلى نفسه.

هذه كانت طريقته في الكتابة، كان يفكر في أجزاء من قصته وهو سائر، ثم يُهرع إلى المنزل ليكتبها،وهكذا كان وقته مقسمًا بين السير في الحديقة والكتابة في المنزل، وهنا الصعوبة في أننا نتصور كيف كان جايدار يتم قصته، ولكنه كان يُتمها رغم ذلك، والحقيقة أنه أتم قصة "مصير طبال" بسرعة، ثم جاء بروح مرحة ليخبرني بذلك.

قال: "أتحب أن أقرأ لك القصة؟"

وبالطبع لم أرغب في شيء أفضل من هذا.

قال: "حسنًا، إذن... استعد للإصغاء"، ثم وضع يديه في جيبيه، ووقف في وسط الحجرة.

قلت: "ولكن، أين النسخة؟"

قال في إيجاز: "لا يحتاج إلى قراءة القصة من النسخة المكتوبة إلا كتّاب الدرجة الرابعة، ما حاجتي بالنسخة؟ إنها موضوعة على مكتبي، هل أبدأ؟"

أخذ يتلو الرواية التي كتبها عن ظهر قلب من ألفها إلى يائها.

قلت: "ولكني لا أعتمد تلاوتك لها؛ فأنا على يقين من أنك نسيت شيئًا من هنا أو من هناك."

قال: "أراهن على أنني لم أفعل، لا نسمح بأكثر من عشرة أخطاء في القصة كلها. وإذا خسرت الرهان؛ فلتذهب غدًا إلى ريازان، وتشترِ مقياس الضغط الجوي (بارومتر) الذي رأينا السيدة العجوز تبيعه في السوق. تذكرها جيدًا كانت تضع مظلة مصباح (أباجورة) على رأسها عندما بدأت السماء تمطر، والآن سأذهب لإحضار النسخة."

لما تلا القصة للمرة الثانية، كان بصري على النسخة كلمة كلمة، وإذا أردت الحق، إنه لم يُخطئ إلا في بضعة أشياء تافهة، ظللنا عدة أيام نتجادل عمن كسب الرهان، وأخيرًا انتهى الأمر بأن اشتريت له مقياس الضغط الجوي، فسرَّه هذا سرورًا عظيمًا، كان المقياس ضخمًا مصنوعًا من النحاس الأصفر، وكنا نظن أنه سيكون أكبر عون لنا عندما نخرج لصيد السمك، بَيد أنه خيب أملنا

فيه منذ أول مرة؛ إذ دل على "جو لطيف"،بينما أمطرت الدنيا ثلاثة أيام متتالية، فغرقنا في المطر أيما غرق.

يلذ لي أن أستعيد في ذاكرتي تلك الأوقات السعيدة التي قضيناها معًا، نمزح ونُنَكت، ونتناقش في الأدب، ونذهب في رحلات لصيد الأسماك! وبطريقة ما، كانت هذه باعثة على الكتابة.

حدث أن كنت مع قسطنطين فيدين Konstantin Fedin وقت أن بدأ يكتب روايته التي عنوانها "ليس بصيف عادي"، وأرجو أن يسامحني قسطنطين فيدين على حريتي في وصه وهو يكتب تلك الرواية، فإن وصف طريقة الكاتب في كتابته، ولا سيما إذا كان أستاذًا في النثر مثل:فيدين، ذات متعة وفائدة للكُتاب ولمحبي الأدب.

أقمنا في جاجري Gagri بالقوقاز، بمنزل صغير على حافة البحر، من المنازل التي كانت تؤجر فيها الحجرات المفروشة الرخيصة في عهد ما قبل الثورة، وكان عتيقًا آيلًا إلى السقوط، فإذا هبَّت زوبعة وتلاطمت الأمواج بشدة على الشاطئ؛ اهتز البيت وطقطق في مهب الريح، وكنا نتوقع سقوطه في أية لحظة أمام أعيننا، وفي بعض الأحيان كانت الأبواب تصطفق بعنف لدرجة أن الجبس كان يسقط من السقوف.

كانت جميع الكلاب الضالة، في المنطقة المحيطة بالمنزل كلها، تلجأ إلى شرفته في الليالي العاصفة، فتختبئ تحتها أو فوقها، وأحيانًا كانت تدخل المنزل إذا لم تجد به أحدًا، فإذا عُدنا وجدناها نائمة في أسرَّتنا تملأ الجو شخيرًا.

لهذا السبب كنا نلتزم الحذر عند دخولنا المنزل، ونستعد لهجوم أي كلب قد يكون متوحشًا، أما الكلب الجبان فيختلف عن هذا تمام الاختلاف، إذ

يندفع هاربًا من السرير وهو ينبح عاليًا مذعورًا، وأحيانًا يدفعه الخوف إلى أن يعض أرجلنا في أثناء خروجه، بَيد أن الكلب الوقح الجريء الذي اعتاد الحياة العادية، ما كان ليتحرك بل ينظر إلينا والشرر يتطاير من عينيه، ثم يهر بغضب، فلا يسعنا إلا أن نستعين عليه بالجيران.

كان شباك حجرة فيدين يُطل على الشرفة المواجهة للبحر، وفي الجو العاصف تُكوم الكراسي الخيزرانية فوق بعضها لحمايتها من رشاش الماء، فيجلس فوقها قطيع من الكلاب ينظر إلى فيدين وهو جالس إلى مكتبة يشتغل، وكانت الكلاب تهر بشدة طالبة السماح لها بالدخول إلى الحجرة الدافئة المليئة بالضوء.

كان فيدين يشكو في بادئ الأمر من أنه يرتعد ذعرًا لرؤية تلك الوحوش تحملق فيه، حقًا ما كان أفظع أن ترفع رأسك وأنت تكتب، فإذا بعينيك تلتقيان بعشرين عين كلب تتقد حنقًا وبُغضًا! لقد سببتْ القلق لفيدين، وجعلته يشعر بأنه يقترف جُرمًا إذ يجلس في حجرة دافئة مريحة يشتغل بعمل بسيط لا يعدو مجرد مرور القلم فوق الورق، بينما تقاسي تلك المخلوقات البرد والزمهرير خارج تلك الحجرة، غير أنه لم يمض وقت طويل حتى اعتاد رؤية الكلاب.

يشتغل معظم الكُتاب في الصباح، وبعضهم يكتب في أثناء النهار، وقليل جدًا هم الذين يعملون ليلًا.

لفيدين مقدرة عجيبة على العمل طول النهار، ومعظم ساعات الليل إذا أراد ذلك، فيقول: إن صخب البحر يساعده على الكتابة بالليل، أما السكون فيقلقه لدرجة تمنعه من تركيز ذهنه في الموضوع.

أيقظني ذات ليلة من نومي، وهو يقول: "إن البحر هادئ، هلم بنا نخرج إلى الشرفة".

وفعلًا كان السكون شاملًا أثناء الليل؛ فأنصتنا عسى أن نسمع ولو صوت رشاش الماء، ولكننا لم نسمع شيئًا سوى رنين آذاننا وصوت تدفق الدم داخل عروقنا، وإذا تطلعنا إلى السماء؛رأينا لألاء النجوم ينفذ من ديجور الظلام الحالك، لقد اعتدنا صخب البحر حتى غدا الهدوء صعب الاحتمال فلم يستطع فيدين أن يكتب في هذه الليلة.

لم يكن فيدين يكتب روايته العظيمة في هذه البيئة العادية، كان هناك شيء ما يشيع في ذلك الجو،كنا في الحقيقة نسود قصصنا ورواياتنا ولا نعطيها الصورة الأخيرة– كان ذلك الجو يعيد إلينا ذكريات شبابنا وينشطنا على الكتابة، تلك كانت الأيام التي تُغني فيها قاعدة الشباك عن المكتب، وكنا نكتفي من الضوء بفتيل صغير يطفو على سطح الزيت في كوب أو إناء أشبه بالقنديل، وكان البرد قارسًا في حجراتنا الخالية من وسائل التدفئة، حتى إن المداد كان يتجمد في المحابر.

علمت من ملاحظتي قسطنطين فيدين وهو يكتب أنه لا يمسك القلم ويكتب إلا إذا تكونت لديه صورة واضحة لما يريد كتابته.

وما كان ليبدأ بابًا جديدًا قبل أن تأخذ سلسلة حوادثه وأفكاره وتقدم أشخاصه، شكلها النهائي في ذهنه، ويعرف ترتيب كل شيء في موضعه الصحيح بالرواية، كان يُمقت أي تفكك في خطة الرواية، وأي ضعف أو غموض أو تحديد مبهم للشخصيات، فيقول: إن النثر يجب أن يتسربل في ثوب جرانيتي من التوافق والتناسق.

ينبغي ألا يغيب عن بالنا أن فلوبرت **Flaubert** قضى كل حياته يبحث

بجد لكي يصل إلى كمال الأسلوب، وربما يكون قطع شوطًا بعيدًا في غرامه بسلاسة اللغة، كان يكتب وينقح ويهذب باستمرار؛حتى أصبح هذا الأمر أشبه بمرض عنده، وفي بعض الأحيان يفقد الثقة في حكمه على كتابته فيصبح شاكًا فيما كتبه، وينتهي الأمر بأن يفسد رونق كتابة الجميلة.

استطاع فيدين أن يضرب الرقم الذهبي في كتابته، فملكته في فن النقد حية دائمة النشاط، بَيد أن النقد لا يمكن، بحالٍ ما، أن يسيطر على الكاتب.

نعود إلى فلوبرت– كان ذا مقدرة عظيمة على أن يضع نفسه (لحمًا ودمًا) في شخصية أشخاص روايته، يحيا حياتهم ويقاسي آلامهم .

فعندما كان يكتب المنظر الذي شربت فيه إما بوفاري **Emma Bovry** السم، أخذ يتمرن على أعراض التسمم لدرجة أنه احتاج إلى طبيب ليشرب على صحته.

كثيرًا ما أنب فلوبرت نفسه على بطئه في الكتابة، كان يعيش ببلدة كرواسيت **Croisset** على شاطئ نهر السين بقرب روين، تُطل نوافذ حجرة مكتبه الزاخرة بالتحف على النهر، ويُضيء مصباح ذو مظلة خضراء حجرة المكتب الليل بطوله، لا يطُفأ إلا في الصباح، ويقال: إن نوافذ بيت فلوبرت، وبخاصة في الليالي الداجية، كانت هاديًا للصيادين في نهر السين، وحتى لربابنة السفن القادمة من هافر في طريقها إلى روين، ويتحدث أولئك الربابنة بأنهم يسترشدون بنوافذ "المسيو فلوبرت" عند إبحارهم في النهر بتلك المنطقة.

بين آونة وأخرى، كان ربابنة السفن يرون رجلًا ممتلئ الجسم، يلبس (روبًا) شرقيًا ذا ألوان زاهية، يقف في أحد الشبابيك، وجبهته ملتصقة بالزجاج، ينظر إلى نهر السين، ويبدو من ملامحه أن التعب قد أخذ منه كل مأخذ، ولكنهما ما

كانوا ليعلموا أن ذلك الواقف أمام النافذة، ما هو إلا واحد من أعاظم كُتاب فرنسا، قد برح به نضاله المستمر الذي لا يعرف الكلل ولا الملل، من أجل النثر الكامل، تلك المادة السلسة اللعينة التي لا تتشكل بالصورة المطلوبة.

يَعتبر بالزاك Balzac أشخاص رواياته وقصصه أحياء كأي أُناس آخرين بينه و بينهم صداقة متينة في الحياة اليومية، فإذا اعتقد أنهم تصرفوا بغباء؛استشاط غضبًا، ووصفهم بأنهم حمقى أنذال، وأحيانًا أخرى، كان يقهقه ويربت على أكتافهم باستحسان، أو يعزيهم في أحزانهم.

كان اعتقاد بالزاك في حياة أشخاصه، وفي كونهم من دم ولحم، وفي صحة ما يكتبه عنهم من أمور لا تقبل الجدل، نوعًا من الخيال، وهذه هي القصة أم هل هي أسطورة؟، وكيف ساق راهبة صغيرة بريئة إلى حياة الخطيئة لمجرد أنه تعرف عليها صدفة مع شخص آخر في كتاباته؟والراهبة الشابة التي يصفها بالزاك في قصته، أرسلتها أمها العظمى إلى باريس في مهمةٍ ما، فأغرتها الحياة المترفة التي شاهدتها هناك؛ فظلت ساعات تنظر إلى المعروضات الرائعة في معارض الحوانيت، ورأت السيدات الفاتنات المعطرات يرتدين الثياب الفاخرة تبدي مفاتن ظهورهن الرقيقة، وسيقانهن الطويلة، وأثدائهن المدببة الدقيقة، حتى خُيل إليها أن أولئك الحسان يمشين عاريات أمام عينيها.

امتلأ الجو أمام ناظريها بكل ما يخدر الأعصاب ويوحي إليها بالحب، فتلميحات حلوة وهمسات الشبان الطائشين، وكانت هي نفسها على قدر عظيم من الفتنة والإغراء، يتبعها الرجال في الطرقات يتغنون بجمالها ويتغزلون فيها، كانت تسمع دائمًا نفس عبارات العشق والهُيام؛ فيخفق لها قلبها، لقد طار صوابها عندما اغتُصبت منها أول قبلة تحت ظل شجرة في إحدى الحدائق، فألقت بعفافها في مهب الريح، مكثت في باريس، وأنفقت ما بعهدتها من نقود

لتجعل من نفسها فتاة باريسية مغرية، ولم يمض شهر حتى انخرطت في سلك بنات الهوى .

ذكر بالزاك في قصته اسم ديركان موجودًا فعلًا في ذلك الوقت، وتصادف أن وقع الكتاب المحتوي على هذه القصة في يد الأم العظمى للدير، والمناسبة الغريبة أنه كان بذلك الدير راهبة حسناء تنطبق عليها جميع أوصاف بطلة بالزاك، حتى الاسم أيضًا.

استدعت الأم العظمى الراهبة، وصاحت فيها قائلة: "أتعرفين ماذا كتب عنك المسيو بالزاك؟ لقد لوث اسمك، وسوأ سمعة ديرنا، لقد قذف المحصنات، وكفر بالتقوى وبالدين، اقرئي هذا."

قرأت الفتاة القصة، فانخرطت في البكاء.

قالت الأم العظمى: "يجب أن تنطلقي من فورك إلى باريس وتبحثي عن المسيو بلزاك، وتطلبي إليه أن يبرئ اسمك أمام فرنسا كلها، فإن لم تستطيعي حثه على فعل ذلك، فلا تسودي أبوابنا بعد الآن."

ذهبت الراهبة إلى باريس، وبعد مشقة بالغة أمكن السماح لها بمقابلة بالزاك.

كان بالزاك جالسًا في حجرة مملوءة بدخان التبغ تعج منضدته بأكوام غير منتظمة من الأوراق التي كُتبت على عجل، كان مقطب الأسارير، إذ يكره أن يزعجه أحد في أثناء عمله. خفضت الفتاة عينيها أمام نظرته النفاذة، واحمر لونها خجلًا، وابتهلت إلى الله أن يهبها القوة، ثم أخبرت ذلك الكاتب، بما تريده منه، توسلت إليه أن يزيل الوصمة التي لطخ بها عفافها وصلاحها بدون داعٍ.

ارتبك بالزاك، لم يفهم ما تطلبه منه هذه الراهبة الصغيرة الجميلة الخجولة وقال:

"لم أصمك بشيء، كل ما أكتبه هو الحقيقة المقدسة ."

"رُحماك بي يا مسيو بالزاك! إذا لم تساعدني فلن أعرف ماذا أفعل!"

صاح بالزاك وهو يهب واقفًا: "ماذا تقصدين، بأنك لن تعرفي ماذا تفعلين! تفعلين مثل ما كتبت في قصتي تمامًا، ليس أمامك غير هذا ."

قالت وهي لا تكاد تصدق أذنيها: "أتعني أنني أمكث في باريس؟"

فصاح يقول: "نعم! نعم، وإلى الشيطان!"

"وتريدني أن أصير"!...

"لا، وإلى الشيطان! أريد منك فقط أن تطرحي عنك هذا الثوب الأسود القبيح، وتجعلي جسمك الغض الجميل يعرف معنى البهجة والحب، أريدك أن تتعلمي الضحك والمرح، انصرفي! انصرفي! ولكن ليس إلى الطرقات"!

لم يكن في مقدور الراهبة أن ترجع إلى الدير إذ رفض بالزاك تبرئتها وتطهير اسمها؛ فبقيت في باريس. وبعد سنة كان الناس يرونها في حانة للطلبة وسط حشد من الشبان، فرحة سعيدة فاتنة.

تتنوع الكتابة عن العادات كما يتنوع الكتاب أنفسهم.

قرأت كثيرًا من الخطابات في المنزل الخشبي القريب من ريازان، من بين الخطابات العديدة التي أرسلها أيوردان Iordan للنحات الشهير بوزهالوستين Pozhalostin، كما سبق أن ذكرت، كتب أيوردان في أحدها يقول:إنه قضى سنتين ينحت نموذجًا من لوحة لصورة إيطالية، وبينما هو يشتغل فيها أحدث حُفرًا في أرض حجرة مكتبه المصنوعة من الآجر؛نتيجة لعادة تكونت لديه بأن يدور حول لوحة النحت وهو يشتغل.

كتب أيوردان يقول: "أغدو مُتعبًا، ولكني أستمر في السير وفي الحركة، والآن فكر في التعب الذي يُصيب نيقولا فاسيليفتش جوجول؛بسبب تعوده الكتابة وهو واقف أمام مكتبه، ما هذا إلا شهيد حقيقي للأدب"!

من عادات ليف تولستوي أن يكتب في الصباح فقط، ويقول إن هناك ناقدًا يسكن في كل كاتب، وينشط ذلك الناقد في الصباح، وينام في المساء، وعندئذ لا يكون أمام الكاتب إلا أن يحكم على ما يكتبه بنفسه، فتكون النتيجة أنه يكتب كثيرًا من الأشياء الضعيفة السطحية، واستشهد تولستوي على قوله، بأن جان جاك روسو وتشارلز ديكنز كانا يكتبان في الصباح، بينما تعود دوستويفسكي **Dostoyevsky** وبايرون **Byron** الكتابة ليلًا، وبذلك أخطئا في حق موهبتهما.

لم تؤثر كتابة دوستويفسكي في الليل وشربه الشاي باستمرار كثيرًا في نوع كتابته بقدر تأثير فقره وكونه مدينًا على الدوام، اللذين اضطراه إلى الاندفاع في الكتابة والانتهاء منها بسرعة.

لم يسمح لقصصه بالوقت الكافي من التفكير واستخدام مواهبه على خير ما يكون؛وهذا هو السبب في أن كثيرًا من رواياته يفتقر إلى تفاصيل السرد التي يجب أن يستند إليها في كتابته، وبذا تخرج الرواية ناقصة التفاصيل غير كاملة الخطة التي رسمها لها، ويقول دوستويفسكي: "إن متعة الروايات في التفكير لتزيد على متعتها في الكتابة."

لقد حاول كثيرًا إطالة المدة التي تكون فيها الرواية شكلها في ذهنه، فيظل يُغير ويُنقِّح في القصة قبل كتابتها، كما يظل يؤجل وقت كتابتها، فكل يوم وكل ساعة يأتي بأفكار جديدة، كان يخشى إذا بدأ الكتابة أن تصبح عديمة القيمة عند وضعها في الرواية.

وهذا هو ما كان سيحدث بالضبط، فلما كان مُثقلًا دائمًا بالديون، يضطر إلى البدء في الكتابة قبل أن يكون بالفعل مستعدًا لها، فكثيرًا ما تأتي إلى ذهنه أفكار وصور وتفاصيل جديدة، ولكنها تكون وقتئذ عديمة النفع، إذ يكون قد انتهى من كتابة قصته، أو كما يقول هو: "تكون قد فسدت بطريقة لا يجدي معها إصلاح."

قال دوستويفسكي: "يضطرني الفقر إلى الإسراع بكتابة شيء أعيش منه، يكون ذا تأثير سيء على مؤلفاتي".

لم يكن شيلر **Schiller** ليكتب إلا بعد أن يشرب نصف زجاجة من الشمبانيا ويضع قدميه في طست من الماء البارد.

وكان شيكوف **Chekov** في شبابه يكتب على حافة النافذة، في شقة صاخبة مزدحمة بالسكان في موسكو، وقد كتب قصة "الصياد" في الحمام، بَيد أنه بتقدم الزمن فقد قدرته على الكتابة بسهولة.

وكان ليرمونتوف **Lermontov** يكتب أشعاره على أي شيء يقع في يده، وليس من الضروري أن يكون ورقًا، والحقيقة أن أشعاره تدل بوضوح على أنه نظمها بإيحاء وقتي، تغنت روحه بها أولًا، ثم أسرع بكتابتها دون صقل ولا تهذيب.

أما ألكساي تولستوي فلم يكن يجلس للكتابة إلا بعد أن يكون على مكتبه رزمة من الورق الجيد، وعادةً يبدأ الكتابة وليس بذهنه سوى قدر يسير من التفاصيل، بَيد أن هذه التفاصيل البسيطة تجعله يستمر في كتابة قافلة من الحوادث، كأنما هو يحل كرة سحرية من الخيوط لا تنتهي.

كانت له، كما سبق أن ذكرت، قدرةٌ عظيمة على الارتجال تسبق أفكاره

ألفاظه وتتدفق بسرعة على قدر ما يسمح له الوقت بتتبعها، وإذا وجد أن عليه أن يُكره نفسه على الكتابة؛ توقف عن الكتابة في الحال.

يعرف جميع الكُتاب لذة نشأة فكرة أو صورة جديدة من أعماق الوعي، ثم وميضها في الذهن، فإذا لم تُدون هذه على الورق في الحال؛ اختفت دون أن تترك وراءها أي أثر.

للأفكار والصور العقلية ضوء وحركة، ولكنها خدّاعة كالأحلام، فلا يتذكر المرء مادة الحلم بعد أن يصحو من النوم إلا لجزء من الثانية، وبعدها مهما حاول الإنسان واعتصر ذهنه في أن يتذكر الحلم؛ فلن تُجدي محاولته، وكل ما يتبقى في مخيلته هو إحساس برؤية شيء غير عادي وغريب ومبهج.

وعلى ذلك ينبغي للكاتب أن يتعوّد تدوين أفكاره أولًا بأول؛ لأن أقل إرجاء فيه صياغها إلى ما شاء الله.

لم يكتب الشاعر الفرنسي بيرانجيه **Béranger** أغانيه إلا في المقاهي الرخيصة، كما كان الكاتب إيليا إيهرنبرج**Ilya Ehrenburg** ، تبعًا لما وصل إلى علمي، يجد جو المقاهي ملائمًا للكتابة، فربما لا توجد عزلة أفضل من العزلة وسط حشد صاخب، على شرط ألا يكون هناك ما يقلق الراحة.

كان هانز كريستيان ديكنز يُحب أن يفكر في حكاياته الخرافية وسط الغابات، كان ثاقب البصر يرى كل انحناء وكل شق في قطعة صغيرة من اللحاء أو على مُطر صنوبر قديم، كما لو كان يراه بعدسة مكبرة، ومن مثل هذه الأشياء الدقيقة كان يسهل عليه أن ينسج خيوط حكاية من حكاياته الرائعة الشهيرة.

كان يكفي ذلك الكاتب أن يرى بقية جذع شجرة يكسوها الطحلب، أو نملة صغيرة تحمل فوق ظهرها ذبابة ذات أجنحة شفافة خضراء كأنها لص شجاع

يخطف أميرة حسناء، فتحفزه على الكتابة في سيل من الأفكار المبتكرة.

ليس لدي الكثير لأصف به عاداتي وطرقي في الكتابة، غير أنني أكره عندما أجلس لأكتب أن يشغل بالي شيء ما: كالحفلات والاجتماعات العامة مثلًا، وبهذه المناسبة أذكر أن كثيرًا من وقت كتابنا يضيع في المقابلات والأعمال العامة، ولا أقول إن هذه الأعمال غير هامة أو غير ضرورية، ولكننا إذا كلفنا الكاتب بمثل هذه المهام، فقد أضعنا وقتًا ثمينًا كان يمكن الإفادة منه في شيء أثمن في التعبير عن مواهبه، وقصارى القول: إن الأدب هو العمل الرئيسي للكاتب.

والأسوأ من هذا إذا كان هناك ما يشغل بال الكاتب، وفي هذه الحال أرى من الأفضل ألا تمسك بالقلم البتة، بل تنتظر حتى يخلو بالك من جميع المشاغل، وقد وجدت أنا نفسي من تجاربي الشخصية، أن خير ما أكتب هو عندما يكون بالي هانئًا، وحينئذ أتفرغ للكتابة وأنكب عليها أطول وقت ممكن.

هناك فترات في حياتي أستطيع أن أسميها بحق "الظروف النموذجية للكتابة"، صادفتني إحدى هذه الفترات وأنا مسافر من باطوم إلى أوديسا، وكنت الراكب الوحيد على ظهر السفينة، كان البحر هادئًا رمادي اللون، يتمتع ماؤه ببرودة شديدة، تلف شواطئه غلالة كثيفة من السحب الدكناء كأنه في حلم ثقيل، فلما شعرت بالجو مواتيًا، طفقتُ أكتب في مقصورتي، أنهض بين الفينة والفينة، وأطل على الشواطئ من النافذة المستديرة، لم يكن هناك ما يقطع السكون المخيم على جو السفينة سوى صوت آلاتها الرتيب وصراخ طائر النورس، وهكذا كتبت ما شاء لي أن أكتب، لا يعكر صفوي معكر ولا يشغل بالي أي شاغل، كان ذهني مركزًا تمامًا فيما أكتبه، وهذه سعادة ما بعدها سعادة، كان البحر الفسيح المترامي الأرجاء أعظم ما يحميني من أي دخيل، بينما ساعدني على الاستمرار في الكتابة شعوري بالحركة، والفضاء الرحب

الطلق، والتوقف بعض الوقت في الموانئ، وانتظاري مقابلة أناس بعد فترة ما. وهكذا ظلت السفينة تمخر عباب اليم، تشقُّ طريقها في ماء الشتاء الباهت، وأنا أحس بالسعادة تدب في كل خلية من جسمي لاطمئناني إلى أني أسير في قصتي على خير ما يرام .

ومن المناسبات الأخرى التي كنت أشتغل فيها بنشاط وأنا خالي البال رضيْ النفس، والتي تدفقت فيها الكلمات من طرف قلمي في سهولة ويسر، فترة كنت أعيش في كوخ ريفي بحجرة صغيرة تحت السقف تضيئها شمعة صغيرة خافتة النور، كان ذلك في إحدى ليالي شهر سبتمبر الحالكة الدجى، والريح ساكنة، فكان الليل، كالبحر، حاميًا لي من الدخلاء، وكانت هناك حديقة فاكهة خلف المنزل، قد سقطت أوراق أشجارها الذهبية، فمال إليها قلبي كما يميل إلى إنسان مثلي، وهذا حفزني على الكتابة، بعض الشيء.

كنت أخرج في وقت متأخر من الليل وسط الظلام الدامس لأحضر بعض الماء من البئر لكي أعد الشاي، فشعرت بأن رنين الدلو في البئر، ووقع أقدامي وهي تدوس الأوراق الجافة، قد خففا عن الحديقة ألم ليل الخريف الطويل، وكانت الغابات الباردة ذات الأشجار العارية، تمتد حولنا إلى مئات من الأميال، وكنت أعلم أن هناك وسط الغابات بحيرات يعكس على مرآتها وميض النجوم كما كانت تفعل في مثل هذه الليالي الموحشة، ربما منذ ألف عام خلت.

وأفضل من كل هذا، يمكنني الكتابة بقلم سيال، عندما أتطلع إلى قرب قيامي بشيء مبهج، حتى ولو لم يكن غير رحلة صيد في أحد مجاري المياه بغابة بعيدة، في ظل أشجار الصفصاف الباكية.

* * *

جو القصة وقليل من اللمسات

كنت في أحد الأيام ببلدة مارجوري **Marjori** القريبة من مدينة ريغا **Riga**، فساقتني قدماي إلى حانة بجانب محطة السكة الحديدية، فوقع بصري على رجل هرم هزيل الجسم، كث اللحية، لم يحلقها لمدة طويلة، يلبس مدرعة (حاكتة) رثة مرقعة ترقيعاً سيئاً.

كانت عواصف الشتاء تهب مزمجرة على خليج ريغا، وتكسو حافة الماء طبقة كثيفة من الجليد، ويصل إلى سمعنا صوت الأمواج العاتية يخترق الضباب الثلجي.

يبدو أن الرجل العجوز قد دخل الحانة طلبًا للدفء، إذ لم يطلب شيئًا، وكان يجلس شارد الذهن على مقعد خشبي بأحد أركان الحانة، وقد كمش يديه في كمي مدرعته، وقبع ملتصقًا برجليه كلب صغير غزير الشعر يرتعد قرًا.

جلس جماعة من الشبان إلى مائدة قريبة من ذلك الرجل العجوز، يحتسون الجعة (البيرة)، وكان الثلج يذوب فوق حافات قبعاتهم فتسقط قطرات الماء في الأكواب وعلى شطائر المشانق المدخنة الموضوعة أمامهم، لم يلاحظ أولئك الشبان شيئًا مما يدور حولهم، إذ شغلهم الحديث في مباراة لكرة القدم عما عداه.

لم يطق الكلب صبرًا عندما أبصر أحد الشبان يضع نصف شطيرة في فمه، فاتجه نحو المائدة بخطوات وئيدة، وأقعى على رجليه الخلفيتين، ونظر في توسل إلى فم الشاب.

فقال الرجل العجوز في هدوء: "بت! ألا تخجل من نفسك؟ لِمَ تضايق السيد؟".

لم يتحرك بتي من مكانه، بل أخذت يداه ترتعشان، وجلس على بطنه المبتل، ثم نفض عنه التعب ورفع يديه من جديد، كان الشبان منهمكين في حديثهم يصبون الجعة المثلجة أقداحهم ويعبونها عبًا، فلم ينتبهوا إلى الكلب.

عجبت كيف يشرب هؤلاء الشبان الجعة باردة كالثلج هكذا في مثل ذلك الجو والثلج يكسو جميع النوافذ.

قال الرجل، ثانيةً: "بتي! تعالى إلى هنا في الحال!"

رد الكلب على أمر صاحبه بأن أخذ يبصبص بذنبه عدة مرات لكي يفهم صاحبه أنه سمعه ولكن ليس في وسعه الإذعان، ثم تحاشى عيني صاحبه، ويبدو أنه كان يود أن يقول: "أعرف أنني أخطئ بيد أنك فقير ولا تستطيع أن تشتري لي شطيرة كهذه، أفي مكنتك شراؤها؟"

همس الرجل بصوت متهدج وقد يئس من كلبه، فقال: "آه، يا بتي! يا بتي!".

هز بتي ذيله ونظر إلى الرجل العجوز كما لو كان يتوسل إليه ألا يناديه مرة أخرى وألا يرميه بالتطفل على الأغراب إذ لا محل لهذا الآن، وقد دفعته الحاجة الملحة إلى هذا العمل، فيمد يده استجداء من الأغراب.

وأخيرًا لاحظ أحد الشبان الكلب، وكان ذلك الشاب مرتفع عظم الخدين، يلبس قبعة خضراء، فقال :

"أتستجدي أيها النذل؟ وأين صاحبك؟"

هز الكلب ذنبه في ابتهاج وألقى نظرة جانبية تجاه سيده، ونبح.

فقال الشاب: "يا لك من رجل ماهر، أيها المواطن! تقتني كلبًا ولا تطعمه بما يكفي! هذا لا يصح، انظر كيف يستجدي الأكف، مخالفًا القانون؟"

انفجر الشبان ضاحكين، وقال أحدهم:

"إنها قحة منك يا فالنتين Valentine، ورمى للكلب قطعة من المشانق".

عندئذ صاح الرجل من مكانه: "حذار أن تلمسها! إياك أن تمسها!" واحمر وجهه الذي لفحه البرد، ورقبته النحيفة المعروقة.

ابتعد الكلب دون أن يلقي ولو نظرة بسيطة إلى المشانق، وخفض ذنبه، ثم رجع إلى صاحبه.

فقال الرجل: "ولا ذرة من الفُتات منهم، أسمعت"!

وفي الحال مد يده في عصبية إلى جيوبه وأخذ يعبث فيها ثم أخرج بعض قطع من النقود الصغيرة تعلوها الأقذار وعدها، ثم أزال عنها الأوساخ بعناية بيديه المرتعشتين، وعندئذ تهكَّم الشاب ذو الوجنات البارزة ساخرًا من الرجل المسن؛ فنهره أصدقاؤه، وصبوا لأنفسهم مزيدًا من الجعة.

ذهب الرجل الهرم إلى نضد عاملة الحانة، ومد يده المملوءة بقطع النقود الصغيرة قائلًا في صوت مبحوح."

"شطيرة، من فضلكِ".

كان الكلب إلى جانبه وذيله بين رجليه.

قدمت الفتاة للرجل شطيرتين في صحفة فوق النضد.

قال: "لقد طلبت شطيرة واحدة لا اثنتين".

أجابت الفتاة بصوت رقيق: "لا بأس، خذ الاثنتين، فلن تكلفني الأخرى كثيرً".

قال: "شكرًا لك، يا حسناء."

تناول الرجل الشطيرتين من الصحفة وخرج من الحانة فوجد نفسه على رصيف المحطة ولم يكن هناك أي فرد، لقد مرت عاصفة شديدة وستتلوها أخرى آتية في الطريق، ولكنها لا تزال بعيدة عند الأفق، وكانت أشعة الشمس الباهتة تلقي ضوءً على الغابات الناصعة البياض وراء نهر ليلوبLielupe ، جلس الرجل على مقعد فوق رصيف السكة الحديدية وناول بتي إحدى الشطيرتين، ولف الأخرى في منديل متغضن، ثم وضعه بالشطيرة في جيبه.

أخذ الرجل ينظر إلى الكلب وهو يلتهم الشطيرة، ثم قال: "بتي! بتي! يا لك من مخلوق غبي!"

لم يكترث الكلب لقول سيده، واستمر يأكل بينما كان الرجل يمسح عينيه بكمه إذ كانتا تدمعان من شدة الريح.

وصفت هذا المنظر الذي رأيته في مارجوري، لا لأن فيه شيئًا هامًا؛ ولكن لأنه يركز الانتباه على التفاصيل واللمسات، فبدون هذه يضيع كل جو المنظر، فتمدنا حالة الكلب من الاستعطاف بلمسة عاطفية، وفضلًا عن هذه هناك عدة تفاصيل صغيرة لها مغزاها الخاص. كمدرعة الرجل المرقعة ترقيعًا غير سليم، توحي بأنه أعزب أو أرمل، وقطرات الماء الناشئ من الثلج والمتساقطة من قبعات الشبان، والجعة المثلجة، وحتى الريح وهبوبها من البحر إلى شوارع البلدة، فبدونها تصبح القصة تفهة عديمة الروح.

نرى القليل ثم القليل من هذه اللمسات التي تُكسب القصة روحًا رقيقة، في الكتابة الخيالية لعصرنا الحديث، ولا سيما في مؤلفات صغار الكُتاب، فبغيرها تفقد القصة سائر الجو المناسب لها وتصير ***كسفود انتزع منه اللحم الدسم، كما قال تشيكوف ذات مرة. وتبعًا لبوشكين: نحتاج إلى التفاصيل لجذب الانتباه وتركيزه على التوافه الهامة التي بغيرها تمر دون أن يلحظها القارئ.

ومن جهة أخرى، هناك بعض الكُتاب يبلغون حد التطرف في كتاباتهم، فتخرج أعمالهم مليئة بكثير من التفاصيل السطحية المملة، لا يعرف هؤلاء أنه لا حق للتفاصيل في الوجود إن لم تكن نموذجية تلقي ضوءً على شخص بعينه، أو واقعة من وقائع الرواية.

فلكي نعطي القارئ فكرة عن بدء المطر، مثلًا: نقول إن القطرات الأولى أحدثت صوتًا عند سقوطها على قطعة من ورق الجرائد ملقاة أسفل النافذة..

وقد يسير المرء على نهج ألكساي تولستوي في تصوير فاجعة الموت بروايته التي عنوانها "الفجيعة".

فهذه داشا إحدى شخصيات الرواية، متعبة مكدودة منهوكة القوى، يغلبها النعاس، وعندما تستيقظ تجد طفلها ميتًا، وقد انتصبت الشعرات القلائل في رأسه..

قالت داشا لتيليجين" :Telegin وافته منيته وأنا نائمة، تصوري أن شعر رأسه يقف من شدة الذعر! لقد قاسى هول الموت وأنا أغط في نوم عميق."!

"ولم تفلح أية محاولة في طرد الصورة التي علقت بذهنها عن ابنها وهو يصارع الموت وحده".

فلمسة بسيطة واحدة مثل "انتصبت الشعرات القلائل في رأسه" ذات تأثير فعال أكثر من عدد من التفاصيل المطولة.

لا تُذكر التفاصيل إلا إذا كانت ضرورية للرواية في مجموعها، ينبغي انتقاء التفاصيل وتحليلها بعناية قبل وضعها في قالب الرواية، وهذه عملية نعتمد فيها على إلهامنا، ذلك الإلهام الذي يساعد الكاتب على تركيب الصورة كلها من حادثة فردية، الإلهام يُعين الكاتب الروائي على خلق جو من الماضي، والحالة العقلية لأناسه، وطرق تفكيرهم، لقد ساعد بوشكين الذين لم يذهب إلى انكلترا أو إلى إسبانيا في روايته "الضيف الحجري"، فيرسم صورة لانكلترا في أحد الأعياد إبان انتشار الطاعون، لا تقل حيوية عما يكتبه كثير من مشاهير كُتاب الانكليز.

تساعد التفاصيل القيمة القارئ على تكوين صورة في ذهنه لما يريد منه الكاتب أن يرى كشخصية معينة أو حالة عاطفية أو حادثًا أو فترة تاريخية.

الليالي البيضاء

أقلعت السفينة من رصيف فوزنيزني **Voznesenye** تشق طريقها في مياه بحيرة أونيجا، فرأيت الليالي البيضاء هنا وسط غابات وبحيرات الشمال، وليس فوق قصور لننجراد، كان القمر يسطع بنوره الفضي قريبًا من الأفق الشرقي، وقد اختلط سناؤه ببياض الليل اللؤلؤي.

كانت الأمواج تداعب جوانب السفينة في هدوء، تتأرجح فوق متونها شظايا لحاء أشجار الصنوبر، وكانت أجراس الكنيسة العتيقة القائمة على الشاطئ تدق معلنة الساعة الثانية عشرة، فوصلت إلينا أصواتها من مسافة بعيدة يحملها الماء خلال الليل الفضي.

لهذه الليالي البيضاء فتنة ساحرة وبهجة خاصة تشعان من ثنايا شفقها العاجي الذي ينثر في الأفق بريقًا من الذهب والفضة مختلطين، يتحدى كل وصف ولكنه يملأ نفسي كآبة وحزنًا؛ لأنه ككل جميل، قصير الأجل.

كانت هذه أول رحلة لي إلى الشمال، غير أن كل شيء بدا مألوفًا لي، ولا سيما أكوام نُوار الكرز البري الذابلة في أواخر الربيع، بتلك الحدائق المهملة، ورغم كثرة هذه الأزهار الرطبة العطرة بمدينة فوزنيزني، فما من شخص يهتم بأن يقطف منها شيئًا ليضعه في زهرية يزين بها مائدته، وربما كان هذا لفوات موسمها فغدا لونها باهتًا .

كنت في طريقي إلى بتروزافودسك **Petrozavodsk** سنة أن فكر جوركي في نشر مجموعة من الكتب بعنوان "تاريخ المصانع والورش"، فاستخدم كثيرًا من

الكتاب في تأليفها، وقرر اشتراك الكُتاب في مجموعات أو جماعات: وهو شيء جديد تمامًا في عالم الأدب.

وقع اختياري على مصنع بتروفسكي **Petrovsky** بمدينة بتروزافودسك من بين قائمة المصانع التي اقترحها جوركي نفسهز علمت أن بيتر **Peter** بدأ بهذه المصانع للحدادة واقتصر فيها على صناعة المدافع وأدوات رسو السفن، ثم حُولت فيما بعد لصناعة النحاس، وبعد الثورة تخصصت في إنتاج وسائل النقل عبر الطرق.

رفضت الانضمام إلى جماعة من الكتاب؛لأنني كنت مقتنعًا وقتذاك كما أنا مقتنع اليوم، بأنه رغم نفع إسهام الكُتاب، من عدة وجوه في الكتابة في موضوع بعينه، فلا يجب تطبيق هذا النظام في الأدب، فخير ما تستطيعه الجماعة هو: إخراج مجموعة من القصص، ولكن ليس كتابًا كاملًا، فالعمل الأدبي، كما يتبادر إلى ذهني، يجب أن يحمل طابع شخصية الكاتب، ويعبر عن انفعالاته إلى درجة الحقيقة، ويجب أن يكون موحد الأسلوب واللغة، مثله في ذلك مثل القيثارة لا يستطيع ثلاثة من الموسيقيين أن يعزفوا عليها في آن واحد؛ ولذلك تمسكت برأيي من استحالة الإسهام في إخراج كتاب مع جماعة آخرين.

أوضحت لجوركي وجهة نظري، فهاله الأمر أولًا، وأخذ ينقر بأصابه على الخوان كعادته، وفكر قليلًا ثم قال:

"ينبغي أن تضع نصب عينيك، أيها الشاب، ألا يذيع عنك أنك ذو ثقة بالغة في نفسك أكثر من اللازم. انصرف، وابدأ في كتابك، وكل ما يهمني ألا تخيب ظني فيك".

ركبت السفينة وأنا أفكر في عبارة جوركي، فصممت على ألا يقف أي

شيء في طريق إنجاز الكتاب الذي تعهدت به، ولما كانت المناطق الشمالية محببة إلى نفسي وتجتذبني إليها، فقد أملت في أن يكون هذا عوناً على سهولة الكتابة، كان في مكنتي أن أضمن كتابي أعظم ما أعجبني من مناظر الشمال الليالي البيضاء والمياه الساكنة والغابات وأزهار الكرز البري ولهجة النوفجورود Novgorod الشبيهة بالغناء والسفن السوداء المقوسة الحيازيم بما يشبه أعناق البجع وقضبان حاملي الماء المنقوشة بأبدع الرسوم، والتي يعلقون فيها دلاء الماء.

لم تكن مدينة بتروزافودسك، ذات الصخور المكسوة بطبقة كثيفة من الطحلب، هنا وهناك في الطرقات، مزدحمة بالسكان وقت أن ذهبت إليها، وكانت البحيرات القريبة التي تتألق سطوحها بانعكاس الأشعة، والسماء اللؤلؤية المخيمة فوقها، تُضفي لألاء على المدينة فتبدو هذه مصقولة لامعة.

ما إن بلغت المدينة حتى انطلقت إلى المكتبات ودور المحفوظات أقلب في محتوياتها وأقرأ كل ما له اتصال بمصانع بتروفسكي؛ كان تاريخ تلك المصانع ممتعًا رغم غموضه، يشمل بيتر الأول، والمهندسين الاسكتلنديين وصناع المدافع الروسيين الموهوبين، وطرق صهر المعادن على طريقة حديثة خاصة، والطرق الصناعية القديمة، فتكون من هذا كله مادة عظيمة لكتابي.

بعد أن قرأت الكثير، ذهبت لقضاء بضعة أيام بقرية كيزلي Kizli القريبة من شلالات كيرفاش Kizvach حيث توجد أجمل كنيسة مشيدة من الأخشاب في العالم كله.

كان صوت سقوط مياه الشلالات يملأ الجو صخبًا وأزيزًا، ويحمل ماؤها المتألق كتل أخشاب الصنوبر في طريقه، رأيت الكنيسة في وقت الغسق والشمس تكاد تختفي وراء الأفق، فجال بفكري أن صنع مثل هذه التحفة

الفنية الدقيقة الرائعة لابد أن يستغرق عدة قرون، ولا يمكن أن نقوم به غير أيدي الصياغ الماهرين، بَيد أني علمت أن النجارين البسطاء هم الذين قاموا ببنائها، وفي الوقت المعتاد اللازم لإقامة مثل ذلك البناء.

شاهدت في أثناء تجوالي بتلك المنطقة الشمالية عددًا لا يحصى من البحيرات والغابات، وأشعة الشمس الرطبة في وقت الغروب والمراعي الشديدة البرودة، غير أنني لم أرَ فيها من الناس غير القليل.

وضعت تصميم كتابي المستقبل في مدينة بتروزافودسك وقد تضمن كثيرًا من التاريخ والوصف، والنزر اليسير من الأشخاص.

قررت كتابة ذلك المؤلف في مدينة بتروزافودسك، فاستأجرت حجرة بمنزلة ناظرة مدرسة سابقة، وكانت سيدة فاضلة متقدمة في السن تدعى سيرافيما إيفانوفنا Serafima Ivanovna ، لا تحمل من سمات ناظرات المدارس غير منظار تضعه على عينيها وبضعة ألفاظ من اللغة الفرنسية.

وضعت التصميم أمامي وبدأت أكتب، ولكن سرعان ما وجدت عدم تماسك مادة الكتاب بعضها ببعض، فلم يكن هناك أي اتصال بين الحقائق التي جمعتها من الملفات، لم يكن بينها ما ينفث فيها الحياة، ليس بينها ما يضفي عليها صبغة الحياة في تلك المنطقة ولا روح أية شخصية حية.

أخذت أكتب عن الآلات والإنتاج ورؤساء العمال، وغير ذلك، ولكن بصورة تتسم بالكآبة العميقة، إذ كانت تفتقر القصة إلى شيء في غاية الأهمية، شيء أستطيع أن أضع قلبي فيه لمسة بشرية، تحقق لي أنه بدونها لا يمكن أن يكون هناك كتاب البتة.

وأذكر بهذه المناسبة أنه يجب أن تكتب عن الآلات بنفس الطريقة التي

تكتب بها عن الأشخاص، تشعر بضربات نبضها، وتحبها، وتتعمق في حياتها. وإنني لأحس دائمًا بألم جسدي عندما يساء استخدام آلة ما. فمثلًا: عندما تجاهد إحدى الجرارات وهي تصعد تلا شديد الانحدار أشعر بتعب لا يقل عن تعب السيارة نفسها، يجب أن يتناول الكُتاب وصف الآلات بالطريقة التي يصفون بها أناسًا حقيقيين، وقد أدركت من تجاربي وخبرتي أن هذه خير وسيلة للكتابة.

إن عجز الكاتب عن تشكيل مادة كتابته لأكبر مثبط لعزيمته.

انتابني إحساس كإحساس من يعمل شيئًا خارجًا عن اختصاصه: كأن أرقص في باليه أو أضع مؤلفًا في فلسفة كانتKant ، فعادت إلى ذهني كلمة جوركي: "لا تخيب ظني فيك". فاكتأبت أيما اكتئاب، ليس لهذه العبارة وحدها وإنما لأن إحدى الحكم التي وضعتها أنا نفسي قد انهارت من أساسها، إذ كنت أقول دائمًا: "يجب أن يكون في مكنة الكاتب الجدير باسمه أن يؤلف قصة من أية مادة لديه "أيًا كان نوعها."

قررت في حالتي النفسية هذه أن أتخلى عن عمل ذلك الكتاب وأغادر بتروزافودسك.

لم أجد شخصًا أُسِر إليه بفشلي ويأسي غير سيرافيما إيفانوفنا، وكنت على وشك الإفضاء إليها بمتاعبي، فإذا بي أستشف من ملامحها أنها قد أدركت حالتي بقريحتها كناظرة سابقة لمدرسة، إذ قالت:

"إنك تذكرني ببعض تلميذاتي الغبيات اللواتي كن ييأس ويفقدن كل أمل في النجاح قبيل الامتحان، كن يحشون أذهانهن بالكثير من المعلومات حتى لا يستطعن التفرقة بين الهام منها والتافه، ما حالتك هذه إلا نتيجة للإعياء، ولو

أنني لا أفهم شيئًا في مهنة الكُتاب، إلا أنني أعلم أنه لا يجب أن يفرضوا على أنفسهم الكتابة بالإكراه لا ترحل عن المدينة، واسترح بعض الوقت حتى تشعر بأنك تميل إلى الكتابة، اذهب إلى شاطئ البحيرة، وتنزه حول المدينة، ستجد مناظرها ممتعة، وربما يكون هذا شافيًا لحالتك."

لم يثنني كل هذا عن عزمي على مغادرة المدينة، ومع ذلك فلم يكن هناك ما يمنعني من التجوال حول المدينة التي لم تتح لي، حتى ذلك الوقت، فرصة التعرف على معالمها.

أخذت أسير نحو الشمال بحذاء شاطئ البحيرة حتى وصلت إلى الضواحي حيث تمتد الحدائق الخضراء الناضرة إلى مسافات بعيدة، يتخللها من آن إلى آخر بعضًا لصلبان ونصب المقابر، ولما حرت في تفسير ذلك، سألت رجلًا عجوزًا كان يقتلع الأعشاب الضارة من حقل جزر، عما إذا كانت هذه بقية مقبرة قديمة.

قال: "نعم، كانت هنا فيما مضى مقبرة للأغراب، بَيد أنها تُستعمل الآن لزراعة الخضروات، ولن تعمر هذه النصب القلائل حتى الربيع القادم.

لم يكن هناك أكثر من خمسة أو ستة، أحدها حول سياج من الحديد بديع الصنعة لفت نظري، فلما اقتربت منه ألفيت نصبًا باليًا من حجر الجرانيت، مكتوبًا عليه عبارة بالفرنسية تكاد تخفيها الأعشاب النامية حول النصب؛ فاقتلعت بعضها حتى بانت الكتابة، فإذا بها: "هنا يرقد شارل إيجن لونجسيفيل Charles Eugéne Longceville مهندس المدفعية بجيش الإمبراطور نابليون العظيم. ولد في سنة ١٧٧٨ في بيرينيانPerignan ، وتوفي في صيف عام ١٨١٦ بمدينة بتروزافودسك بعيدًا عن وطنه، فليرقد في راحة واطمئنان."

أدركت أن هنا رجلًا ذا تاريخ يتعلق بمشروعي، وسيكون فيه إنقاذي.

عند عودتي إلى حجرتي أخبرت سيرافيما إيفانوفننا بأنني قد غيرت فكري في مغادرة بتروزافودسك، وذهبت في الحال إلى دار المحفوظات حيث التقيت بأمينها، وكان مدرسًا سابقًا للرياضيات، هو رجل نحيل الجسم في سن الشيخوخة يلبس منظارًا يبدو شفافًا، ولم تكن الملفات والسجلات قد تم ترتيبها في مواضعها، ولكن ذلك الأمين العجوز كان يعرف طريق كل شيء حق المعرفة، فلما أخبرته بما أريد أظهر حماسًا فائقًا، فهذا بحث غير غامض على أية حال، ويتضمن غالبًا التفتيش في السجلات القديمة للكنيسة، ومع ذلك فهو عمل ممتع بحق البحث عن أوراق قد تُلقي ضوءً على مصير ضابط في جيش نابليون ساقته الأقدار إلى شمال روسيا منذ أكثر من قرن مضى، فأتى إلى بتروزافودسك حيث لقي حتفه.

لم يخالجني شك في نجاح البحث، فبدأنا التنقيب وسط الملفات، وماذا كنا نأمل في معرفته عن لونجسيفيل لنعلم منه تاريخ حياة ذلك الضابط؟ هل كنا نأمل في العثور على شيء حقيقة؟

أبدى أمين المحفوظات رغبة في معاونتي، فأخبرني بأنه سيسهر تلك الليلة في دار المحفوظات ويفتش في كثير من الأوراق علة يعثر على ضالتي، كان في استطاعتي البقاء معه لو لم يكن ذلك مخالفًا لقوانين الدار، وبدلًا من السهر معه، ذهبت إلى المدينة فاشتريت رغيفًا من الخبز وبعض المشانق والشاي والسكر، وتركتها عنده ليتناولها في أثناء السهر، ثم قفلت راجعًا إلى المنزل .

استمر البحث مدة عشرة أيام، يُطلعني الأمين كل صباح على كومة من الأوراق يظن أن لها اتصالاً بلونجسيفيل، أو تحتوي على ذِكر لاسمه، وكانت الأوراق مرقمة بطريقة رياضية، تحمل أكثرها أهمية علامة الجذر، عثرنا في اليوم

السابع على تسجيل وفاة شارل إيجين لونجسيفيل بسجل المقبرة، فعلمنا منه أنه كان أسير حرب في روسيا، وأن ظروفًا غير عادية أحاطت بمراسيم دفنه، وفي اليوم التاسع وجدنا خطابين خصوصيين يشيران إلى لونجسيفيل، وفي اليوم العاشر تقريرًا بدون توقيع، ممزقًا بعضه، من المحافظ العام لمقاطعة أولونت Olonets، للسماح بإقامة السيدة ماري سيسيل ترينيتي Marie Cécile Triniteزوجة المتوفى لمدة قصيرة في المدينة، حيث قدمت من فرنسا لتقيم نصبًا تذكاريًا فوق قبر زوجها.

كان هذا كل ما استطاع أمين المحفوظات الطيب أن يمدني به، غير أنه كان كافيًا ليعطيني صورة لحياة لونجسيفيل، أو ليعيد إليه الحياة في مخيلتي .

ما إن تكونت في ذهني صورة لذلك المهندس حتى أمكنني في الحال تركيب قصة سلسة من مادة تاريخ المصانع التي كانت منذ وقت قريب عناصر غير مرتبطة، وقد جعلت عنوان قصتي "مصير شارل لونجسيفيل" إذ كانت تدور كلها حول ذلك الضابط الفرنسي، وكان شارل لونجسيفيل هذا أحد جنود الثورة الفرنسية، أسرة القوزاق في جزهاتسكGzhatsk ، ونفوه إلى منطقة بتروزافودسك حيث توفي بالحمى.

كانت مادة الكتاب ميتة إلى أن ظهرت فيها إحدى الشخصيات.

ما إن تم لي هذا الاكتشاف حتى انهار التصميم الذي نظمته من قبل، وصار لونجسيفيل الشخصية الرئيسية للقصة، رسمت صورته أمام منظر خلفي من الحقائق التاريخية التي جمعتها وضمنت القصة كثيراً مما شاهدته في البقاع الشمالية.

وصفت في كتابي منظرًا للحزن على جثمان شارل لونجسيفيل، استقيته من الحياة الواقعية، وكان له تاريخ مستقل.

بينما كنت على ظهر سفينة، في رحلة إلى سفير Svir من بحيرة لادوجا إلى بحيرة أونيجا، إذ ينعش من خشب الصنوبر الفاخر يرفع من رصيف الميناء إلى ظهر الباخرة ثم يوضع في طابقها السفلي، يبدو أن واحدًا من أقدم الربابنة المتمرنين بمنطقة نهر سفير قد مات، وتكريمًا له صحبه أصدقاؤه في رحلة الوداع من منبع النهر الذي كان يحبه كثيرًا، إلى مصبه، من مدينة سفيريتزا Sivritsa إلى فوزتربي، كانت في هذه الرحلة الوداعية فرصة لجميع سكان تلك المنطقة الذين كانوا يقدرون الفقيد حق قدره لما يحظى به بينهم من سمعة طيبة وشهرة عظيمة؛ لأن يقدموا احترامهم وإجلالهم لشخصه، وليعبروا عن شعورهم .

كان الربان المتوفى ينتمي إلى رابطة "الإخوان الربابنة الشجعان"، الذين استخدموا كل ذكائهم ومهارتهم في قيادة السفن بسلام عبر نهر سفير السريع الجريان ولا سيما عبر "المطبات" حيث تكون سرعة التيار بالغة، لقد كانت هناك رابطة صداقة قوية بين أولئك الربابنة الشجعان.

ولما كنا نجتاز الآن منطقة التيارات السريعة مصعدين في النهر، استخدم قاربان بخاريان (لنشان) لمساعدة السفينة رغم أن آلاتها كانت تدور بأقصى سرعة لها، وكانت السفن الهابطة في النهر تستخدم القوارب البخارية أيضًا، ولكنها كانت تجرها من الخلف لتقلل من سرعتها ولتمنعها من الاندفاع مع التيار السريع.

أرسلت البرقيات إلى جميع ساكني شاطئ ذلك النهر بأن جثة الربان المتوفي ستمر في النهر على ظهر تلك السفينة، فكانت الجموع تنتظر عند كل محط لمقابلة السفينة، فتقف السيدات في المقدمة مرتديات الشيلان السوداء، فما إن تبلغ السفينة الشاطئ حتى يطلقن صيحات الحزن مولولات، وكان هذا المنظر يتكرر في كل ميناء، بَيد أن عبارات الحزن كانت تختلف في كل حالة إذ كانت ترتجل ارتجالًا.

عندما وصلنا إلى فوزنزني، صعد جماعة من الربابنة إلى ظهر الباخرة، ورفعوا غطاء النعش فبدا وجه البحار العجوز الذي لفحه الجو، وكان رجلًا ممتلئ الجسم رمادي الشعر، وُضع النعش فوق ملاءات من الكتان وحُمل إلى الشاطئ وسط النواح والعويل فسارت وراء النعش سيدة صغيرة السن، تسدل شالًا على وجهها الشاحب، وتمسك في يدها صبيًا أشقر الشعر، وعلى بضع خطوات وراءها سار رجل في آخر العقد الرابع من العمر يرتدي حلة ربابنة السفن النهرية، كان هؤلاء ابنة وحفيد وزوج ابنة الراحل الكريم.

نكست السفينة علمها وأطلقت صفارتها عدة مرات عندما وضع النعش في القبر.

تضمن كتابي وصفًا لكوكب الزهراء في أبهى لآلائه كما رأيته أنا نفسي، لقد خُيل إليَّ أن له صلة بمناظر الشمال، لم أشاهد الزهراء في أي مكان آخر من الدنيا، بل رأيتها في تلك الأصقاع تتلألأ في كامل سنائها، لامعة كالجوهر، في اسماء المشوبة بالخضرة قبيل بزوغ الفجر، وتتألق في عظمة بالغة كأنها ملكة السماء فوق البحيرتين الشماليتين لادوجا وأونيجا .

منبع الفن

اجتمع الكاتب إميل زولا **Emile Zola** ذات مرة ببعض أصدقائه فقال إن الكاتب يستطيع أن يستغني عن خياله ويعتمد كليةً على قوة ملاحظته كما يفعل زولا نفسه.

كان موباسان **Maupassant** حاضرًا ذلك الحديث فرد عليه بقوله: "ولكن المعروف أنك كنت تقرأ مقالة واحدة ليس غير، في صحيفة من الصحف، فتجعلك تلك المقالة تنطلق في الكتابة بتيار جارف دون أن تترك منزلك عدة شهور، فتخرج رواية كبيرة عظيمة، أليس للخيال دخل في هذا؟"

لم يُحر زولا جوابًا، فأخذ موباسان قبعته وانصرف غير عابئ بأن انصرافه المفاجئ قد يبدو غير لائق، ولكنه لا يمكن أن يسمح لأي فرد، حتى زولا نفسه، بأن يهجر الخيال الذي كان يقدره غاية التقدير كما يفعل أغلب الكتاب، وكما تفعل أنت وأفعل أنا.

الخيال هو الأرض الخصبة التي يتدفق منها الشعر والنثر وسائر الأفكار المبتكرة، إنه نافورة الفن العظيمة، "شمسه الأبدية وإلهه" كما يقول شعراء الحي اللاتيني .

بَيد أن شمس الخيال الساطعة لا تتألق إلا إذا كانت قريبة تمامًا من الأرض، فإذا بعدت عنها فقدت بريقها وخبا ضوؤها.

ما هو الخيال؟ هذا سؤال تكتنف الإجابة عليه صعوبة جمة، وقد عرفه صديقي أركادي جايدار بأنه "مشكلة المشاكل."

لكي يتعمق المرء في فهم شيء ويصل إلى قاعه يلزمه أن يكون لجوجًا عنيدًا كالأطفال عندما يطلبون الإجابة على أسئلتهم .

إنهم يسألونك: "ما هو؟ ولأي شيء هو؟ وهكذا يتبعون أسئلتهم سيلًا لا ينتهي من الأسئلة الأخرى، ولا يمكنك إسكاتهم، بل ينبغي أن تجهد نفسك في أن تجيب على أسئلتهم بإجابات معقولة على الأقل .

والآن نفرض أن طفلًا ما سألك: "ما هو الخيال؟" وهو لا يكاد يعرف كيف ينطق بهذه الكلمة نطقًا صحيحًا.

فلو عرفنا الخيال بعبارة غامضة مثل "هو شمس الفن" أو "هو قدس الأقداس"، لجرنا هذا التعريف إلى سفسطة تلجئنا في النهاية إلى التهرب من مخاطبنا الصغير.

يطلب الأطفال الإبانة والظهور الوضوح، وربما كانت أسهل طريقة لنبدأ في الرد على هذا السؤال هي أن نقول إن الخيال هو خاصة العقل البشري التي تمكن الإنسان من رسم صور لملاحظاته وأفكاره ومشاعره، وليخلق بجانب الدنيا الحقيقية دنيا خيالية ذات أشخاص وحوادث (ويجب أن يكون كل هذا في كلمات بسيطة وعبارات سهلة).

وقد يسأل سائل: "وفي أي شيء نحتاج إلى دنيا الخيال؟ أليست الدنيا الحقيقية كافية؟".

"لأن الدنيا الحقيقية والحياة الواقعية واسعتا الآفاق بعيدتا المدى، ليس في مكنة الإنسان أن يفهمهما في كامل صورهما وتعدد أشكالهما، وزيادة على هذا فإن كثيرًا من الأشياء الحقيقية أو التي حدثت حقيقة، فوق قدرة المرء على أن يتصورها ويقوم بها، فمثلًا: لا يستطيع رجل يعيش في هذا الوقت الحاضر أن

ينقل نفسه إلى ثلاثة قرون خلت ويصير أحد تلاميذ جاليليو، أو يُسهم في فتح باريس عام ١٨١٤، أو بينما هو جالس في موسكو أن يمسك بأعمدة الأكروبول الرخامية، أو يتحدث إلى جوجول، أو يستطيع وهو بداخل المجلس القومي الروسي أن يستمع إلى محاضرات ماراتMarat ، أو يشاهد المحيط الباسيفيكي والسماء ذات النجوم المنتثرة فوقه من على ظهر سفينة بينما لم يقع بصره قط على البحر، يرغب المرء دائمًا في أن يتعلم ويرى ويسمع ويمارس كل شيء، وهنا تتدخل موهبة الخيال فتملأ الفراغ في تجارب الإنسان."

بهذه المرحلة من النقاش نبدأ في شرح الأشياء التي فوق إدراك من يسألنا من الصغار.

فمثلًا: هل يمكن رسم خط رفيع يفصل بين الخيال والتفكير؟... لا !

فقانون الجاذبية لنيوتون، ومأساة تريستان Tristan وإيزولت Isolt، ونظرية تحطيم الذرة، والمبنى الجميل لرئاسة البحرية السابقة في لننجراد، ولوحة ليفيتان Levitan "الخريف الذهبي"، ونشيد المارسيلييز، واللاسلكي، والنور الكهربي، وشخصية هامليت Hamlet، ونظرية النسبية، وفيلم بامبي Bambi، كل هذه من إنتاج الخيال.

ليس في مقدور الفكر البشري أن ينتج شيئًا بدون الخيال، كما أن الخيال يصبح عقيمًا إذا طلقناه من الحقيقة.

هناك مثل فرنسي يقول: "تتغلغل جذور الأفكار العظيمة في القلب، هذا صحيح، وأكثر منه صحة أن نقول إن جذور الأفكار العظيمة لتتغلغل في سائر كياننا، فجميع هيكلنا يسهم في ولادة هذه الأفكار، فالقلب والخيال والعقل تقع فيها قاعدة ما نسميه بالتهذيب، وهناك شيء لا يستطيع حتى أقوى خيال

أن يتصوره، ذلك هو تلاشي الخيال وكل ما خلقه الخيال، فإذا مات الخيال، لم يعد الإنسان إنسانًا.

الخيال هبة عظيمة منحتها الطبيعة للإنسان، لقد خُلق في الطبيعة البشرية.

والخيال كما سبق أن أوضحت لا يحيا بدون الحقيقة، ولكنه بدوره قد يؤثر على الحقيقة، أي على مجرى حياتنا وأفعالنا وأفكارنا ومسلكنا تجاه من حولنا من الناس، فقال الناقد بيزاريف" :Pisarev إذا لم يستطع البشر أن يرسموا صورة للمستقبل، فلن يمكنهم بناء أي شيء لهذا المستقبل، ولن يستطيعوا إطلاقًا الاستماتة في نضالهم أو حتى التضحية بأنفسهم من أجله."

وقال الشاعر ألكسندر:

قد تجد على مبراتك صدفة

ذرة غبار من أرض بعيدة،

فتقوم الدنيا من جديد

غامضة يلفها قناع غريب.

وقال آخر:

في كل بركة– نفحة من رائحة المحيط

في كل حجر– نسمة من رمال الصحراء

فإن ذرة رمل من بلاد نائية، أو قطعة حجرة ملقاة في طريقي، كثيرًا ما تكون سببًا في حث خيالنا على العمل، وهذا يذكرنا بقصة النبيل الإسباني .

كان أحد النبلاء الإسبانيين، متوسط الحال بلغ من الكبر عتيًا، يعيش في

بلدة كاستيل **Castille** بمزرعة أسلافه وتتكون من قطعة أرض صغيرة ومنزل من الحجر رث المنظر يخاله من يراه سجنًا، وكان أعزب لا يؤنسه في ذلك المنزل سوى مربية العائلة العجوز التي بلغت أرذل مراحل الشيخوخة، لا تستطيع إعداد طعامه البسيط إلا بمشقة بالغة، ولكنها لم تصلح لأن يتحدث إليها، ولذلك كان النبيل يقضي جل وقته جالسًا على مقعد أبلاه طول العهد، أمام نافذته الصغيرة يقرأ، لا يقطع سكون البيت سوى طقطقة الغراء في ظهور الكتب. وبين آونة وأخرى كان يلقي نظرة على ما وراء النافذة من المناظر، فكان يرى شجرة ذابلة دكناء، ومنظر السهول المتماثلة الممتدة حتى الأفق، كانت المناظر الطبيعية في هذه المنطقة من إسبانيا حيث يعيش ذلك النبيل، موحشة لا ترتاح لمرآها العين ولا تبتهج لها النفس، ولكن اعتادها وألفها.

بلغ النبيل السن التي لا تساعده على مغادرة مدفأته ليقوم برحلة طويلة شاقة، وفضلًا عن هذا كله، لم يكن له في المملكة كلها أقارب أو أصدقاء، لم يُعرف عن ماضيه إلا القليل. فيقال إنه كان متزوجًا وأنجب ابنة فاتنة حسناء، غير أن الطاعون فتك بزوجته وابنته في شهر واحد من نفس السنة، ومنذ ذلك الوقت وهو يحيا حياة العزلة، يعجز حتى عن استقبال أبناء السبيل الذين يضلون طريقهم في أثناء الليل البهيم أو في الجو العاصف المرير.

وبالرغم من ذلك، فذات يوم طرق بابه رجل غريب لفح الجو وجهه، يرتدي عباءة على كتفيه غزل خيوطها ونسج قماشها بنفسه، فأحسن النبيل استقباله ورحب به كل الترحيب، وفي أثناء تناول طعام العشاء، وهما جالسان أمام الوطيس، أخبر الغريب مضيفه بأنه –شكرًا للسيدة العذراء– إذ عاد سالمًا معافى من رحلة خطرة إلى الغرب حيث أرسل الملك عدة سفن بإغراء أحد الإيطاليين المسمى كولومبوس.

ظلت تلك البعثة تواصل سيرها على صفحة الخضم المترامي الأطراف عدة أسابيع، ثم أغرى الرجال غناء السيرينيات Sirens العذب، اللواتي طلبن من الرجال أن يسمحوا لهن بركوب السفن ليدفئن أنفسهن، ويسترن أجسادهن العارية بشعورهن الطويلة كما لو كن يلففنها في أغطية (بطاطين)، فأمر الربان رجاله بألا يلتفتوا إلى أولئك السيرينيات، ولكن البحارة كانوا في شوق جارف إلى السيدات وإلى احتضان أجسادهن البيضة وتحسس أردافهن المكورة، فتألبوا على قائدهم، بَيد أن ثورتهم باءت بالفشل وبهزيمتهم، فشنق ثلاثة من زعمائهم على سارية إحدى السفن.

استمروا في إبحارهم حتى رأوا البحر العجيب المزروع كله أعشابًا ذات أزهار كبيرة شديدة الزرقة؛ فأقاموا قداسًا للصلاة، وعندما بدأت السفينة تسير حول بحر الحشائش ذاك، ظهرت لهم أرض جديدة جميلة غير معروفة، وقد حملت الريح من شواطئها همهمة الغابات وحفيف أوراق أشجارها، وأريج الأزهار المنعش، فاعتلى قائد البعثة ظهر سفينته، وشهر سيفه ورفعه نحو السماء يتألق سن نصله في أشعة الشمس ببريق يخطف الأبصار، كان هذا علامة على اكتشافهم الأرض الذهبية (إلدورادو (Eldorado العجيبة التي حصباؤها عقى ومرجان وجواهر متعددة الألوان، والتي تكثر فيها جبال الذهب والفضة.

كان النبيل يصغي إلى ضيفه صامتًا، وعندما ودع الزائر مضيفه عند الانصراف، أخذ من حقيبته المصنوعة من الريش قوقعة بحرية قرنفلية اللون كان قد أحضرها معه من أرض إلدورادو، فقدمها هدية للنبيل تعبيرًا عن شكره على العشاء والمبيت، لم تكن القوقعة ذات قيمة ولذا لم يتردد النبيل في قبولها.

وفي الليلة التالية لانصراف الغريب، هبَّت عاصفة هوجاء وتألق البرق في جو السماء فوق السهول الصخرية.

كانت القوقعة على نضد صغير جانب سرير النبيل، فلما استيقظ بالليل أبصر في أعماق القوقعة منظر أرض عجيبة وردية اللون وبحر يعلوه الزبد وتخيم فوقه السحب، كل ذلك يلمع في وميض البرق، انتهى البرق فانتظر النبيل حتى يبرق ثانية ليرى أرض العجائب بوضوح أكثر من المرة السابقة، فشاهد كثيرًا من مجاري الماء الفسيحة تزبد وتتألق في أثناء انحدارها إلى الشواطئ العالية، فظن تلك المجار أنهارًا، وخُيل إليه أنه يستطيع أن يحس برطوبتها، وحتى رشاش الماء كان يتناثر قريبًا من وجهه.

حسب النبيل أنه يحلم، فانتصب واقفًا وحرك كرسيه نحو النضد وجلس قبالة القوقعة وانحنى فوقها محاولًا أن يرى عن كثب ذلك البلد الذي شاهده منذ لحظة، وكان قلبه يخفق خفقانًا عاليًا تستطيع سماع وجيبه، غير أن ومضات البرق أخذت تقل شيئًا فشيئًا ثم انقطعت تمامًا.

لم يرغب في أن يضيء شمعة خشبية أن يستبين على نورها الفظ أن ما رآه ليس إلا خداعًا للبصر، فبقي جالسًا في مكانه حتى الصباح، لم تبد أية غرابة على القوقعة في ضوء الشمس المشرقة، لم يكن فيها أي شيء غير لون رمادي يبدو أن البلاد التي رآها قد ذابت فيه.

سافر النبيل في نفس ذلك اليوم إلى مدريد، وركع أمام الملك متوسلًا أن يصرح له بأن يجهز سفينة على نفقته الخاصة ليبحر فيها نحو الغرب حيث يأمل في اكتشاف أرض جديدة.

أصدر الملك موافقته، بَيد أنه بمجرد انصراف النبيل من حضرته، قال لأتباعه: "لا بد أن يكون هذا النبيل معتوها إذ يؤمل في اكتشاف شيء بسفينة واحدة حقيرة، ولكن الرب هو الذي يقود المجانين، وعلى أية حال فكلنا نعلم أنه قد يضم إلى التاج أرضا جديدة."

ظل النبيل شهورًا بعد شهور يسير بالسفينة غربا، لا يشرب غير الماء، ولا يأكل إلا القليل، وكان لحمه يذوي من شدة تلهفه إلى اكتشاف تلك الأرض، حاول جهده ألا يفكر في أرض أحلامه خشية ألا يوفق إلى بلوغها إطلاقًا، أو أنها بعد كل هذا التعب لا تكون سوى أرض كثيفة الحشائش الشائكة، وسحب من التراب الرمادي.

ابتهل النبيل إلى السيدة العذراء أن تجنبه مثل ذلك الفشل، وكان قد ثبت في جؤجؤ سفينته تمثالًا خشبيًا للسيدة العذراء، ذا عينين زرقاوين جاحظتين تنظران دائمًا إلى الأفق البعيد خلف البحر، وكان رذاذ الماء يتألق على شعر العذراء الذهبي وفوق عباءتها الحمراء الباهتة.

توسل النبيل وهو يصلي، قائلًا: "أرشدينا، أيتها العذراء، فإما ألا تكون هناك أرض أصالة، وإما أن أراها بوضوح في ساعات يقظتي كما أراها في أحلامي."

والغريب أن البحارة في إحدى الأمسيات التقطوا من الماء غصنًا به كثير من الأوراق الضخمة تشبه ريش النعام، وله رائحة طيبة منعشة، وعلى ذلك لم تذق النوم عين أي رجل على ظهر السفينة في تلك الليلة.

وعندما لمع الفجر الفضي في دياجير الظلام، ظهرت لهم أرضت تمتد من أحد أطراف المحيط إلى طرفه الآخر، تتألق وسط سياج من الجبال الشاهقة، وكانت الأنهار البلورية تجري منحدرة من الجبال إلى المحيط، ولم يكن في مكنة قطعان الطيور ذات الرياش الزاهية الألوان، أن تنفذ إلى الغابات الكثيفة بسبب غزارة أوراقها وتشابك أغصانها، بل كانت تحوم حول قمم الأشجار، وقد حمل النسيم الآتي من الشاطئ عبير الأزهار العاطر وأريج العبق، وكان يبدو أن كل نسمة من تلك الرائحة تحمل الخلود في ثناياها.

وعندما أشرقت الشمس ونثرت تبرها فوق تلك الأرض التي كانت تسبح الثمار في رشاش ماء شلالاتها المتلفة بالضباب، اختلطت أشعة الشمس الذهبية برذاذ الماء وانكسرت خلاله، فبدت الأرض ترتدي ثوباً في ألوان قوس قزح، وتألقت كما لو كانت قطعة ضخمة من الماس نسيتها بجانب البحر ربة السماء والضوء العذراء.

جثى النبيل على ركبتيه ومد ذراعيه نحو الأرض المجهولة التي ساقته إليها الأقدار، وصاح قائلًا: "شكرًا للعناية الإلهية إذ ملأت قلبي في خريف حياتي بحب المغامرات، وأبهجت نفسي باكتشاف أرض السعادة التي لولا عناية الرب لما وُفقت إليها، ربما أنني ما كنت لأرى هذه الأرض، وكانت عيناي ستجفان وتعميان من رؤية منظر السهول الممتدة أمام نافذة حجرتي، وإنني لأرغب في تسمية هذه الأرض باسم ابنتي فلورنسيا"**Florencia**

امتدت عشرات أقواس قزح من الشاطئ إلى السفينة وغمرت رأس النبيل وهي تتألق في أشعة الشمس منبعثة من الشلالات العديدة، والحقيقة أن أقواس قزح لم تأت إلى السفينة، بل السفينة هي التي ذهبت إليها تخفق أشرعتها بفرح، وترفرف أعلامها في غبطة عندما رفعها البحارة.

انكفأ النبيل بغتة على وجهه فوق ظهر السفينة الدافئ البليل ولم يتحرك، لقد فارقته الحياة، كان فرحه في ذلك اليوم عظيمًا جدًا أكثر مما يطيق قلبه، فانفجر.

هكذا، كما يقولون، كانت قصة اكتشاف بقعة الأرض التي عُرفت فيما بعد باسم فلوريدا.

يستطيع الخيال أن يسيطر على الحقيقة نفسها بقوة معينة، وهذا ما

حاولت تفسيره بقصة النبيل الإسباني، لقد ألهب الرجل الغريب ذو العباية المصنوعة بالمنزل، خيال النبيل، وساقه إلى رحلة المغامرة التي انتهت باكتشاف عظيم.

للخيال خاصية غريبة في أنه يجعلك تعتقد بحقيقة ما تتصوره، وبدون هذا الاعتقاد لا يصبح الخيال إلا أخدوعة من أخاديع العقل، كالمنظار الذي يرينا الأجسام في شكل هندسي متماثل "الكاليدوسكوب"، وإن ثقتك في حقيقة ما تتصوره، لهي القوة التي تسيطر عليك وتحثك على البحث عنه في الحياة، والمناضلة من أجل الحصول عليه، وتنفيذ أوامر الخيال كما فعل النبيل العجوز، لتلبس ما تتصوره ثوب الحقيقة.

يرتبط الخيال ارتباطًا وثيقًا بالفنون وبالأدب وبالشعر قبل كل ما عداه.

تتعمق جذور الخيال في الذكريات، وجذور الذكريات في الحقيقة وليست الذكريات مكدسة في الذهن بغير نظام، ولكنها متماسكة مع بعضها بقانون "الارتباط" أو كما سماه ميخائيل ليمونوزوف" **Mikhail Lemonosov** قانون التعاون الخيالي" الذي ترص بموجبه ذكرياتنا في ثنايا العقل تبعًا للمشابهة أو المقاربة بينها في الزمان والمكان. وبهذه الطريقة تتكون مجموعة متصلة متناسبة من الذكريات المترابطة، وهذه المجموعة هي التي تقود الخيال في شعابه المتنوعة .

ومجموعة الذكريات هامة جدًا للكاتب، فكلما كانت ضخمة كانت دنياه الروحية غنية.

ألقِ غصنًا أو مسمارًا أو أي جسم آخر في ينبوع ماء معدني تنبعث الفقاقيع من مائه وانظر ماذا يحدث، لن تمر فترة وجيزة حتى يكتسي ذلك الجسم بملايين البلورات الصغيرة البديعة الشكل والمعقدة الاتصال حتى لتبدو

كأنها تحفة رائعة من روائع الفن، وهذا نفس ما يحدث تقريبًا لأفكارنا عندما نلقيها وسط ذكرياتنا المشبعة بالحوادث المترابطة، فتمتد وتنمو وتغزر وتنضج، وتصير تحفًا فنية حقيقية.

يستطيع أي شيء أن يعيد إلى الذهن مجموعة من الذكريات المترابطة، تختلف في حالة كل شخص تبعًا لحياته الخاصة، وتجاربه، وذكرياته، فكلمة واحدة بعينها تعيد إلى ذهن كل امرء مجموعة من الذكريات تختلف عن ذكريات كل من سواه، ومهمة الكاتب هي أن ينقل إلى القارئ نفس مجموعة الذكريات التي تتكون في ذهنه.

يسوق لومونوزوف في "بلاغياته" مثالًا بسيطًا جدًا عن الكيفية التي تعود بها مجموعة الذكريات إلى الذهن، والذكريات المترابطة، تبعًا له، هي القدرة البشرية على تصور عدة أشياء مع شيء آخر، يكون بينه وبينها ارتباط، فمثلًا عندما نرى سفينة في عين ذهننا، فإننا، في الحال، نتصور معها البحر الذي تسير فيه، ومع البحر العاصفة، ومع العاصفة الأمواج، ومع الأمواج الزبد عندما ترتطم هذه الأمواج بالشاطئ، ومع الشاطئ الحصى .

لا مراء في أن هذا مثال مبسط للذكريات المترابطة، وعادة ما يكون الارتباط بين هذه الذكريات معقدًا .

وهناك مثالًا، أكثر تعقيدًا، للذكريات المترابطة .

كنت أكتب في بيت صغير يطل على خليج ريجا، وكان الشاعر اللاتفي إميرمانيس Immermanis في الحجرة المجاورة لحجرتي يقرأ شعره بصوت مرتفع، وكان يلبس "بولوفر" أحمر مصنوعًا باليد، فتذكرت عندئذ أنني رأيت المخرج السينمائي سيرجي إيزينشتين Sergei Eisenstein يلبس "بولوفر"

مماثلًا له إبان الحرب الماضية، التقيت به ذات يوم في أحد شوارع مدينة ألما– آتاAlam- Ata ، يحمل صفًا من الكتب كان قد اشتراها منذ لحظة، وكان اختياره لتلك الكتب غريبًا، فبينها كتاب عن الكرة الطائرة ""الفولي"، وكتاب عن تاريخ العصور الوسطى، وآخر في الجبر، ورواية تسوشيما Tsuchima تأليف نوفيكوف بريبوي.Novikov- Priboi

قال إيزنشتاين: "من واجب المخرج أن يعلم الكثير إذا أراد إنتاج أفلام رائعة".

قلت: "والجبر أيضًا؟"

قال: "بالتأكيد".

وفي أثناء تفكيري في إيزنشتاين، جال بذهني أنني عندما قابلته في ألما– آتا، كان الشاعر فلاديمير لوجوفسكي ينظم قصيدة طويلة عنوان إحدى فقراتها "ألما– آتا مدينة الأحلام"، وقد أهداها إلى إيزنشتاين، وتصف بعض الأقنعة المعلقة بحجرات إيزنشتاين، والتي أحضرها معه عند عودته من رحلة في أمريكا الوسطى، وعلى ذِكر هذا توجد بالمكسيك قبيلة تدعى ماياMaya ، تكاد تكون قد انقرضت الآن ولا يوجد من آثارها سوى بضعة معابد هرمية الشكل وحوالي ست كلمات من لغتها، وتقول الأسطورة إن الباحثين سمعوا كثيرًا من ألفاظ قبيلة مايا، لأول مرة، من الببغاوات التي تعيش في غابات يوكاتان Yucatanالعديمة المسالك، وكانت تلك الألفاظ تنتقل من أحد أجيال الببغاوات إلى الجيل الآخر.

ساقني التفكير في هذه القبيلة إلى أن تاريخ فتح أمريكا مليء بفظائع البشرية التي تتجمد لهولها الدماء في العروق، ثم تذكرت أن "فظائع البشرية" عنوان لرواية تاريخية، إنها أشبه ما تكون بصفعة على الوجه.

ما أشق اختيار عنوان مناسب لكتاب! إنه ليستلزم موهبة خاصة، فبعض الكتاب يستطيعون تأليف كتب في غاية الإبداع، ولكنهم يحارون في اختيار عناوينها، وهناك كُتاب آخرون على عكس هؤلاء تمامًا، بعد ذلك أخذت أفكر في شيء آخر في جماعة الأدباء الذين يجيدون فن الكلام أكثر من فن الكتابة، لا يكلون من الكلام ولا يملونه حتى تجف حلوقهم، وكان جوركي قصاصًا ألمعيًا كما كان كاتبًا عظيمًا، كانت له موهبة أن يقص حكاية في براعة فائقة، ثم يجلس فيكتب نفس القصة بأسلوب آخر، ولم يكن في حاجة إلا إلى حادثة بسيطة لتحفزه على البدء في التاليف، فيهول فيها بكثير من التفاصيل ويخلق منها قصة رائعة كان يعجبه أن يعيد تلاوتها بعد أن يضيف إليها تفاصيل جديدة في كل مرة، ويغير في بعض أجزائها فيجعلها أكثر إمتاعًا، وإن القصص التي يكتبها لمن أروع المبتكرات الفنية الكاملة، وكان يجد لذة في روايتها للمستمعين المغرمين بالقصص دون سواهم، أولئك الذين كانوا يفهمونه ويصدقونه، ولكنه كان يسأم التحدث إلى المجردين من الخيال الذين يرتابون في حقيقة ما يرويه، فيقطب جبينه ويلزم الصمت، أو يبلغ به الضجر أن يقول: "يا لها من دنيا مملة، تلك المليئة بأمثالكم من الناس، أيها الإخوان"!

لكثير من الكُتاب مقدرة على تكوين حكاية شيقة تدور حول واقعة أو حادثة من الحياة الواقعية، عند ذلك انتقلت أفكاري من جوركي إلى مارك توين Mark Twain إذ له تلك الموهبة بدرجة عظيمة وبهذه المناسبة تذكرت حكاية قيلت عن مارك توين وناقد اتهم هذا الكاتب بخلط الحقائق مع الخيال أو على الأصح بالكذب الصارخ، فرد عليه مارك توين بأنه من الأوفق له أن يلم تمامًا "بفن الكذب" إذا أراد أن يكون حكمًا فيه.

أخبرني الكاتب إيليا إلف Ilya Ilf أنه رأى بالبلدة الصغيرة التي وُلد فيها

مارك توين تمثالاً لتوم سوير Tom Sawyer وهاكلبري فين Huckleberry Finnوقد وقف هاكلبري ممسكًا بقطة ميتة في يده ويحركها جيئة وذهابًا، فجال بفكري لماذا لا توضع تماثيل لأبطال الكتب أمثال دوين كويكسوت Don Quixoteوجليفر Gulliver وبافيل كورشاجين Pavel Korchagin بطل رواية أوستروفسكي Ostrovsky التي عنوانها "كيف قُسي الحديد"، ومن جوجول، تاراس بولباTaras Bulba ، وبييربزوخوف Pierre Bezukhov بطل رواية "الحرب والسلام" لتولستوي، والشقيقات الثلاث من تأليف تشيكوف وماكسيم ماكسيموفتش Maxim Maximovich أو بيلا Bella لمؤلفهما ليرمونتوف.Lermontov

هذا مثال لكيفية تسلسل الأفكار في تيار لا ينتهي من الذكريات المترابطة، بدأ من "بولوفر" أحمر حتى بلغ تمثال بيلا بطلة ليرمونتوف.

لقد أطلت الحديث في ارتباط الذكريات،لأنه متصل من قرب بالصور المتبكرة للأفكار، وإن هذه الذكريات لتغذي الخيال الذي بدونه لا يحيا الأدب ولا يكون له وجود.

وإنني لأقر بيستوزهيف– مارلنسكي Bestuzhev– Marlinsky فيما قاله عنه الخيال.

"عدم انتظام الذكريات في ذهننا هو الظاهرة التي تسبق خلق شيء حقيقي سامٍ شعري، فما إن ينفذ شعاع واحد من أشعة القريحة خلال هذه الذكريات المكدسة في فوضى، حتى تدب الحياة في تلك الذرات الدقيقة المتعادية، تدب فيها في محبة وانسجام وتنجذب إلى أقواها وتنضم إليها في سهولة وتكون صورة متألقة من البلورات وتتدفق في تيار جارف من الكتابة."

يحث الليل قوى الروح تدريجيًا إلى التحرك، وما هي هذه القوى؟ أهي عمل الخيال الذي يطلق سراح تيار من التصورات من الثنايا الدقيقة للوعي؟ أهي ذهول الروح أم اطمئنانها؟ وهل تخرج من الفرح أم من الحزن؟ ومن يعرف ذلك؟

أطفأت السراج فبدأ الظلام يتبدد مشوبًا بتألق الثلج الصادر من الخليج المحوط بالجليد، الشبيه بالمرآة الصدئة يعكس ضوءه الخافت على ظلمة الليل.

كان في مقدوري أن أتبين قمم أشجار الصنوبر على شواطئ بحر البلطيق تشمخ برءوسها نحو السماء، وأسمع صوت سير القطر الكهربية من مسافات بعيدة، غير أنه سرعان ما عاد كل شيء إلى الهدوء من جديد، فنشر السكون أعلامه حتى إن الأذن لتسمع أقل خفيف بين أغصان روح الصنوبر، وأبسط طقطقة خفيفة تتفق وومضات النجوم، كما لو كان الجليد يحطم النجوم فتصل وتطن.

كنت أقيم وحدي بمنزل يطل على البحر الممتد إلى مئات الأميال، وكانت هناك أوحال غزيرة وأكوام من الرمم المتعفنة خلف الكثبان، ولم يكن هناك فرد ما في أي مكان، غير أنه بمجرد أن أضأت المصباح وجلست إلى مكتبي واستأنفت الكتابة، هجرني الإحساس بالوحدة، غير عابئ بكل ما حولي، لم أكن وحدي بعدئذ، شعرت بوجود آلاف القراء بحجرتي، أستطيع التحدث إليهم، وأثير، متى شئت، إلى الضحك أو التأمل أو الحب أو الغضب أو العطف، من آخذ بيده وأقوده في طريق الحياة التي خُلقت هنا بين جدران حجرتي الأربعة، ثم تنتشر خارجها لتصير عامة للجميع.

أقودهم إلى الفجر– الذي سيأتي يقينًا، وها هو ذا يرفع أستار الظلام، ويمس السماء بأضعف لمسة من اللون الأزرق الباهت.

جلست إلى مكتبي لا أدري ماذا أكتب، كنت في حالة هياج إذ كانت

أفكاري غامضة، ولم يكن لدي ما أنقله إلى غيري سوى التلهف الذي كان يملأ عقلي وقلبي وسائر كياني، لم أكن أعرف الصورة التي سوف تتقمصها أفكاري ولا الطريق التي ستسير فيها.

كنت أعرف لمن أكتب، سأجعل العالم كله قرائي، بَيد أنه من الصعب، بل من المستحيل افتراض هذا المدى البعيد، وعلى ذلك، فكرت، كما هي عادتي، في فرد واحد بعينه فتاة صغيرة ذات عينين نجلاوين، جرت منذ بضعة أيام لتقابلني وأنا أجتاز المرعى، فلما بلغت جانبي أمسكتني من مرفقي.

قالت وهي تلهث: "كنت أنتظرك هنا منذ وقت طويل، قطفت شيئًا من الأزهار، وتلوث القسم الثاني من أشعار إيجين أونيجين **Eugene Onegin** تسع مرات، أريد أن تصحبني إلى منزلي، كل فرد هناك ينتظرك، كلنا نشعر بالملل والسأم في غيابك، ونتلهف شوقًا إلى سماع إحدى مغامراتك على شاطئ البحيرة، أرجو أن تفكر في شيء مثير، ولست بحاجة إلى التفكير فيه وابتكاره، بل أخبرنا عن أشياء حدثت حقيقةً، ما أجمل المراعي وقد شرعت أزهار الورد البري تتفتح من جديد، ما أروعها""!

ربما لم أكن أكتب من أجل هذه الفتاة الصغيرة إطلاقًا، فلربما كنت أكتب من أجل سيدة ارتبطت حياتها بحياتي ارتباطًا وثيقًا، عن طريق سنين طويلة من المحن والأفراح والمداعبات، لدرجة أننا تعلمنا ألا نخاف شيئًا، وربما كان من أجل أصدقائي الذين أغلبهم من نفس سني، وقد بدؤا يرتقون سلم المناصب الرفيعة، ولكنني في الحقيقة كنت أكتب لجميع من يهمهم قراءة مؤلفاتي.

لم أعرف ماذا أكتب إذا لم يكن لدي الكثير لأقوله، ولم أكن حتى ذلك الوقت قد حللت أفكاري لأعرف أيها أكثر أهمية، وأيها يساعد الباقي في أن ينسجم معها.

هذه الحالة التي وصفتها يعرفها كل من يشتغلون بالكتابة.

قال تورجينيف" :Turgenev تأتي لحظة تحمل معها الشوق إلى الكتابة، فلا تعرف عن أي شيء ستكتب، ولكنك تشعر برغبة في الكتابة، وأنك ستكتب. هذه حالة يطلق عليها الشعراء اسم "اقتراب الرب"، ويسميها الفنانون "لحظة الذهول"، فإذا لم تكن هناك مثل هذه اللحظة فما كان أحد ليهتم بالكتابة، بعد ذلك، عندما ترتب أفكارك لتكون منها صورة وتنقلها إلى الورق، تبدأ فترة الصعوبة."

بينما كنت أفكر فيما سأكتب، قطع السكون فجأة صفارة باخرة بعيدة، وماذا تفعل الباخرة هنا في هذه المياه المكسوة بالجليد؟ ثم تذكرت أنني قرأت في جريدة أمس أن إحدى محطمات الجليد غادرت لننجراد في طريقها إلى خليج ريجا، فكان هذا هو تفسير تلك الصفارة.

مرت بذاكرتي بعد ذلك قصة سمعتها من ربان سفينة لتحطيم الجليد عن رؤيته باقة من أزهار الحقول متجمدة وسط الجليد، فأخذت أفكر فيمن عساه فقد تلك الباقة في هذه الحقول المنعزلة المكسوة بالثلوج، ربما سقطت من باخرة وهي تشق طريقها وسط الجمد.

ولما كانت صورة باقة من الأزهار المتجمدة حاضرة في ذهني، فقد بدأت الكتابة، كنت أعرف أنه لا بد من سبب لوجود الأزهار وسط الجليد، ولا بد أن كل من رآها قد خمن سببًا لوجودها هناك لم أر تلك الأزهار بعيني رأسي، بيد أنه كان لدي فكرة عن وجودها بذلك المكان، لماذا لا تكون هي نفس باقة الأزهار التي قطفتها الفتاة التي جرت لتقابلني من المراعي؟ شعرت بأنها هي نفسها دون أقل شك، ولكن كيف وصلت إلى الجليد؟ من السهل الإجابة على هذا السؤال إذ من الممكن أن تحدث عدة أشياء في القصة.

هناك عاودتني فكرة أن شغف الإناث بالأزهار يختلف عن شغف الذكور بها، فيعتبرها الرجال مجرد أداة للزينة بينما تعتبرها السيدات أكثر رقة من هذا، فهي في عرفهن ذات صلة بالحب أكثر من الزينة.

كنت أرقب مجيء الفجر والحزن يملأ قلبي، إذ يجرد ضوء النهار أفكارنا من غرامها، فكثير من القصص يميل إلى الانكماش في ضوء الشمس، تعود كالقواقع إلى أصدافها.

لم تكن قصتي قد أخذت شكلها بعد في ذهني، ولكنها كانت فيه، وكنت أعرف أنها ستنمو من تلقاء نفسها، ومنع نموها ليس سوى نوع من قتل الأطفال.

كانت كتابتها في صعوبة التعبير عن الرائحة الضعيفة للحشائش، ومع ذلك فقد كنت اكتب بسرعة لئلا يطير نسيج العنكبوت الذي يغلف قصتي ولكي ألحق بالضوء والظل والصور العقلية التي تومض في العقل لحظة ثم تختفي بسرعة، ولئلا أتخلف وراء تيار الخيال المتدفق.

وأخيرًا انتهيت من القصة وأنا أتلهف إلى النظر بعين الشكر إلى تلك العيون المتألقة ذات الضوء الخالد الذي تتلألأ به على الدوام.

عربة الليل

عزمت على أن أخصص بابًا آخر من هذا الكتاب للخيال ولكني قررت أن أكتب قصة في هذا الباب عن هانز كريستيان أندرسين، أعتقد أنها ستحل محل هذا الباب وتفسر قوة الخيال أفضل مما تفسره الحقائق العامة.

لا فائدة من طلب مداد في أحد الفنادق المتهدمة العتيقة بمدينة البندقية، ولماذا يحتفظون لديهم بالمداد، أليكتبوا به قوائم الحساب الطويلة التي يقدمونها لزبائنهم؟

هذه حقيقي، فعندما انتقل هانز كريستيان أندرسين إلى أحد هذه الفنادق لم يجد سوى قدر يسير من المداد في قاع المحبرة الموضوعة فوق مكتبه، بدأ يكتب قصة خيالية، ولكن هذه القصة المسكينة أخذت تتضاءل أمام عينيه، إذ الطريقة الوحيدة للاحتفاظ بتلك الكمية البسيطة من المداد دون أن تجف هي أن تضيف إليها الماء باستمرار، وأخيرًا لما نفدت ولم يبق هناك مداد لإنهاء تلك القصة فقد بقيت نهايتها السعيدة في قاع الدواة، فسر أندرسين من هذا وعزم على تسمية قصته التالية "القصة الباقية بقاع المحبرة الجافة."

في تلك الأثناء شغف أندرسين بحب مدينة البندقية فأطلق عليها اسم "زهرة اللوتس الذاوية"، كان يراقب سحب الخريف الواطئة تسبح في السماء فوق البحر، ويرسل الماء الآسن في القنوات رشاشه، بينما تزمجر ريح باردة في أركان الطرقات، وكلما نفذت أشعة الشمس من خلال الغمام وتألق رخام الحوائط الوردي خلف الفطر الذي يكسو الجدران، بدت المدينة، كما كان يراها أندرسين من نافذته، كإحدى لوحات كاناليتCanalet ، أحد أساتذة الرسامين بمدينة البندقية، ولكن بصورة تكتنفها بعض الكآبة.

حان موعد مغادرته البندقية ليكمل تجوالاته خلال إيطاليا، فأرسل الخادم، وهو غير آسف، ليحجز له تذكرة بالعربة الذاهبة إلى فيرونا **Verona** في تلك الليلة.

كان الخادم الكسلان الثمل باستمرار، نذلًا في دخيلة نفسه "رغم ما كان يبدو عليه من الصراحة والسذاجة وسلامة الضمير، وبذلك كان يلائم الفندق تمام الملاءمة، لم يكنس ذاك الخادم أرض غرفة أندرسين الحجرية مرة واحدة فضلًا عن عدم تنظيف الحجرة نفسها، فكانت غرفة حقيرة بمعنى الكلمة، تؤمها جيوش العث من الستائر المصنوعة من المخمل الأحمر، وكان بها وعاء خزفي مكسور ليغسل فيه وجهه، نقشت عليه صور المستحمين، أما مصباح البترول المكسور فقد حل محله شمعدان فضي ثقيل به بقية صغيرة من عقب شمعة، ويبدو أن الشمعدان لم ينظف منذ عهد تيتان **Titan**.

بالدور الأرضي للفندق مطبخ قذر تنبعث منه رائحة اللحم المشوي والثوم، ونسمع منه طول النهار أصوات الفتيات المهلهلات الثياب، يقهقهن ضاحكات آونة، ويتشاجرن بصوت مرتفع آونة أخرى، وقد ينتهي شجارهن أحيانًا بأن تشد كل منهن شعر الأخرى، وإذا تصادف مرور أندرسين في مثل هذه الأوقات، كان يقف ويتطلع إليهن معجبًا بشعر أولئك السيدات المرسل في خصلات جميلة، وبوجوههن الملتهبة الحمرة وعيونهن المتقدة تعطشًا إلى الانتقام، ويشاهد دموع الغضب تنحدر فوق وجناهن الفاتنة.

كانت الفتيات تخجلن من رؤية الرجل الأنيق النحيف الجسم ذي الأنف الأقنى، فيتوقفن عن العراك لتوهن، وكن يعتقدن أن أندرسين مشعوذ متجول رغم أنهم كن يخاطبنه باحترام بالغ ويناديـنه بلقب "السيد الشاعر"، بَيد أن أندرسين لم يكن ليرد عليهن عندما يلقبنه بالشاعر، فلم يكن طائشًا، لم يعزف

على القيثارة، ولم ينشد أغاني الغرام التي ينشدها راكبو الجندول، كما أنه لم يته هيامًا بكل فتاة حسناء التقى بها، ولكنه مرة واحدة نزع الوردة الحمراء من عروته ورماها إلى أقبح فتاة بين غاسلات الأطباق، كانت فضلًا عن دمامتها عرجاء.

ما إن أرسل الخادم ليأتيه بتذكرة السفر حتى ذهب من فوره إلى النافذة وأزاح الستارة جانبًا، وجعل يرقبه وهو يتسكع على حافة القناة، وسمعه يصفر، وعند مروره بسيدة حمراء الوجنتين تبيع السمك تحسس صدرها فنال جزاء هذا صفعة قوية على وجهه، ثم بصقة قوية إلى قشرة بيضة طافية على وجه المياه، فأصاب الهدف فاختفت القشرة تحت سطح الماء، بعد ذلك مشى نحو غلام يلبس قلنسوة ممزقة ويصيد السمك، فطفق ينظر إلى القصبة الممتدة في الماء ينتظر وقوع سمكة.

لم يطق أندرسين بعد ذلك صبرًا، فصاح برمًا: "رباه! سيؤخرني هذا النذل عن السفر من البندقية في هذه الليلة""!

ثم فتح النافذة بعنف فاصطفق مصراعاها بقوة، حتى إن رنين زجاجها بلغ مسامع الخادم، فرفع بصره نحو مصدر الصوت، فإذا بأندرسين يتوعده ملوحًا في الهواء بكلتا قبضتيه وهو يتفد غيظًا، عندئذ خطف الخادم قلنسوة الصبي ولوح بها مسرورًا نحو أندرسين، ثم أعادها فوق رأس الغلام ثانية، وانتصب واقفًا على قدميه، وأطلق لهما العنان فاختفى وراء منحنى الطريق.

لما شاهد أندرسين هذا المنظر انفجر ضاحكًا وزال عنه غضبه، لا شك في أن الخادم نذل ولكنه كان مع ذلك مجلبة للتسلية والانشراح، وكان أندرسين يعتبر مثل هذه الحوادث التافهة من مُلح الرحلات أو بهار السفر، ومن أسباب تمضية الوقت التي كان يزداد بها شغفًا.

هناك كثير من مباهج السفر: كنظرة إغراء من وراء الرموش الفاتنة، وظهور الحصون العالية فجأة في مدينة غير مألوفة، وتأرجح ساريات السفن الضخمة في الأفق البعيد، والعواصف العاتية في جبال الألب، وصوت مبهج كرنين جرس على جانب الطريق، وغناء فتاة رخيمة الصوت في ميعة الصبا.

أحضر الخادم تذكرة السفر بالعربة ولكنه لم يعط أندرسين بقية النقود، فأمسكه هذا من قفاه ودفعه برفق خارج الحجرة، ثم لطمه وهو يضحك، فانطلق الخادم يهبط السلم المخلع، يقفز كل عدة درجات في خطوة واحدة وهو يغني بأعلى صوته.

ما إن بدأت العربة سيرها من البندقية حتى أخذ المطر يسقط، وخيم على المنطقة كلها ظلام دامس، فقال الحوذي إن الشيطان نفسه هو الذي فكر في السفر ليلًا من البندقية إلى فيرونا.

ولما لم يرد عليه الركاب بكلمة، صمت برهة ثم حذرهم بأن ليس لديه من الشمع إلا القطعة الصغيرة التي تحترق داخل الفانوس، وللمرة الثانية لم يعلق أحد على كلامه بشيء، بعد ذلك أبدى ريبته في سلامة عقل ركابه، وزاد على هذا بقوله إن فيرونا رقعة ضيقة مزدحمة بالسكان وليست مكانًا لأشراف الناس، فلم يعترض أحد على قوله رغم علمهم جميعًا بكذب كلامه.

لم يكن بالعربة غير ثلاثة مسافرين– أندرسين، وقسيس عجوز كئيب المنظر، وسيدة ترتدي عباءة دكناء، كانت تبدو لأندرسين في ضوء الشمعة الخافت، حسناء صغيرة السن أحيانًا، وعجوزًا شمطاء دميمة الخلقة أحيانًا أخرى.

قال أندرسين: "ألا تظنان من الأفضل أن نطفئ الشمعة؟ يمكننا أن نستغني عنها الآن وندخرها لوقت الحاجة فيما بعد".

فأجاب القسيس مستصوبًا رأيه: "هذه فكرة لا تخطر ببال رجل إيطالي."

"لماذا؟"

"ليست للإيطاليين القدرة على التفكير البعيد، بل يتركون الأمور تسير في طريقها حتى يسبق السيف العذل فلا يمكن إصلاح ما فسد".

قال أندرسين: "أمن الجلي أن قداسة الأب لا ينتمي إلى هذه الأمة الضعيفة التفكير؟".

أجابه القسيس محتداً: "أنا نمسوي".

بهذا انتهى الحديث، وأطفأ أندرسين الشمعة. فقالت السيدة بعد فترة صمت: "من الأفضل أن تسير ليلًا والشمعة مطفأة، في هذه المنطقة من إيطاليا."

فاعترض عليها القسيس بقوله: "سيشي بنا صوت عجلات العربة" ثم أردف يقول في حدة: "لا يضطر العمل السيدات إلى السفر ليلًا بدون "حرملة ."

فأجابت السيدة وهي تضحك عاليًا: "إن السيد الجالس إلى جانبي ليغنيني عن "الحرملة".

فرفع أندرسين قبعته معلنًا شرف ذلك.

ما إن أطفئت الشمعة حتى وضحت أصوات وروائح الليل كما لو كان أسعدها عدم وجود منافس لها، فغدت وقع حوافر الخيل، وصوت احتكاك العجلات بالطريق، وطقطقة زنبركات العربة، ونقر المطر على سقف العربة، أوضح الآن من ذي قبل، وصارت رائحة الأعشاب الرطبة، التي وصلت إلينا من النافذة المفتوحة، أكثر حدة.

تمتم أندرسين قائلًا: "يا للغرابة! كنت أتوقع أن أشم رائحة البرتقال في إيطاليا، فإذا بي أتبين الآن رائحة بلادي الشمالية ."

فقالت السيدة: "سيتغير الهواء بمجرد أن نشرع في صعود التل، سيكون أكثر دفئًا."

أبطأت الخيول خطوها إذ كانت الطريق صاعدة أمامها، وكان الليل أشد حلوكة في ظل أغصان أشجار الدردار العتيقة التي تحد جانبي الطريق، وكان السكون شاملًا لا يقطعه سوى حفيف الأوراق وصوت سقوط المطر.

خفض أندرسين زجاج النافذة فدخلت إلينا أغصان الدردار في العربة، فقطف أندرسين بعض أوراقها تذكارًا من هذه الرحلة.

كان أندرسين ككثير من ذوي الخيال المتوقد الوثاب، يهوى جمع سائر أنواع التوافه في رحلته، كقطع الفسيفساء، أو ورقة دردار، أو سنبكة حمار صغيرة، فهذه كلها ذات قدرة على أن تعيد خلق الجو الذي كان فيه عندما التقطها.

قال أندرسين لنفسه: "وقت الليل".

ساعده دجى الليل على أن يسبح في بحار تأملاته، وعندما يملها يستطيع أن يفكر في قصص يكون هو نفسه بطلها الصغير الأنيق، مكثرًا من استخدام العبارات المبهجة التي يسميها النقاد العاطفيون "أزهار الشعر"، كان لطيفًا منه أن يعتبر نفسه هكذا، بينما هو في الحقيقة –ولم يخدع نفسه– غير جذاب، ونحيف، وخجول، وتتدلى يداه وساقاه إلى جنبيه كما تتدلى يدا وساقَا دمية الرجل النطاط، فلا يأمل في أن ينال الحظوة لدى الجنس اللطيف، وكان يحز في نفسه أن تمر به الفتيات الصغيرات الفاتنات ولا يلقى منهن اهتمامًا يزيد على اهتمامهن بعامود المصباح.

داعب النعاس جفون أندرسين، ولكنه سرعان ما استيقظ، فأول شيء وقعت عليه عيناه، نجم أخضر يتلألأ منخفضًا فوق الأفق؛ فعرف أنه في أوليات ساعات الصباح.

وقفت العربة فسمع أندرسين صوت الحوذي يساوم بعض الفتيات عن الأجر، وكانت أصواتهن عذبة لدرجة أنها ذكرته بموسيقى "أوبرا" قديمة كان قد سمعها ذات مرة، كانت الفتيات تطلبن الركوب إلى بلدة قريبة ولا يستطعن دفع الأجر الذي طلبه الحوذي منهن.

فأخرجن كل ما في جيوبهن من نقود ليدفعنها له.

قال أندرسين للحوذي: "كفى! سأدفع أنا باقي المبلغ الذي تطلبه أيها الوغد من الفتيات. "كف عن نقاشك!".

فقال الحوذي: "حسنًا، اركبن أيتها الغيد الحسان، واشكرن السيدة العذراء الرحيمة، إذ أرسلت في طريقكن أميرًا أجنبيًا ذا مال وافر، ولا تحسبن أنه وقع في غرامكن، فإن حاجته إليكن ليست بأعظم من حاجته إلى أطرية (مكرونة) العام الماضي، إنه لم يفعل هذا إلا لكونه يخشى أن يتأخر ويريد أن نسير في طريقنا دون تلكؤ."

قال القسيس: "يا للفضيحة!".

قالت السيدة، وقد أفسحت مكانًا بجانبها للفتيات: "اجلسن هنا، فهكذا نكون أكثر دفئًا."

صعدت الفتيات إلى العربة وكل منهن تتحدث إلى الأخرى بصوت رقيق، وتناولها أمتعتها، ثم حيين من في العربة، وشكرن أندرسين في خفر، وجلسن في أمكنتهن، ثم لزمن الصمت، ملأت رائحة جبن الماعز والنعناع العربة.

ولو أن الظلام كان حالكًا بتلك الدرجة إلا أن أندرسين استطاع أن يرى بريق الفصوص الرخيصة في أقراط الفتيات .

ما إن استأنفت عجلات العربة سيرها فوق الطريق، حتى أخذت البنات يتهامسن.

فقالت السيدة ذات المعطف الأسود: "أيها السيد، ترغب الفتيات في أن يعرفن ما إذا كنت أميرًا أجنبيًا متنكرًا، أم سائحًا عاديًا"، وكان في مقدور أندرسين أن يرى ابتسامتها في الظلام.

أجاب أندرسين في الحال دون أن يستغرق وقتًا في التفكير "أنا قارئ بخت، يمكنني التنبؤ بالمستقبل، وأن أرى في الظلام، ولا يتطرقن إلى أذهانكن أنني دجال، انظرن إليّ كأمير فقير من الأرض التي عاش فيها هامليت ذات مرة، إذ حلا لكن ذلك."

فسألت إحدى الفتيات مستغربة: "وماذا يمكنك أن ترى في الظلام، من فضلك؟"

قال أندرسين: "أنت مثلًا يمكنني رؤيتك بوضوح، حتى إن جمالك ليملأ قلبي إعجابًا."

عندما قال هذا أحس ببرودة تسري في وجهه، كالتي اعتاد أن يحس بها كلما أوشك على نظم شعر أو راودته قصة، لقد جاءت معها برعدة وتيار متدفق من الكلمات، وومضات من الصور الشعرية، وثقة حلوة بسيطرة المرء على القلب البشري، كما لو كان الغطاء قد كُشف فجأة عن علبة سحرية عتيقة زاخرة بالأفكار غير المعبر عنها، وبالمشاعر الخامدة منذ أمد بعيد، وبكل ما في الدنيا من مباهج، أزهارها وألوانها وأصواتها ونسيمها العطر وبحرها الفسيح

وحفيف أشجار غاباتها وأشواق الغرام فيها وأصوات أطفالها .

لم يعرف أندرسين بماذا يسمي هذه الحالة، فيعتبرها البعض إيحاء، وآخرون ذهولًا، وغيرهم موهبة الارتجال.

صمت أندرسين برهة ثم قال: "كنت نائمًا عندما قطعت أصواتكن هدأة الليل، وإن سماعي حديثكن ورؤيتي إياكن الآن، يا فتياتي العزيزات، لكافيان لقراءة أخلاقكن، بل وأكثر من ذلك، لأعجب بكن كشقيقات مسافرات ليلًا، وبالرغم من أن الليل دامس الدجى فإنني أرى وجوهكن جميعًا كما لو كانت في وضح النهار، إنني أنظر الآن إلى إحداكن ذات الشعر الغزير، إنك تحبين المرح ومولعة بالحيوانات المنزلية المدللة، لدرجة أن العصافير البرية لتحط على كتفك وأنت تتعهدين مزروعات الحديقة."

فقالت إحدى الفتيات بصوت مسموع: "من المؤكد أنه يصفك أنت، يا نيقولينا".

أكمل أندرسين حديثه بنفس النغمة قائلًا: "وإذا وقع حبيبك في مأزق، أسرعت إلى نجدته في الحال مهما تجشمت السير آلاف الأميال خلال الجبال والصحراوات القاحلات، أليس كذلك؟."

فأجابت نيقولينا بصوت عذب: "نعم، أفعل هذا، طالما إنك تعتقد ذلك".

قال أندرسين: "أخبرنني عن أسمائكن".

قال إحداهن في لهفة: "نيوقولينا، وماريا، وأنّا".

"يوسفني، يا ماريا، أن تكون معرفتي باللغة الإيطالية ضعيفة لا تساعدني على وصف جمالك بما يليق به، ولكن، بما أنك لا تزالين صغيرة السن، فقد

وعدت إله الشعر بأن أتغنى دائمًا بمدح الجمال."

عندئذ تمتم القسيس بصوت خافت قائلًا: "يا للفضيحة! لقد لدغته ذبابة سامة فأصابه الجنون"!

"حقًا، إن طبيعة السيدات الفاتنات لتبقى كامنة دائمًا في أحنائهن فيحتفظن بعواطفهن السرية التي تضيء وجوههن من الداخل، هذا ينطبق على حالتك يا ماريا، وحظ مثل هؤلاء السيدات غير عادي غالبًا، فإما أنهن منحوسات نحسًا ما بعده نحس، أو سعيدات غاية السعادة."

فقالت السيدة الأولى: "وهل حدث أن التقيت بمثل أولئك السيدات؟"

"أرى اثنتين منهن الآن أمامي، إنهما أنتِ أيتها السيدة، وماريا، الفتاة الجالسة إلى جانبك."

قالت السيدة: "أرجو ألا تكون هازئًا بنا، أيها السيد"، ثم أردفت تقول بصوت خفيض: "سيكون الأمر في غاية القسوة بالنسبة لهذه الفتاة الحسناء، ولي."

"لم أكن جادًا في حياتي كلها أكثر من الآن، أيتها السيدة."

ثم سألته ماريا بعد لحظة صمت، فقالت: "أرجو أن تخبرني، أيها السيد، هل سأكون سعيدة أم تعيسة؟".

"لن تأتي السعادة إليك عفوًا بلا تعب، يا ماريا، إنك تطلبين حياة أرغد من فتاة فلاحة بسيطة، ويمكنني أن أقول لك، ستعثرين على رجل جدير بقلبك العظيم، وإنني لعلى يقين من أن من تختارينه سيكون رجلًا عظيمًا، قد يكون مصورًا أو شاعرًا أو مجاهدًا من أجل حرية إيطاليًا، وقد يكون راعيًا بسيطًا أو

بحارًا، وإنما المؤكد أنه سيكون عظيم القلب، ولا يهم من يكون بعد ذلك."

فقالت ماريا في خجل: "أيها السيد، إنني لا أستطيع رؤيتك في الظلام، وهذا ما يعطيني الجرأة الكافية لأن أسألك سؤالًا واحدًا، ماذا لو كان أحد أولئك الذين تصفهم قد استولى فعلًا على قلبي؟ ولم أره إلا بضع مرات ليس غير، حتى إنني لا أعرف أين هو الآن."

فصاح أندرسين بقوله: "ابحثي عنه، وعندئذ سيحبك".

حينئذ صاحت أنّا بفرح، تقول: "أي ماريا، إذن فقد أحببتِ ذلك الشاب المصور الفيروني؟"

فقالت ماريا: "صه!"

فقالت السيدة: "ليست فيرونا مدينة واسعة، ومن المؤكد أنك ستعثرين عليه هناك. اسمي إيلينا جيتشيولي **Elena Guiccioli**، حاولي أن تحفظيه، وأقيم في فيرونا، يستطيع كل من تسألينه أن يدلك على منزلي، وستقيمين في داري حتى يجمع القدر بينك وبين من تحبين".

تحسست ماريا يد إيلينا جيتشيولي في الظلام، وأمسكت بها وضغطتها على خدها المتوهج.

شمل السكون الجميع عندما لاحظ أندرسين أن النجم الأخضر لم يعد يرسل ضوءه، لقد اختفى في الأفق وراء حافة الأرض، وهذا يعني أن الليل كان في أواخره.

قالت أنّا: "ولماذا لا تخبرني بحظي الآن، أيها السيد؟"

أجاب أندرسين في لهجة اليقين: "ستكونين أمًا لعائلة كبيرة، سيقف أولادك

في صف طويل، ينتظر كل منهم دوره في الحصول على إبريق لبن، وستقضين وقتًا طويلًا كل صباح في غسل وجوههم ومشط شعورهم، بَيد أن زوج مستقبلك سيساعدك في خدمتهم."

قالت أنّا: "لا تقل لي إنه بيترو، ذلك الفظ الضخم، إنه لا ينفعني".

"وستقضين وقتًا أطول في تقبيل عيون أولادك وبناتك الصغار المتألقة، شوقًا إلى معرفة كل شيء."

قال القسيس غاضبًا: "لا يتصور أنه يُفرض عليّ أن أسمع مثل هذا الهراء الفاضح المخجل في أرض البابا نفسه!" غير أنه ما من أحد أعاره أقل انتباه.

بعد ذلك امتلأت العربة بهمسات الفتيات المختلطة بالضحكات الرقيقة، وأخيرًا استجمعت ماريا شجاعتها وقالت: "والآن، أيها السيد، بما أنه ليس لنا موهبة الرؤية في الظلام، وقراءة ما بأذهان الناس، نرجو أن تخبرنا شيئًا عن نفسك."

أجاب أندرسين قائلًا: أنا شاعر متجول، صغير السن ذو شعر كثيف متموج ووجه اسمر بشدة من لفحة الشمس، وعينين زرقاوين ضاحكتين، لا اهتم بالدنيا، ولا يشغل قلبي حب ولا هيام، ولي غواية تقديم الهدايا الصغيرة لسواي من البشر، وأن أقوم ببعض الدعابات أو الحماقات."

"وما نوع هذه الحماقات؟"

"في الصيف الماضي، مثلًا: كنت في جوتلاند **Jutland** وأقمت بمنزل صاحب غابة أعرفه، وذات يوم بينما كنت أتجول في الغابة عثرت على بقعة ليس بها أشجار مليئة بفطر عيش الغراب، فرجعت إلى الغابة في نفس ذلك اليوم، فوضعت هدية صغيرة أسفل كل نبتة من ذلك الفطر، كقطعة من الحلوى

المغلفة بورق الفضة، أو بلحة، أو "كستبان" مربوط بشريط من الحرير، وفي الصباح التالي، أخذت ابنة صاحب الغابة، التي كانت في السابعة من عمرها، إلى الغابة لأشاهد سرورها واغتباطها عند رؤية الهدايا البسيطة تحت الفطر، كان كل شيء وضعته في اليوم السابق موجودًا في مكانه، ما عدا البلحة، ومن الجلي أن غرابًا التقطها، وأكدت للطفلة أن تلك الهدايا قد وضعتها صغار العفاريت أسفل فطر عيش الغراب."

قال القسيس محتدًا: "لقد خدعت طفلة بريئة، أيها السيد، وهذه خطيئة عظيمة."

قلت: "لم يكن خداعًا وإنني لعلى يقين من أن تلك الطفلة ستظل تتذكر دعابتي الصغيرة طول حياتها، وأستطيع أن أؤكد لك أنها لن تكون فظة القلب عندما تكبر كأولئك اللواتي لم يحظين مثلها بالدعابات في طفولتهن، وفضلًا عن هذا فأحب أن أعلم قداسة الأب المحترم أنه ليس من عادتي الإصغاء إلى أي لوم لا مبرر له."

وقفت العربة فجأة، فبقيت الفتيات جالسات لا يتحركن كما لو كن تحت تأثير رقية من السحر، وكانت إيلينا جيتشيولي تخفض رأسها الصامت.

فصاح الحوذي يقول: "استيقظن أيتها الحسان، لقد وصلنا ."

نهضت الفتيات بعد أن تبادلن بعض الهمسات، وأحس أندرسين بذراعين قويتين رخصتين توقان عنقه، وشفتين ساخنتين تلتقيان بشفتيه.

قالت الشفتان: "شكرًا لك!" وتبين أندرسين صوت ماريا .

كذلك شكرته نيقولينا، وكانت قبلتها لطيفة ورقيقة، وأحس أندرسين بشعرها الناعم يلمس خده، أما قبلة أنّا فكانت بصوت مسموع .

نزلت الفتيات إلى الأرض، فأسرعت العربة تنطلق على طول الطريق الحجري، أطل أندرسين من نافذة العربة، غير أنه لم يستطع رؤية شيء خلا القمم الدكناء للأشجار تمتد وسط سماء تشوبها خضرة ما قبيل الفجر.

وجد أندرسين أن فيرونا مدينة تأنقت فيها الهندسة المعمارية الرائعة، فهذه واجهات فخمة في مبانيها الجميلة، تتسابق كل منها مع الأخرى في الجمال والإتقان، ويرتاح القلب لرؤية خطوط الانسجام فيها، بَيد أنه لم تكن هناك راحة في قلب أندرسين.

أقبل المساء فإذا بأندرسين في شارع ضيق يصل إلى قلعة أمام قصر عتيق تقيم به جيتشولي، دق الجرس ففتحت إيلينا الباب بنفسها، كانت ترتدي ثوبًا من المخمل الأخضر يلتصق بتقاطيع جسدها النحيل، وجعل عينيها تبدوان في خضرة عيون الفالكيري) Valkyrie الفالكيري في الميثولوجيا النرويجية فتيات أنصاف آلهة، محاربات في جيش أودينOdin ، على شيء عظيم من الفتنة والإغراء، ويحاربن في البر وفي البحر وفي الجو). فألفى نفسه أمام جمال يحار فيه النظر، مدت إليه كلتا يديها، وأمسكت راحتيه العريضتين بأصابعها البضة الرطبة، وقادته وهي تسير للخلف، إلى بهو صغير.

قالت ببساطة: "كنت أتلهف إلى قدومك".

امتقع لون أندرسين عند سماع هذه الألفاظ، لم يكن يفكر، طول يومه، في شيء سواها وهو يكتب عواطفه، كان يعرف أنه جدير بأن يحب سيدة إلى حد العبادة، ويحب كل كلمة تخرج من شفتيها، وكل رمش يسقط من جفونها، وكل ذرة رماد على ثوبها، غير أنه كان يعلم أيضًا أنه لو ترك العنان لمثل هذا الحب أن يتمكن منه لفجر قلبه، إنه ليحمل في آلاف أفراحه آلاف أنواع العذاب، وفي ابتساماته العبرات، لن يقوى على احتمال حالات الحب المتغيرة غير

المتوقعة، ألا يستطيع الحب أن يسلبه القوة على كتابة قصصه الخيالية؟ وماذا تساوي حياته بعدئذ؟

لن يكون حبه مجزيًا، عرف ذلك من تجاربه، فإن أولئك النساء أمثال: إيلينا جيتشيولي متقلبات، وستتحقق في أحد أيام غضبها أن أندرسين غير جذاب على الإطلاق، وحتى هو الآن، ليس فيه ما يحب، فكم من مرة سمع عبارات السخرية تلقى نحوه من وراء ظهره، فيتصلب لها بدنه، ويتعثر في مشيته، ويود لو أن الأرض تبتلعه.

حاول أن يقول لنفسه: "لا وجود للحب الخالد الذي يمجده الشعراء، إلا في خيالنا، أظن أنني أستطيع الكتابة عن الحب أكثر مما أمارسه في الحياة الواقعية."

ذهب إلى إيلينا جيتشيولي وكله عزيمة ثابتة على ألا يراها بعد ذلك إطلاقًا، ولكن هل يخبرها بهذا ولما يدر بينهما حديث قط، ولم تقع عين كل منهما على الآخر إلا الليلة الماضية في العربة التي أقلتهما إلى فيرونا؟

وقف أندرسون بباب الحجرة وجالت عيناه حول جدرانها، فرأى في أحد الأركان الذي يضيئه الشمعدان، رأس ديانا المصنوع من الرخام الأبيض يميل وجهها إلى الصفرة من فرط جمالها.

قال أندرسين: "أخبريني، من ذا الذي جعل تقاطيع وجهك خالدة في صورة ديانا؟"

قالت: "إنه كانوفا"Canova ، وأرخت عينيها، فأحس أندرسين بأنها قد أدركت مكنون أفكاره.

قال بصوت مبحوح: "أتيت لأقدم لكِ احترامي، ثم أفر من فيرونا".

قالت وعيناها تنظران في عينيه: "لقد عرفت من أنت، إنك هانز كريستيان أندرسين، الشاعر الذائع الصيت، وكاتب القصص الخيالية المشهور، غير أنه يبدو أنك تخشى أن تعيش في قصة خيالية في حياتك، ليست لك الشجاعة لأن تحب ولو إلى فترة قصيرة."

أجاب معترفًا: "هذا صحيح ."

قالت السيدة في اكتئاب، وهي تضع يدها على كتف أندرسين: "إذن فقد تفر، يا شاعري المتجول، وقد يكون الضحك في عينيك دائمًا، لا تفكر فيّ، ولكن إذا أصابك مكروه، أو العجز، أو الفقر، أو المرض، انطق بكلمة واحدة تجدني، مثل نيقولينا، أسرع إلى نجدتك حتى ولو سرت إليك آلاف الأميال خلال الجبال والصحاري الجرد."

ارتمت إيلينا في مقعد وغطت وجهها بيديها، فطقطقت الشموع في الشمعدان، واستطاع أندرسين أن يرى دمعة تبرق بين أصابعها، ثم سقطت وتدحرجت ببطء على مخمل ردائها، فاندفع إلى جانبها، وجثا على ركبتيه ووضع وجهه على ساقيها الدافئتين الدقيقتي التكوين، فأخذت رأسه بين يديها وانحنت نحوه وقبلته من شفتيه.

انحدرت عبرة أخرى على وجهه وذاق ملوحتها.

تمتمت إيلينا بضع كلمات بصوت رقيق، فقالت: "انصرف! ولتكن الآلهة رحيمة بك".

نهض أندرسين فأخذ قبعته وخرج مسرعًا، وكانت أصوات الأجراس تملأ شوارع فيرونا.

لم يلتقيا بعد ذلك قط، بَيد أنه لم يكف كل منهما عن التفكير في صاحبه.

وهذا ما قاله أندرسين ذات مرة قبل وفاته لكاتب شاب: "لقد دفعت ثمنًا باهظًا لقصصي الخيالية، ثمنًا مروعا، لقد ضحيت من أجلها بسعادتي الشخصية، وأضعت وقت حياتي الذي كان يجب فيه علي الخيال، رغم كل قوته وعظمته، أن يخلي مكانًا للحقيقة، إنك تستخدم خيالك، يا صديقي، لإسعاد غيرك ولإسعاد نفسك."

كتاب صور حياة بعض الشخصيات

منذ عشر سنوات تقريبًا بدأت تصميم وضع كتاب يشمل سلسلة من صور حياة شخصيات اعتقدت أنها ستكون ممتعة جدًا رغم صعوبة كتابتها يجب أن تكون هذه الصور مختصرة ولكن بطريقة جذابة، فشرعت أكتب قائمة بأسماء شخصيات هامة أتناولها في كتابي.

رغبت في أن أضمن كتابي بالإضافة إلى تواريخ حياة مشاهير الرجال، نبذات قصيرة عن شخصيات مختلفة ممتعة، التقيت بهم أنا نفسي في وقت من الأوقات، لم يحظ هؤلاء بالشهرة ولم ينالوا الزعامة، ولكنهم جديرون بكلتيهما، ولسبب نوم الحظ عنهم، قضوا حياة غامضة ولم يخلفوا أثرًا يدل عليهم، وأعظم ميزاتهم أنهم كانوا بعيدين عن الأنانية ومثاليين غيورين يعملون بتأثير هدف أوحد.

من بين هؤلاء الكابتن أولينين– فولجار**Olenin– Volgar** ، الذي كانت حياته غريبة، نشأ في أسرة من الموسيقيين وتعلم الغناء في إيطاليا، ولما اجتاحته رغبة في التجول خلال أوروبا على قدميه، ترك دروس الموسيقى وأخذ يطوف بإيطاليا وفرنسا وإسبانيا، كمُغنٍ متجول ينشد الأغاني الشعبية لهذه الممالك بمصاحبة القيثارة .

تعرفت بأولينين– فولجار في عام ١٩٢٤ بمكتب إحدى صحف موسكو، وكان وقتئذ نحيف الجسم هزيل البنية يلبس حلة ربابنة الأنهار، وذات يوم بعد أن انتهينا من العمل رجوناه في أن يغنينا. فرن صوته فتيًا رائع الإيقاع في جميع النواحي، وإذ شجانا

الصوت أخذنا نسمع بآذان صاغية إلى الأغاني الإيطالية التي كانت تنساب في سهولة واضحة على وقع نغمات الباسكBasque ، والحماس الحربي لنشيد المارسلييز، تحمل معها نداءات البوق ودخان ساحات القتال.

عمل أولينين– فولجار بحارًا بعد تطوافه بأوروبا، وتقدم ليكون ربانًا، فأبحر في سائر جهات البحر الأبيض المتوسط، طولًا وعرضًا عدة مراتت، فلما عاد إلى روسيا، أصبح ربانًا لسفينة ركاب بنهر الفولجا، وأيام أن تعرفت به كان يسافر من موسكو إلى نيزهني– نوفوجورودNizhni– Novogorod ، وبالعكس.

كان هو أول من خاطر بقيادة سفينة ركاب ضخمة من نهر الفولجا خلال "الأهوسة" الضيقة العتيقة لنهر موسكفاMoskva ، بعد أن قرر جميع زملائه استحالة الإبحار خلالها، كما كان أول من قدم مشروعًا لتقويم مجرى نهر موسكفا قرب منطقة مارشوجي Marchugi الشهيرة بخطرها حيث يتعرج النهر، كانت هناك عدة تعاريج في مجرى النهر بهذه المنطقة، لدرجة أن مجرد رؤيتها على الخريطة كانت كافية للذعر، كتب الكابتن أولينين– فولجار عدة مقالات عن أنهار روسيا– ولكن هذه المقالات فُقدت وغدت في حيز النسيان، كان يعرف جميع الأماكن الخطرة والضحلة في عشرات من أنهار روسيا، وكانت له خطط بسيطة فعالة لتحسين الملاحة في هذه الأنهار.

كان أولينين– فولجار يقضي وقت فراغه في ترجمة "الكوميدية المقدسة" لدانتي، إلى اللغة الروسية.

لقد كان بحق رجلًا مستقيمًا كريم القلب محبًا للمغامرة، وكان احترامه للناس جميعًا بقدر واحد على السواء، بغض النظر عن مراكزهم في الحياة، فهم "قوم طيبون في هذه الأرض الطيبة" يخدمون هدف الشعب.

كان أمين المتحف الإقليمي بمدينة صغيرة في روسيا الوسطى أحد أصدقائي الأعزاء ذوي النفوس الطيبة، كان المتحف الذي يشتغل فيه صديقي هذا بمبنى بالغ القِدم، ولم يكن هناك من يساعده في الاهتمام بأمر ذلك المتحف غير زوجته، وفضلًا عن العناية بالمعروضات وحفظ الملفات، كان يقوم هذان الزوجان بجميع التصليحات والأعمال اليومية الأخرى، وحتى بإحضار أخشاب التدفئة في الشتاء.

مررت بالمتحف ذات مرة فوجدتهما مشغولين بأمر غريب، كانا يجمعان كل حصاة صغيرة وكل قطعة من الطوب يجدانها بالطريق حول المتحف، ويحملانها إلى الفناء الخلفي، يبدو أن بعض صبيان الشارع قد حطموا زجاج نافذة بالمتحف، فأخذ الزوجان يطهران الطريق من القذائف.

درس ذلك الأمين كقطعة بالمتحف، ووصفها بالتفصيل: من نموذج للمخرمات (الدنتلا) القديمة، وعينة نادرة من آجر البناء في القرن الرابع عشر، إلى قطعة من البيت (البيت هو أحقر أنواع الفحم الحجري وأقلها في نسبة الكربون)، وفأر الماء الأرجنتيني المحنط أو المحشو بالقش الذي جلب فيما مضى ليربى في البرك المجاورة.

كان أمين المتحف هذا لا يتدخل في شيء لا يعنيه، ويتحدث بصوت منخفض، ويسعل لإخفاء حيائه، ويسره أن يطلع الزائرين على ما يفخر به المتحف: من لوحة للرسام بيربليتشيكوفPerepletchikov ، استطاع أن يلتقطها من داخل دير مقفل، كانت منظرًا طبيعيًا فائق الروعة –منظرًا من كوة عميقة مفتوحة– يبين منظر الغسق في البقاع الشمالية ومعه جراء غلبها النعاس وسطح ماء بحيرة صغيرة يتألق كأوراق الفضة.

كان أمين المتحف يجد صعوبة جمة في عمله ولا يعترف دائمًا بالمجهود الذي يبذله، بَيد أنه مع ذلك كان يدأب على إنجاز واجباته بجد ونشاط، لا يضايق أحدًا وحتى لو لم يكن متحفه ذا منفعة عظيمة للمجتمع، أليست حياته نفسها مثلًا يحتذى به في الإخلاص للهدف، والحشمة، والوطنية الإقليمية ومحبته للناس المحيطين به؟

قرأت منذ مدة وجيزة قائمة الشخصيات التي كنت سأتناولها في كتابي عن صور من تواريخ الحياة، الذي وضعت تصميمه، فالقائمة طويلة وتشمل كثيرًا من الكُتاب، وسأختار منها بعض الأسماء كيفما اتفق.

دوّنت بجانب اسم كل كاتب مذكرات مختصرة مفككة، أكثرها عن العواطف التي أثارها هؤلاء الكتاب في نفسي، ويسرني أن أذكر هنا بعضًا من هذه المذكرات..

تشيكوف

توضح الصحف الكثيرة التي تركها لنا تشيكوف، أهميتها في عالم الأدب، ومع ذلك فمن النادر جدًا أنه استعمل في قصصه شيئاً مما كتبه في جرائده.

هناك أيضًا صحف إيليا إلف وألفونس دوديت Alphonse Daudet ، ومذكرات ليف تولستوي وإخوان جونكورت Goncourt والكاتب الفرنسي رينارRenard ، وكثير غير هؤلاء.

لهذه الصحف والمذكرات الحق الشرعي في اعتبارها نوعًا مستقلًا من الأدب، وخلافًا لآراء كثير من الكُتاب، أرى عدم نفعها كمصادر مادة وإيحاء للكُتاب .

داومت أنا نفسي على قراءة إحدى الصحف لفترة من الزمن، غير أنني كلما حاولت اختيار موضوع ممتع منها لأدخله في القصة التي أكتبها في ذلك الوقت، لم يتناسب الموضوع مع القصة بطريقة ما، ويظل مفككًا غير مرتبط.

ربما كان السبب في ذلك أن المادة المخزونة باطنيًا في ذاكرتنا أهم بكثير من المذكرات التي ندونها في أي وقت من حياتنا، وما لا نعهد به إلى الذاكرة وندونه، قلما يكون ذا نفع، فالذاكرة أوثق مرشحٍ للمادة، إنها منخل معقد، تبعد الخبث الذي لا نحتاج إليه، وتحتفظ بحبات الذهب لنلتقطها ونستعملها.

كان تشيكوف طبيبًا قبل أن يكون كاتبًا، وفي اعتقادي أنها فكرة حسنة أن يشغل الكاتب نفسه، لبعض الوقت، بمهنة غير الأدب.

ولما كان تشيكوف طبيبًا، فقد ساعده ذلك على أن يعرف الكثير عن الناس، كما كان له أثر كبير في أسلوبه إذ جعل نثره محللًا دقيقًا كمبضع الجراح، والحقيقة أن بعض قصصه (مثل: "العنبر رقم ٦" و"القصة المملة" و"الصرصور") قد كُتب بمهارة فائقة وهو سجل لتاريخ الحالات التي عالجها محلل نفساني.

يتميز نثر تشيكوف بالتماسك وجودة السبك، فكثيرًا ما كان يقول: "اشطب كل ما هو سطحي، وجميع الألفاظ الزائدة، والتعبيرات البذيئة، وحاول جهدك أن تعطي كل جملة موسيقاها السمعية"، وكان يكره كثيرًا من الكلمات الأجنبية الأصل، حتى إنه تحاشى استعمالها.

قضى تشيكوف وقتًا طويلًا من حياته في تحسين نفسه، فقال إنه كان يستأصل من طبيعته بالتدريج جميع العناصر التي جعلته عبدًا للأشياء، وإذا فحصنا صوره فحصًا تاريخيًا منذ شبابه إلى آخر سني حياته، وجدنا اختفاء آثار الطبقة المتوسطة من منظره، شيئًا فشيئًا، وتدرج نمو وجهه رزانة ووقاراً، وأناقة ملبسه مع بساطته.

هناك ركن صغير في أرضنا عزيز على الجميع، ذلك هو منزل تشيكوف في يالتا .**Yalta** سيظل التفكير في هذا المنزل يذكرنا، لعدة أجيال، بأيام صبانا، وصوت حارسته الطيبة المحبة للناس ماريا بافلوفنا**Maria Pavlovna** ، شقيقة تشيكوف التي اشتهرت باسم ماشا **Masha** عزيزة تشيكوف.

زرت منزل يالتا ذاك لآخر مرة سنة ١٩٤٩، وجلست مع ماريا بافلوفنا في شرفته، وكانت الأزهار البيضاء ذات الأريج العبق تحجب يالتا والبحر عن الأنظار. وأخبرتني ماريا بافلوفنا أن تشيكوف قد زرع تلك الأزهار بنفسه. وتذكر أنه كان يطلق عليها أسماء خيالية، غير أنها لا تتذكر الأسماء نفسها،

وتتحدث ماريا بافلوفنا عن أخيها بطريقة خاصة كما لو كان على قيد الحياة وغائباً عن المنزل لمدة قصيرة، في زيارة إلى موسكو أو نيس.Nice

قطفت إحدى زهرات الكاميليا من حديقة تشيكوف وأعطيتها فتاة صغيرة كان صحبتي لزيارة ماريا بافلوفنا، ولكن هذه الطفلة عديمة التفكير رمت الزهرة في مجرى ماء جبلي من فوق جسر كنا نجتازه، فحملتها المياه إلى البحر، كان لا بد لي من أن أوبخها على ذلك التصرف لولا أنني شعرت في ذلك اليوم بأن تشيكوف قد يحضر وسطنا في أية لحظة، ويسوؤه قطعًا أن أزجر فتاة صغير حية ذات عينين خضراوين على شيء تافه كإلقاء زهرة كاميليا قطفت من حديقته، في الماء.

اسكندر بلوك

من بين أشعار بلوك Blok القصيرة المعروفة، قطعة تسمى "لف الليل الدافئ الجزر"، وبها سطر طويل حلو يذكرنا بشبابنا الضائع منذ أمد بعيد –وترجمته "ربيع أحلامي المبكرة"– وإن ألفاظه الروسية لراقية سامية والسطر نفسه من وحي إلهي، وما ينطبق على هذا السطر ينطبق على جميع أشعار بلوك.

كنت أتلهف إلى السير في جميع رحلاتي إلى لننجراد (السير وليس ركوب السيارات أو الترام) فأسير الطريق كله إلى بريازكا Pryazhka، وأبحث عن المنزل الذي كان يقيم به بلوك ومات فيه.

خرجت ذات مرة أبحث عن ذلك المنزل، فضلت طريقي خلال الشوارع المهجورة والقنوات الموحلة لتلك المنطقة البعيدة عن العمران. وأخيرًا وصلت إلى شارع جانبي، فوجدت به منزلًا لم يكن يسكنه بلوك، بل دوستويفسكي Dostoyevsky، كان منزلًا باهت اللون مبنيًا بالآجر، في جانب واجهته لوحة تذكارية..

رغم ذلك داومت البحث عن ذلك المنزل، فعثرت أخيرًا، منذ مدة ليست ببعيدة، على البيت الذي كان يقيم فيه بلوك، على ضفة البريازكا، كان ذلك النهر الأسود مليئًا بأوراق أشجار فصل الخريف الذابلة، وتمتد خلفه أرصفة ميناء المدينة الصاخبة وأفنية السفن، تسبح فوقها سحب الدخان ثم ترتفع في سماء الغسق الكالحة، أما النهر نفسه فكان هادئًا موحشًا كتلك المدينة الإقليمية .

عجبت في نفسي وقلت: "يا له من مأوى غريب لشاعر مثل بلوك! أركان بلوك يأمل في أن يجد بهذه الجهة الهادئة، غير البعيدة عن البحر، الطمأنينة التي يبحث عنها قلب مضطرب؟"

جي دي موباسان

"كانت حياته كتاباً مقفلاً بالنسبة لنا"

رنيار

كان لموباسان يخت وهو يعيش في الريفييرا أطلق عليه اسم "الصديق الجميل" وقد كتب أكثر قصصه تشاؤمًا وأقواها، ألا وهي "فوق الماء"، على ظهر ذلك اليخت.

كان لليخت ملاحان –أكبرهما يسمى برنار Bernard– حضرا ذلك الكاتب الفرنسي العظيم أيام أن كان يناضل في آخر شهور حياته المؤلمة، فحاولا جهديهما أن يكونا مرحين مع حسن التفاهم بقدر الإمكان، فلم تصدر منهما كلمة أو إشارة تشي بخوفهما على حياة ذلك الكاتب لقد شاهداه والألم يحز في قلبيهما، يساق إلى الجنون بسبب الصداع الفظيع الذي حرمه الراحة، أكثر مما ساقته الأفكار التي أربكت عقله.

عندما توفي موباسان، ربما كان البحاران يعرفان خيرًا من كثيرين آخرين أن موباسان كان ذا قلب فخور بالغ الإحساس، فلم يرغبا في أن يقع اليخت في يد أجنبي، وعلى ذلك كتبا خطابًا، بخطهما الرديء، إلى صحيفة فرنسية يناشدان أصدقاء موباسان وجميع كُتاب فرنسا أن يشتروا اليخت، ولكن دون جدوى، ورغم أنهما أصبحا فقيرين أنشب الإملاق فيهما أظفاره، فقد احتفظا باليخت في عهدتهما أطول مدة قدر استطاعتهما، وأخيرًا باعاه للكونت بارتلمي Barthelemy أحد الكسالى الواسعي الثراء.

ولما احتضر برنارد، قال لأصدقائه: "وعلى أية حال، لم أكن بحارًا رديئًا."

نستخلص من هذه الكلمات البسيطة، حياةً قضاها بنبل، ويمكن تطبيقها كذلك على حياة موباسان ومؤلفاته.

كانت حياة موباسان ككاتب، حياة متقلبة بشكل غريب، فقال عن نفسه: "دخلت الحياة الأدبية كالشهاب، وسأهجرها كالبرق".

ولما كان يلاحظ ما يدور في العالم، بغير تحيز، وكان أستاذًا في التشريح أطلق على الحياة اسم "عيادة الكاتب"، وكان أستاذًا في التشريح أطلق على الحياة اسم "عيادة الكاتب"، فقد عرف في أواخر حياته قيمة الحياة الشريفة والمحبة غير الدنسة.

وحتى في أواخر أيامه عندما أصيب في عقله بمرض غير معروف، بلغنا أنه ندم غاية الندم على إعراضه عن السلوك النبيل في الحياة وانغماسه في ملذاتها.

وبصفته قائد سفينة الحياة، فهل وجه زملاءه من المخلوقات إلى هدف معين؟ وأي وعد بالتنفيذ حصل عليه منهم؟ لا شيء... لقد عرف الآن أنه لو أفسح المجال للمقارنات في كتاباته، لكانت البشرية قد ذكرته بتقدير أعظم وبعرفان للجميل.

كان يتلهف إلى الحب تلهف الطفل المهمل، يقطب جبينه ويغضب، لقد أدرك أن الحب ليس شهوة، وإنما هو تضحية للذات وبهجة عظيمة ولذة شعرية، بَيد أن إدراكه هذا جاء بعد فوات الأوان، فلم يجن غير الندم وتبكيت الضمير.

لقد تحكم على الحب وسخر ممن أحببنه، فلما هامت بغرامة الآنسة باشكيرتسيفاBashkirtseva ، المصورة الروسية، رد عليها بخطاب ساخر ينم على شيء من الدلال يعبر فيه عن غروره برجولته ليس غير.

بَيد أن حبًا حقيقيًا آخر أفلت من بين يديه وندم عليه أكثر من ندمه على

حب الفتاة السابقة، فقد تذكر الفتاة الباريسية الحسناء التي لم يسفر حبها إلا عن أنه صار مادة لإحدى قصص بول بورجيهPaul Bourget ، فأخذ يفكر وهو يتميز غيظًا، كيف تجاسر ذلك العالم النفساني لغرف الجلوس أن يعبث في وقاحة بالمآسي البشرية الحقيقية، غير أن اللوم في ذلك كله يقع على عاتق موباسان نفسه، ولا يمكن عمل شيء الآن إذ لم تعد له القدرة على محاربة الداء، كان في استطاعته أن يسمع صوت البلورات الدقيقة الحارة وهي تخترق ثنايا مخه.

إنها لغادة فاتنة بريئة! كانت تقرأ قصص موباسان، وما إن وقعت عيناها على موباسان مرة واحدة فقط حتى تمكن الحب من قلبها بكل ما للشباب من قوة وشغف، وكان قلبًا طاهرًا لا يعرف للخداع معنى ولا للعش وجودًا، أصفى من عينيها النجلاوين.

يا لها من مخلوقة ساذجة؛ علمت أن موباسان أعزب، فوضعت في ذهنها أنها وحدها، وليس أية فتاة سواها، هي التي تصلح لأن تكون شريكة حياته وزوجته وخادمته.

كانت فقيرة ملبسها غير لائق؛ ولذلك استمرت تجوع نفسها عامًا كاملًا لتدخر كل سنتيم في مقدورها ادخاره لتشتري لنفسها ثيابًا فاخرة لتظهر بها أمام موباسان.

وأخيرًا أعدت الملابس فاستيقظت في الصباح الباكر وباريس كلها لا تزال نائمة يغشاها ضباط الأحلام وقد بدأت أوليات أشعة الشمس الذهبية تخترق الأفق، تلك هي الساعة الوحيدة التي يسمع فيها تغريد الأطيار في طرقات المدينة الحالمة.

بعد أن استحمت بالماء البارد في تؤدة ورقة وعناية تليق بالأجسام ذات الجمال الهش العطر، بدأت تلبس الجورب الشفاف والحذاء الصغير البراق، وأخيرًا ثوبها الثمين الفخم، فلما نظرت إلى صورتها في المرآة لم تصدق عينيها، إذ بدت أمام ناظريها غادة على قدر جم من الفتنة والإغراء، نحيلة القد، ناضجة الأنوثة، تختال في مرح وتتأجج في هيام، ذات عينين تلمعان بالحب، وفم ياقوتي دقيق جميل التكوين، والآن ستقدم نفسها إلى موباسان، وتعترف له اعترافًا كاملًا.

ما هي إلا بضع ساعات حتى كانت تدق الجرس عند باب مسكن موباسان الصغير بقرب باريس، فاستقبلها أحد أصدقاء ذلك الكاتب، وكان شابًا سادرًا وماجنًا لا يستحي، فأخبرها وهو يضحك، وعيناه تكادان تلتهما انحناءات جسمها الرخص، بأن المسيو موباسان قد ذهب مع معشوقته لقضاء بضعة أيام في إترتاه .Etretat

عادت الفتاة أدراجها مسرعة تتعثر في مشيتها، وخرجت وهي تتشبث بالدرابزين بيدها ذات القفاز.

أسرع صديق موباسان خلفها وأركبها عربة، وأوصلها إلى باريس، فبكت الفتاة بكاء مراً وبلغ بها القنوط غايته حتى إنها تمتمت بعبارات الانتقام، وأسلمت نفسها إليه في تلك الليلة وهي في إحدى نوبات اليأس، وبعد مضي عام كانت من بنات الهوى الشهيرات في باريس.

عندما أخبر الصديق موباسان بالقصة، لم يتصور أن هذا الصاحب تصرف مع هذه الفتاة المسكينة تصرف السفلة الأنذال، وكان أقل ما يجب عليه أن يفعله هو أن يصفعه على وجهه، ولكنه بدلًا من ذلك اعتبر المسألة أمرًا مسليًا، وظنها موضوعًا غير رديء يصلح مادةً لقصة...

يا لها من مأساة أن أصبح عاجزًا كل العجز وقتئذ عن إدارة عجلات الزمن إلى اليوم الذي وقفت فيه تلك الفتاة العاملة بباب داره كأنها الربيع العاطر، جاءت لتهب قلبها بإخلاص! لم يعرف حتى اسمها، إلا أنها غدت الآن عزيزة على نفسه، ففكر في جميع أسماء التدليل التي يمكن أن يسميها بها.

ولما بخعه الألم من أجلها، كان على استعداد لأن يقبل الأرض التي مشت فوقها ويسألها الصفح، هو بنفسه موباسان العظيم الرفيع القدر، ولكن سبق السيف العذل؛ فغدت القصة عذرًا للكاتب بورجيه لكي يطنب ويسهب في الحديث عن تصرفات القلب البشري.

تصرفات القلب، لقد كانت محبة الفتاة له عاطفة نبيلة، هي قدس الأقداس في دنيانا غير الكاملة، كان في مكنته أن يكتب عنها قصة رائعة لولا العواطف التي كانت تتنازع في ذهنه، وتأكله، وتضعف قوته على التفكير وعلى الحياة.

ماكسيم جوركي

كُتبت "رزم" من الأوراق عن ماكسيم جوركي، وإنه لتكون جرأة مني أن أضيف، ولو، سطرًا واحدًا عن شخصيته، فما بالك بثروة لا تنفذ !

ربما كان تأثير جوركي في نفس كل فرد منا أعظم من تأثير أي كاتب آخر، لدرجة أننا نشعر بوجوده بيننا، ويسري ذكره باستمرار على شفاهنا.

أما بالنسبة لي، فإنني أعتبر أن جوركي هو روسيا، وكما أنني لا أستطيع أن أتصور روسيا بدون نهر الفولجا، فإنه لا يمكنني أن أتصورها بدون جوركي.

يمثل جوركي أنبل نابغة في الشعب الروسي، إنه إحدى الشخصيات البارزة في عصر ثورتنا، لقد أحب روسيا وعرفها كما أحبها وعرفها القليلون، فبذل مجهودًا جبارًا، ولم يدخر وقتًا في إبراز وإنماء المواهب البشرية، وبهذا كان نصيبه أعظم من نصيب أي كاتب آخر من كُتاب عصره في تبني الأدب السوفييتي، لم يفته شيء ما في البلاد كلها مهما كان تافهًا، لقد امتدت آفاقه إلى مدى أبعد من الأدب بكثير، وترك فيها آثار وسمات مواهبه.

تأثرت بقداسة شخصية جوركي منذ أول مقابلة لي معه، ولم تستطع انحناءته ولا لكنته الخشنة عندما يتحدث بلهجة الفولجا، أن تُقللا من هذا التأثير، فمن الجلي أن شخصيته بلغت مبلغ الكمال الروحي عندما أبرزت طهارته الداخلية طابعها في مظهره وحركاته وطريقة كلامه، وحتى في ملبسه.

اختلطت قداسته بقوة شخصيته، فبدت في حركاته يديه العريضتين، وفي رزانة نظرته، وفي مشيته، وفي عدم اكتراثه بالمظاهر الفنية الذي جعله يرتدي الملابس الواسعة الفضفاضة.

تأثرت بالحكاية التالية التي أخبرني بها أحد الكتاب الذي نزل ضيفًا على جوركي في منزله الكريمن Crimean بمدينة تيسيليTesseli ، لدرجة أنها ساعدتني على تكوين صورة ذهنية واضحة لذلك الكاتب العظيم.

استيقظ هذا الضيف مبكرًا ذات صباح وأطل من النافذة فرأى عاصفة هوجاء تزمجر فوق البحر، كانت الريح الجنوبية تصفر في الحديقة، وأحدثت خشخشة في مبينات اتجاه الرياح.

وعلى مسافة من البيت، أبصر جوركي واقفًا أمام شجرة حور ضخمة، متكئًا على عصاه، وينظر إلى أعلى الشجرة التي اهتزت أوراق قمتها بعنف فملأت الجو حفيفًا عاليًا أشبه بصوت "أرغون" ضخم، وقف جوركي لمدة طويلة عاري الرأس ينظر إلي فوق نحو الشجرة، ثم تمتم شيئًا لنفسه، وابتعد عنها متجهًا نحو الحديقة، يتوقف بين آونة وأخرى لينظر خلفه إلى تلك الشجرة.

وفي أثناء العشاء طلب ذلك الكاتب من جوركي أن يخبره بما قاله لنفسه وهو ينظر إلى الشجرة.

فقال جوركي ضاحكًا: "إذن فقد كنت تتجسس عليّ لا أبالي بأن اخبرك بما قلته، وماذا يهمني من إفشائه"!

أذكر أنني زرت جوركي في أحد أيام الصيف بمنزله الريفي غير البعيد عن موسكو. وكانت السحب الفضية تتحرك ببطء في جو السماء، وتسربلت الطبيعة خلف نهر موسكفا بغلالة خضراء فألقت على التلال ظلالًا تترنح ذات

اليمين وذات الشمال، وكان النسيم الدافئ يجتاح غرف البيت.

طفق جوركي يناقشني في روايتي "Colchis" التي ظهرت في ذلك الوقت، وقد وُضعت مناظرها في المناطق المدارية، فأخذ يحدثني كما لو كنت خبيرًا بالحياة في تلك الأصقاع، وإذا أردت الحق؛ أحرجني، لدرجة أنني تنفست الصعداء عندما انتقل بنا الحديث إلى مناقشة أخرى تدور حول انتشار الملاريا بين الكلاب، إذ قال جوركي إن الكلاب لا تصاب بهذا المرض؛ ثم اعترف بخطئه في الحال، وقلب المناقشة كلها إلى مزاح. كان يتكلم بلغة جزلة حماسية لا تتأتى لكثيرين منا الآن.

أخبرت جوركي في هذه الزيارة عن كتاب اسمه "طبقة الجليد" من تأليف الكابتن جارنيت Garnet الذي كان في وقت مضى سفير روسيا لدى اليابان، كتبه هناك وصف حروفه بنفسه إذ لم يجد بين عمال صف الحروف اليابانيين من يعرف اللغة الروسية، طبع منه خمسمائة نسخة فقط، وكنت سعيدًا جدًا إذ أمكنني الحصول على نسخة منه.

يشرح الكابتن جارنيت في ذلك الكتاب نظرية مسلية ممتعة، ولن أخوض في تفاصيلها إذ تتطلب متسعًا كبيرًا لا يسمح به هذا المؤلف، ولكنها بالاختصار تقول بإمكان تحويل جو أوروبا إلى جو مداري من العصر الميوسيني، إذا زرعت غابات من أشجار المانوليا والسرو بطول شواطئ خليج فنلندة وعلى حدود سبتسبرجين .Spitsbergen فلكي نعود إلى العصر الميوسيني ونرجع إلى العصر الذهبي لمزروعات أوروبا، يجب صهر طبقة الجليد التي تغطي سطح جرينلاند، ولما كان هذا مستحيلًا تمامًا، فقد انهارت نظرية الكابتن جارنيت رغم كونها مبنية على مناقشات مقنعة إلى أقصى حد من الإقناع، وربما كان هناك احتمال أعظم لتطبيق هذه النظرية الآن بعد اكتشاف الطاقة الذرية.

لما شرحت لجوركي ملخصًا عن نظرية جارنيت، ظل ينقر بأصابعه على المائدة، ويبدو أنه لم يستمع إليّ إلا من باب الذوق فحسب، ولكن اتضح أخيرًا أن الأفكار التي تضمنها هذا الكتاب قد سرحت به بعيدًا، وشغف بها كثيرًا لدرجة أنه طلب مني أن أرسل إليه نسختي ليعيد طبع الكتاب في روسيا، لقد ملأت مناقشات جارنيت المدعمة جيدًا وفروضه، جوركي إعجابًا بذكاء ونبوغ العقل البشري الذي يقول إنه آخذ في إظهار قوته في العالم أجمع يومًا بعد يوم...

حالت المنية بين جوركي وبين البر بوعده فيما يختص بذلك الكتاب الممتع.

فيكتور هوجو

أقيم تمثال لفيكتور هوجو في جزيرة جيرسي Jersey بالقنال الانجليزي، تلك الجزيرة التي أقام فيها عندما نفي من بلاده، أُقيم التمثال في منطقة موحشة فوق صخرة شاهقة تطل على المحيط.

لا يزيد ارتفاع قاعدة التمثال على قدم واحدة، تنمو حولها الحشائش الطويلة الكثيفة فتخفيها عن الأنظار، حتى إن قدمي التمثال لتبدوان مرتكزتين على الأرض، نرى فيكتور هوجو يناضل، غير هياب، ضد زوبعة صاخبة من زوابع المحيط، وقد ارتدى معطفًا يخفق في مهب الريح، وأمسك بإحدى يديه قبعته فوق رأسه، وأحنى ظهره، وعلى مقربة من التمثال توجد الصخرة التي لقي مصرعه فوقها البحار جيليو Jelliot، أحد "مجاهدي البحر."

يمتد المحيط الصاخب على مدى البصر من جميع الجهات حول التمثال، وتتكسر اللجج العاتية على الصخور، تقتلع وتكتسح في طريقها الأعشاب البحرية، وتندفع إلى داخل الكهوف.

عندما يغشى الضباب المنطقة تدوي صفارات الفنار العالية خلال الهواء، وتشق أضواء الخطر طريقها فتنعكس على صفحة الماء، تغمرها من آن إلى آخر الأمواج الضخمة التي تتكسر على سواحل الجزيرة.

في عيد ذكرى وفاة فيكتور هوجو من كل عام، يختار سكان هذه الجزيرة أجمل فتاة لتضع بعض أغصان المخيط عند قدمي التمثال، إذ يعتقد القوم هناك منذ القدم، أن ذلك النبات ذا الأوراق الخضراء البيضية الشكل، يجلب السعادة للأحياء، ويخلد ذكرى الأموات، لقد تحقق هذا الاعتقاد إذ أن

روح فيكتور هوجو الثائرة لا تزال تحلق فوق فرنسا،

كان فيكتور هوجو ثائرًا غيورًا ملتهب الروح، يبالغ في كل ما يراه وما يكتبه، كانت الحياة بالنسبة له توحي بانفعالات عظيمة، فكان يتأثر بها وهو في بيته فيكتب عنها بلغة سامية قد تهواها فرقة موسيقية من الآلات الهوائية يكون هو رائدها الموهوب، بهذه الانفعالات ترسل الأبواق أصواتها الشجية المبهجة، وتدق الطبول المرجلية، وتنساب نغمات الناي المؤنرة، وألحان المزامير العالية. لقد هزَّت النغمات القوية لهذه الموسيقى، الدنيا بأسرها كلجج المحيط المرعدة، وجعلت القلوب الضعيفة ترتجف وتضطرب.

لم يعرف تلهفه حدودًا في إثارة البشرية جمعاء في حنق ضد الظلم، بعواطف جياشة ملتهبة، وفوق كل شيء بإخلاص وتفانٍ للحرية، ذلك التلهف الذي كان يحس به هو نفسه.

عرفت الحرية بطلها الحقيقي في شخصية فيكتور هوجو، عرفت محاميها القدير، ورسولها المتحمس، وشاعرها المتجول، ذلك الشخص الذي يبدو أنه كان يدعو الجميع بقوله: "إلى السلاح، أيها المواطنون، إلى السلاح."!

انقضَّ فيكتور هوجو في الحال على جيله كالعاصفة المدمرة الفظة، التي تجلب معها سيولًا من الأمطار، وأوراق الأشجار المتطايرة في دوامات، وسحب الرعد، ورائحة الأزهار الحلوة، وكذلك رائحة البارود، وجموعًا غفيرة من شارات الأحزاب السياسية ترفرف في الهواء.

بعث في جيله روحًا أطلقوا عليها اسم "الرومانتيكية أو المذهب الرومانتيكي"، فأثارت مياه أوربا الراكدة، فأرسلت إلى هذه القارة بنسيم الأحلام النبيلة العظيمة.

أعجبت وشغفت بفيكتور هوجو منذ أن كنت طفلًا، بعد أن قرأت "البؤساء" خمس مرات متوالية، فلا أكاد أنتهي من قراءة ذلك الكتاب حتى أبدأ في قراءته من جديد في نفس اليوم، وبعد ذلك أحضرت خريطة لباريس ووضعت إشارات على جميع الأماكن التي حدثت فيها وقائع الرواية، أحسست كأنني مشترك في تلك الحوادث، ولغاية هذا اليوم أعز جان فالجان Jean Valjeanوكوزيت Cozette وجافروش Gavroche كأي واحد من أصدقاء طفولتي.

جعلني فيكتور هوجو أعشق باريس بغيرةٍ وحمية كما يحب المرء مسقط رأسه، وعلى مر السنين تغلغلت في قلبي محبة هذه المدينة التي لم أرها قط، فأضفت إلي وصف فيكتور هوجو لباريس، ما وصفه بها بلزاك وموباسان ودوماس وفلوبيرت وزولا وفيون ورمبو Rimbaud وميريميه Mérimée وستندهال وباربوس Barbusse وبيرانجيه.

كنت أحتفظ بدفتر مذكرات مليء بالأشعار التي جمعتها عن باريس، ولكنه للأسف الشديد ضاع مني، غير أنني أحفظ كثيرًا من الأشعار عن ظهر قلب، وكلها تختلف عن بعضها، فمنها الفخم ومنها البسيط:

ستأتي إلى مدينة القصص الخيالية،

المباركة في الصلوات منذ قرون طويلة،

وستشعر بمتاعبك تهجرك

وروحك تنسى أوزارها

بعد ذلك ستسير في حدائق لوكمسبرج،

بجانب النافورات، في الطرق البعيدة

في ظل الأشجار الوارفة،

كما فعلت ميمي في كتاب مورجير.

وهكذا كان فيكتور هوجو هو أول من أوحى إلينا بحب باريس، ولذلك ندين له بالشكر من أجل ذلك الحب، ولا سيما من يسعده الحظ منا برؤية تلك المدينة العجيبة.

ميخائيل بريشفين

لو كان في مكنة الطبيعة أن تعترف بجميل واحد من أخلص من تغنوا بها، لكان ميخائيل بريشفين هو خير من يستحق ذلك.

تعرفه المدينة كلها باسم ميخائيل ميخائيلوفيتش بريشفين Mikhail Mikhailovich Prishvin، أما في الأماكن التي يشعر فيها بأنه في بيته– في أكواخ الحطابين، وفي أراضي المستنقعات التي يلفها الضباب، وفي الحقول تحت القبة الزرقاء أو في الليالي ذات النجوم، فيطلقون عليه في محبة وبساطة اسم ميخاليتش ...Mikhalich لقد آلم سكان تلك المناطق أن رأوه يرحل عنهم – عندما اضطرته الحاجة إلى ذلك الرحيل– إلى المدن لا لسبب غير طويل الخطاف التي تبني عشاشها أسفل السقوف الحديدية لتذكره بأماكن الخلاء.

كانت حياة بريشفين نموذجًا لشخص لم يهتم كثيرًا بالتوافه أو بالعادات والتقاليد، وعاش كما قال عن نفسه تبعًا "لإملاءات القلب"، والحقيقة إن هناك حكمة بالغة في مثل طريقة الحياة هذه، وإني لأعتبر من يعيش هكذا وينسجم مع روحه، مبتكرًا في طرق المعيشة ومجملًا فيها، بل وفنانًا...

لا يمكننا أن نُجزم بما سيكون قد اشتغل به بريشفين لو أنه بقي مشتغلًا بالزراعة تبعًا لتعليمه، بَيد أنه ككاتب استطاع أن يساعد الملايين من الناس على أن يجدوا متعة في الشعر السهل الممتع لدنيا الطبيعة الروسية الذي ابتكره لهم في كتبه، لقد ركز كل قوة ملاحظته على الطبيعة، يشرب نخب جمالها السحري، ويزيد في جزالتها باستمرار، بالتفكير وبالتأمل...

ولو قرأنا بإمعان كل ما كتبه بريشفين، لوضح لنا أنه لا يخبرنا إلا بجزء واحد من مائة جزء مما رآه وعرفه.

كان بريشفين من نوع الكُتاب الذين احتاجوا إلى أكثر من مدة حياتهم لإنجاز ما في أفكارهم... من النوع الذي كان يستطيع أن يكتب قصيدة كاملة عن ورقة خريف واحدة سقطت من شجرة، وإن كثيرًا من هذه الأوراق ليسقط حاملًا معه أفكار الكاتب غير المعبر عنها، تلك الأفكار التي قال عنها بريشفين، إنها قد تسقط على الدنيا بغير عناء كنفس تلك الأوراق.

وُلد بريشفين في يلتس**Yelets** ، إحدى مدن روسيا القديمة، والغريب أنه وُلد في هذه المدينة نفسها الكاتب إيفان بونين**Ivan Bunin** ، وكان من أساتذة الكُتاب عن الطبيعة، واستطاع مثل بريشفين أن يوجد علاقة بين حالات الطبيعة والحالات العاطفية للإنسان.

ربما كان ذلك راجعًا إلى أن المنطقة الريفية المحيطة بمدينة يلتس ذات طابع روسي نموذجي؛ فهي رقيقة مملة حتى في قسوتها، وهذا تعليل ذلك، وهذه الصفات الخاصة بالمناظر الطبيعية هي ما تفسر نظرة بريشفين الثاقبة، فكلما كانت معالم الطبيعة بسيطة وقليلة، كانت أسهل حفظًا في المخ، وأقوى تأثيرًا على المخيلة.

ومعالم الطبيعة المباشرة البسيطة ذات تأثير أعمق من الألوان الفاقعة، ومناظر غروب الشمس الملتهبة، والسماء الزاخرة بالنجوم، والمزروعات الناضرة الخضرة في المناطق الاستوائية بأوراقها الغزيرة وأزهارها الكثيرة.

من الصعوبة بمكان أن تكتب عن بريشفين، وإني لأحبذ نسخ فقرات من قصصه، تقرأها وتلاحظ مواضع الجمال الجديدة في كل سطر من سطورها، ومن

الأمور الممتعة حقًا قراءة كتب بريشفين، إنها أشبه بالسير من ممرات تكاد لا تراها العين، تقودك إلى غابات عديمة الطرقات ذات غدران رقيقة الخرير وحشائش زكية الرائحة، وبينما أنت كذلك تعثر على أفكار متنوعة، وحالات متغيرة، لعقله الصافي وقلبه النقي.

يقول بريشفين، إنه شاعر كرس نفسه على مذبح النثر، بَيد أنه يخطئ في هذا، لأن نثره أجزل في روح الشعر الحقيقية، من كثير من الأشعار والقصائد المطولات.

كانت الكتابة بالنسبة لبريشفين، كما قال هو عن نفسه: "غبطة العثور باستمرار على اكتشافات جديدة"، وهذا سبب نضارة أسلوبه، وفي مقدور هذا الكاتب أن يسيطر على قرائه، وقد بلغ مسمعي قول بعض القراء عن كتبه: "إنه لساحر يسيطر عليك بتعويذته على الدوام."

هذه هي الرقية الغريبة، الرقية التي تنسب غالبًا إلى كُتاب القصص الخرافية، بَيد أن بريشفين لم يكن أحد أولئك الكُتاب، إنه رجل الأرض، رجل "أمنا الأرض الطيبة"، قوي الملاحظة للحياة وللطبيعة، والسر العظيم في قوة بريشفين ككاتب هو مقدرته على قراءة كثير من المعاني في الأشياء التي تبدو تافهة، وهذا يكشف القناع عن الملل الناجم من المعاني الشائعة المبتذلة، ويظهر روعة الخيال والجمال والمعاني الدفينة الكامنة في ثنايا هذه التوافه، فيضفي على كل ما يلمسه لمعانًا شعريًا كلمعان الحشائش الندية.

هأنذا أفتح أحد كتب بريشفين، فاقرأ منه:

"مر الليل تحت بدر ساطع، وجاء النهار يحمل أوليات بلورات الضوء، وباستثناء البرك غير المتجمدة، كل شيء يلمع في بياض

فضي، وعندما أشرقت الشمس ونشرت دفئها على الأرض، اغتسلت الأشجار والأعشاب بالندى، وتألقت أغصان أشجار الشربين في عظمة بارزة من عتمة الغابة؛لدرجة أن جميع ما على الأرض من درر لا يكفي لأن يقوم مقام عمل يد الطبيعة."

وإن هذه الفقرة المترجمة حرفياً دون زخرف ولا تحريف ولا تنميق، لمليئة بالشعر الخالد.

قال جوركي إن بريشفين كان ذا "مقدرة تامة على أن يصبغ التراكيب البسيطة بصبغة الحقيقة الطبيعية".

ومع كل هذا ففي وسعنا أن نقول أكثر من ذلك عن لغة بريشفين، إنه يستعمل المفردات الجزلة التي يستعملها البسطاء من الناس، مفردات تتعمق جذورها في الأرض، في عمليات الأشغال، في صراحة وحكمة الأخلاق القومية.

إن إحساس بريشفين بالكلمات لمدهش حقًا؛ لذلك يقال عن ألفاظه إنها تُزهر وتتألق فتضفي على صفحات كتبه حفيف الأعشاب وخرير الماء وتغريد الأطيار وتألق الجليد، فتستولي على عقولنا ببطء دون أي شك كما تستولي الكواكب على السماء فوق رءوسنا .

ترجع سيطرة نثر بريشفين على القارئ إلى معرفته الواسعة لما يكتبه فالإلمام بالعلوم مساعد قوي للشاعر، وأظن أن الشاعر الملم بقدر كبير من علم الفلك يكون أكثر إنصافًا عند التعبير عن جمال السماء –ذلك الموضوع الذي عشقه سائر الشعراء– فيستطيع عندئذ أن يكتب بمصطلحات صحيحة، في خواص الكواكب، وحركات النجوم– وعلى أساس أقوى وأمتن.

هناك أمثلة عدة على أن أقل المعلومات يعمل على سرعة إحساسنا بالأشياء وتقديرنا لها، وإنني لعلى يقين من أننا جميعًا قد جربنا ذلك وعرفناه.

أما أنا نفسي فيمكنني أن أذكر مثالًا لسطر واحد من قصص بريشفين فسر لي ظاهرة غمض عليّ تعليلها وكنت اعتبرها حتى ذلك الوقت مجرد مصادفة بحتة، لقد فعل ذلك السطر أكثر من تفسيرها لقد أظهر لي حقيقة روعتها.

لاحظت لمدة طويلة أن المراعي التي يغمرها فيضان نهير أوكا) Oka أحد روافد نهر الفولجا) تنمو بها الأزهار في خطوط طويلة ظاهرة، ويمكنك أن ترى بوضوح أن هذه الخطوط تقسم الأراضي وتفصل بين أجزائها، إذا ما أبصرتها من طائرة صغيرة 2 -U كالمستعملة في رش المستنقعات بمساحيق قتل الحشرات، ولم أجد –بطبيعة الحال– تعليلًا لنمو الأزهار في خطوط طويلة؛ ولذلك لم أجهد ذهني طويلًا في ذلك الموضوع.

وجدت التفسير الذي أريده في كتاب بريشفين "فصول السنة"، كان التفسير في سطر واحد ليس إلا– في فقرة عنوانها "الأنهار والأزهار"، وهاك السطر: "أينما تفض سيول الربيع تجد أنهارًا من الأزهار"، ففهمت من فوري أن الأزهار تنمو حيثما تجري سيول الربيع فتخصب الأرض مكونة نوعًا من خريطة للأزهار بمياه الربيع.

يجري نهر دوبنا Dubna على مسافة قصيرة من موسكو، ويمكنك رؤيته على الخريطة، إنه نهر قديم شاطناه آهلان بالسكان منذ أكثر من ألف عام، يجري هادئًا في أراض زرعت بحشيشة الدينار، ويمر بعدة تلال عالية زرقاء، وحقول ومدن وقرى روسية قديمة، مثل ديمتروف Dmitrov وفيربيلكي Verbilkiوتالدوم Taldom ، لقد زار شاطئيه آلاف من الناس من بينهم

الكُتاب والمصورون والشعراء، بَيد أن أحدًا منهم لم يجد شيئًا غريبًا في هذا النهر، شيئًا جديرًا بقلمه أو ريشته، لم يحاول أيهم أن يتعمق في إظهار محاسنه ومواضع جماله.

غير أن بريشفين، في قصصه، جعل نهر دوبنا المتواضع يتألق بكل مجده وسط الضباب الأزرق وغروب الشمس الكالح، لقد اكتشفه من جديد لأجل القارئ كواحد من أجمل أنهار روسيا، ذي حياة خاصة به، ومنظر ينفرد به، فأحيا تاريخه، ووصف عادات سكان شاطئيه.

كان بيننا علماء يكتبون في العلوم بقلوب الشعراء، منهم العالم الطبيعي تيميريازيفTimiryazev ، والمؤرخ كليوتشيفسكي Klyuchevsky والعالم الطبيعي كايجورودوفKaigorodov ، وأستاذ طبقات الأرض فيرزمان Fersman، والعالم الجغرافي أوبروتشيف Obruchev وأستاذ علم الحيوان مينزبيرMenzbir ، والسائح أورسينييفOrsenyev ، وأستاذ علم النبات كوزهيفنيكوف Kozhevnikov الذي مات صغيرًا، ولكنه بالرغم من ذلك حاول إخراج أروع كتاب عن الربيع والخريف في حياة النبات.

وكان بيننا كُتاب استطاعوا أن يجعلوا العلوم جزءًا لا يتجزأ من عملهم، منهم: ميلنيكوف– بيتشيرسكيMelnikov– Pechersky ، وأكساكوف Aksakov، وجوركي، وبينيجينPinegin ، وغيرهم.

ولكن بريشفين، الكاتب اللوذعي العجيب، يقف وحده في مركز خاص به، إذ كان قادرًا على أن يضمن نثره، بمهارة فائقة وبراعة جمة، معلومات واسعة في السلالات، وعلم أثر الطقس في حياة النبات والحيوان، وعلم النبات، وعلم الحيوان، والعلوم الزراعية، وعلم الظواهر الجوية، والتاريخ، وعلم الأساطير والعادات والتقاليد القومية، وعلم الطيور، والجغرافيا، والتاريخ الإقليمي، وغير

ذلك. فظلت المعارف حية باقية في مؤلفاته، تزيد اتساعًا بالتجربة والملاحظة، وزيادة على هذا، كان بريشفين يستطيع أن يرى في الظواهر العلمية، كبيرها وصغيرها، أسمى التعبيرات الشعرية.

عندما كان يكتب بريشفين عن الناس، يخيل إلى المرء أنه يكتب وعيناه تنظران قليلًا إلى أعلى، يحاول أن يتعمق فيما يراه قدر طاقته، وقد استطاع أن ينفذ إلى الأخلاق محاولًا الوصول إلى أعماق الشخصيات التي يصفها، سواء أكانت الشخصية حطابًا أو حذاء أو صيادًا أو عالمًا شهيرًا...

كانت مهمة هذا الكاتب أن ينفذ إلى داخل سياج الشخصية التي يتحدث عنها؛ ليعلم كل ما تصبو إليه وما تحلم به، وما أصعب هذه المهمة! إذ يخفي المرء آماله وأحلامه أكثر مما يخفي أي شيء آخر، وربما كان ذلك لخوف الشخرية منه أو عدم اهتمام السامع بأمره.

لن يخبر المرء غير بأسراره أو بآماله أو بأحلامه أو بأقدس شيء يحتفظ به، إلا إذا وثق تمامًا بمن يفضي إليه بها، وعرف أنه يعطف عليه ويرثي لحاله، وكانوا يثقون دائمًا ببريشفين، وزيادة على ذلك كانوا يعتمدون عليه في الوقوف إلى جانبهم ومساعدتهم .

تتضمن مذكرات ويوميات بريشفين كثيرًا من الأفكار الرائعة عن صناعة الأدب، ومنها عُرف أنه يتحتم أن يكون النثر سهلًا بسيطًا واضحًا ومنعشًا وشعريًا كفصل الربيع، وهذه بالضبط هي صفات نثرية بريشفين، ولذا استحق بجدارة تقدير ومحبة القراء السوفيتيين .

اسكندر جرين

أيام أن كنت تلميذًا، كنا نحن الأولاد نقرأ بشوق سلسلة كتب الجيب التي تصدر باسم "المكتبة العامة" والمطبوعة بحروف صغيرة ومغلفة بغلاف أصفر، والحقيقة أن هذه الكتب الصغيرة الرخيصة كانت تلائمنا كثيرًا وتناسب إمكانياتنا، فمثلًا: كان بالإمكان شراء نسخة من ""تاتارين" تأليف دوديت أو "الغامض" تأليف هامسون بعشرة كوبيكات، وقصة "دافيد كوبر فيلد" تأليف ديكنز أو "دون كويكسوت" تأليف سيرفانت بعشرين كوبيكًا .

قلما تشمل قوائم "المكتبة العامة" مؤلفين روسيين؛ ولذلك عندما اشتريت نسخة من قصة صغيرة نشرت حديثًا بعنوان "شلال تيلوري الأزرق"، ورأيت على الغلاف أنها من تأليف اسكندر جرين، لم أشك في أن المؤلف روسي .

كان الكتاب يحتوي على عدة قصص، وأتذكر أنني فتحته أمام المكتبة التي اشتريته منها وقرأت إحدى فقراته على عجل، وهذا نصها :

"لا يوجد ميناء أكثر فوضى وأعظم بهجة من ليسLiss ، فسكانها يتكلمون عدة لغات، والمدينة نفسها أشبه برجل شريد قرر أخيرًا أن يستقر، ومنازلها قائمة على غير نظام فيما يطلقون عليها تجاوزًا اسم الشوارع، لن تجد شارعًا بالمعنى الذي جرى عليه العُرف لهذه الكلمة في مدينة ليس؛ لأنها بنيت على عدد من الصخور المتشققة، وجوانب التلال، يتصل بعضها بالبعض الآخر بواسطة عدد من درجات السلالم والجسور والممرات الضيقة.

لقد غُمرت المدينة في المزروعات الاستوائية الناضرة، تلقي ظلالها في

أشكال أشبه بالمراوح، يتخللها بريق لحاظ الفتيات الغيورات، فيتكون المنظر من الأحجار الصفراء والظلال الزرقاء والشقوق الوهمية في الجدران العتيقة البالية، وترى في أحد الأفنية الخلفية المتهدمة شخصاً كئيب الوجه حافي القدمين يدخن غليونًا ويعمل في إصلاح قارب ضخم. وتنقل البالوعات إلى سمعك أصوات الغناء من مسافات بعيدة، وتقام الأسواق على الأكوام داخل الخيام وتحت المظلات الكبيرة، فهنا بريق الأسلحة، وهناك منسوجات زاهية الألوان، وتملأ رائحة الأزهار والأعشاب المرء بشوق مؤلم إلى الحب ولقاءات الحب اللذيذة، وأينما سرت أبصرت أرض الميناء تعج بحزم الأشرعة المطوية راقدة في انتظار الصباح لكي تُنشر. وتمتد خلفها المياه الخضراء والصخور الناتئة والمحيط الواسع، أما في الليل فتتألق النجوم بلألاء يخطف الأبصار، وتدوي القوارب بصدى الضحك، هذه هي مدينة ليس كما تبدو لك."!

وقفت تحت شجرة كستناء في كييف وظللت اقرأ، لا أستطيع تخليص نفسي أو الفكاك من تلك القصة الشيقة الأخاذة كالحلم اللذيذ، حتى انتهيت من قراءتها.

ملأتني هذه القصة شوقًا إلى الريح الباردة ورائحة ماء البحر الملحة، وإلى مدينة ليس، وإلى حاراتها الرطبة، وعيون سيداتها ذات اللحاظ اللامعة، وأحجار طرقاتها الخشنة الصفراء المختلطة بقطع من أصداف البحر، وإلى سحب دخانها الوردي اللون المتصاعد في سرعة إلى قبة السماء الزرقاء.

شعرت بشيء أكثر من الشوق، أحسست برغبة ملحة في أن أرى بعيني رأسي كل ما قرأته، واندمج في حياة البحرية غير المقيدة التي وصفها اسكندر جرين.

وفجأة تذكرت أنني أعرف بعضًا من الدنيا المزخرفة التي وصفها جرين،

وبماذا تذكرني مدينة ليس؟ تذكرني دون شك بسيفاستوبولSevastopol ، تلك المدينة التي ظهرت من بين أمواج البحر الخضراء لتلتقي بالشمس الساطعة البيضاء، فقطعتها ظلال أشد زرقة من السماء، تُذكرني بحياة سيفاستوبول المرحة، التي وصفها كتاب جرين.

في أثناء قراءتي كلام جرين، عثرت على أغنية البحارة الآتية:

هناك الصليب الجنوبي يلمع بعيدًا،

فتستيقظ البوصلة الآن بفرح.

بينما السفن التي يحرسها

ليت الرب يحرسنا مثلها!

لم أكن أعرف حتى ذلك الوقت أن جرين كان يكتب أناشيد لقصصه.

إن صفحات قصص جرين لمليئة بالنبيذ المتألق، وضوء الشمس الساطع، والمرح العريض، والمغامرات التي تملأ المرء نشاطًا وقوة وحيوية، وكل ما يجعل الحياة حلوة لذيذة. كانت قصصه منعشة كخطرات النسيم العبقة النادرة التي تنعشك وتخدرك حتى تنتشي وتترنح فوق قدميك بعد خروجك من جو المدينة الراكد الخانق.

كانت هذه أول معرفة لي بجرين، ولم أدهش حين عرفت أنه روسي وأن اسمه الحقيقي هو اسكندر ستيبانوفيتش جرينفسكي Alexander Stepanovich Grinevskyإذ سبق أن وضعته في صف مجموعة الكتاب الروسيين الذين اختاروا البحر الأسود مسرحاً لقصصهم وإلى هذه المجموعة ينتمي إدوارد باجريتسكي وفالنتين كاتاييف وكثير غيرهم .

وما دهشت له هو انه كيف استطاع جرين الذي –كما علمت من تاريخ حياته الذي كتبه عن نفسه– كان رجلًا طريدًا شريدًا وحيدًا ولا نقول سعيدًا، عذبته الحياة، أن ينتج كُتبًا في مثل ذلك الجمال والخيال، وكيف أمكنه الاحتفاظ بثقته بالبشرية، فيقول عند الكلام عن طريقة معيشته إنه كان يرى دائمًا "سحبًا فضية فوق أقذار وأوساخ منازل الفقراء."

كان في مقدوره أن يعبر عن نفسه بأقوال الكاتب الفرنسي جول رينار: "وطني هو الأرض التي تسبح فوقها أجمل السحب".

وإذا لم يكن جرين قد كتب غير قصة "الأشرعة الأرجوانية" وهي قصيدة نثرية، فهذه كافية لأن تضع اسمه جنبًا إلى جنب مع سائر الكُتاب الذين عرفوا كيف يحركون الأفئدة ويسمون بالعقل.

كتب جرين كتبه دفاعًا عن الأحلام، وإنا لندين له بالشكر إذ كان واحدًا من أعظم الحالمين بيننا. أو ليس المستقبل الذي نبني عليه كثيرًا من آمالنا، مولودًا من قدرة المرء الخالدة على أن يحلم وأن يحب؟

إدوارد باجريتسكي

يمكننا أيضًا أن نحذر من يكتبون تاريخ حياة إدوارد باجريتسكي من أنهم سيقضون وقتاً عصيباً في جمع الحقائق عن حياته، والسبب في هذا أن ذلك الشاعر اعتاد أن ينشر أعظم القصص الوهمية عن نفسه، وأصبحت هذه القصص مرتبطة بحياته برباط لا ينفصم لدرجة أنه يصعب الآن التمييز بين الحقيقي منها والخيالي.

وهل هذا ضروري حقًا؟ فما إن يخترع باجريتسكي شيئًا عن نفسه حتى يعتقد تمامًا أنه حدث له حقيقةً، ويجعل غيره يعتقدون ذلك أيضًا، فالحكايات التي رواها قد أصبحت خيوطًا في نسيج حياته، والحقيقة أنه من المستحيل أن ننظر إلى هذا الشاعر ذي العينين الخضراوين الضاحكتين والصوت الموسيقى العذب بدون القصص الغريبة التي كان مغرمًا بأن يحكيها عن نفسه.

كلنا سمعنا عن الليفانتيين Levantines أو سكان سواحل البحر الأبيض المتوسط، أولئك الأقوام المرحين النشيطين المملوءين بمباهج الحياة، وبخاصة من يعيشون منهم على شواطئ بحر إيجة، إنهم خليط من عدة أجناس، أغارقة وأتراك وعرب ويهود وسوريين وإيطاليين.

كذلك عندنا "الليفانتيون"، وهم الذين يسكنون شواطئ البحر الأسود، إنهم يتكونون أيضًا من أجناس مختلفة، ويتمرغون كذلك في مسرات الحياة، وهم شجعان أذكياء يهيمون بحب بحرهم الأسود، بجو شواطئه المشمس الجاف، ومشمشه وبطيخه اللذيذين، وصخب الحياة في موانئه.

كان باجريتسكي نموذجًا لهؤلاء الليفاننتيين، ويذكرنا الآن ببحار كسلان من سفينة خيرسونKherson ، أو صبيان أوديسا الأشرار، خرج لصيد الطيور واللهو، ولكنه أصبح الآن محاربًا باسلًا في جيش كوتوفسكي Kotovsky أو ثايل يولنسبيجلUylenspiegel ، أضف إلى هذه المزايا المتعددة تكريس نفسه للشعر وإلمامًا عجيبًا به، وسأعطيك فكرة عن عظمة هذا الشاعر.

كانت أولى مقابلاتي مع باجريتسكي عند أحد خلجان ميناء أوديسا وكان قد فرغ لتوه من نظم قصيدة عن "البطيخ"، زاخرة بالعواطف الجياشة واللغة القوية، تنقل إلى صفحاتها رشاش أمواج البحر.

وضعنا قصبات الصيد في البحر، وانتظرنا الأسماك تعلق بالشص وهي تأكل الطعم. فمرت بنا سفن ضخمة ذات أشرعة مرقعة، محملة بجبال من البطيخ المخطط، وقد انغمرت في الماء المزبد إلى عمق كبير.

لحس باجريتسكي ماء البحر الملح من على شفتيه، وبدأ يتلو قصيدته الجديدة بصوت غنائي، وكانت عبارة عن قصة فتاة صغيرة عثرت على بطيخة جرفها المد إلى الشاطئ، بطيخة نحت عليها قلب، كما تخيل الشاعر، سقطت من سفينة ضلت طريقها وسط البحر:

ولم يكن هناك من يفسر لها،

أن قلبي هو ذاك الذي تمسكه في يديها.

إن لباجريتسكي ذاكرة فذة إذ يستطيع أن يتلو أشعار أي شاعر عن ظهر قلب، ولا يمكن أن يخطأ إطلاقًا، ولما كان أستاذًا في حفظ الأشعار وإنشادها، فقد كان في مقدوره أن يتلو الأشعار القديمة بطريقة تجعلك تظنها جديدة، لم أسمع أحدًا قبل أو بعد باجريتسكي ينشد الأشعار بتلك الجودة.

كان يعطي كل كلمة وكل سطر موسيقاه السمعية في نشاط وحيوية بالغين، ومهما أنشد من الأشعار، سواء أكانت "جون مطر الشعير" لناظمها بيرنز Burnsأو "دونا آنا" لبلوك، أو "من أجل شواطئ بلدي البعيد" لبوشكين، كنت أصغي إليه وهو يتلوها بحماس بالغ، وتقلص في عضلات حلقه، ورغبة في البكاء.

انصرفنا من الميناء إلى مشرب الشاي بالسوق الإغريقية حيث كنا نأمل في الحصول على بعض السكارين مع الشاي، وكذلك كسرة من خبز "السن" وقطعة من جبن الضأن، إذ لم تتناول طعامًا منذ الصباح الباكر.

كان بأوديسا وقتئذ متسول عجوز يعرف باسم "رعب مشارب الشاي"، وأما الذي جعله رعبًا ؛لأنه كان يلقي الرعب في قلوب رواد تلك المشارب، فهو الطريقة التي كان يسأل بها الناس الصدقات، لم يتذلل قط، ولم يمد يدًا ترتجف كما يفعل غيره من الشحاذين، ولم يقل أبدًا: "أيها السادة الرحماء، ساعدوا متسولًا فقيرًا!" كلا! فإن ذلك العجوز الفارع الطول، النحيف القد، الأشيب اللحية، يمد قامته وعيناه تقدحان بالشرر، وقبل أن يصل إلى عتبة مشرب الشاي يبدأ بصب اللعنات على الرواد بصوت دونه قصف الرعد، وكان يلح في طلبه حتى ليخجل النبي أرميا أشد أنبياء التوراة بأسًا"...

يشرع ذلك الوحش العجوز بأسئلته البلاغية قائلًا: "الكم ضمائر، وهل أنتم من بني آدم؟" ثم يجيب على أسئلته بنفسه، فيقول: "كلا، بكل تأكيد، إذا كنتم تجلسون ههنا، تأكلون الخبز وتتمتعون بالجبن الدسم، بينما يقف أمامكم رجل عجوز أحنى الدهر ظهره، لم يتبلغ بلقمة واحدة منذ الصباح حتى غدا بطنه كناجود فارغ، إن أمهاتكم ليتغبطن في قبورهن حيث لم يعشن ليرينكم تتجردون من الإنسانية، لماذا تتغاضون عني؟ لستم صمًا، أم هل أنتم كذلك؟

أرضوا ضمائركم القذرة وساعدوا رجلًا عجوزًا يكاد يموت جوعًا"!

عندئذ يضع كل فرد، بغير استثناء، يده في جيبه، ويخرج ما فيه من نقود، وتقول الإشاعات إن ذلك المتسول يستثمر الأموال التي يجمعها، في تجارة الملح بالسوق السوداء.

احضر لنا النادل شاياً ساخنًا وجبنًا فاخرًا ملفوفًا بقماش من التيل مرطب بالماء، كان الجبن ملحًا جدًا؛ لدرجة أنه ألهب لثتينا عندما أكلناه.

ما إن رأى باجريتسكي ذلك الوغد يدخل مشرب الشاي ويبدأ خطبته حتى قال: "يا لله! أظن أنني سألقنه درساً هذه المرة. فليأت إلى هنا!"

قلت: "وماذا سيحدث؟"

أجاب باجريتسكي: "سيتمنى لو لم يحضر إلى هنا. انتظر، وانظر!"

كان الشحاذ يتقدم نحونا بخطى وئيدة ثابتة حتى وقف أمامنا كالعملاق يحملق في قطع الجبن التي أمامنا، وكنا نسمع خشخشة في حلقه، كان يختنق غضبًا حتى إنه لم يستطع في أول الأمر أن ينطق بكلمة واحدة، ثم سعل وطهر حلقه، وصاح قائلًا :

"انظروا إلى هذين الشابين، ليس لديهما قطرة واحدة من الحياء، انظروا إلى السرعة التي يلتهمان بها الجبن ولا يعطيان رجلًا عجوزًا تعيسًا ذا مسغبة، ربع كوبيك، ولست أقول نصفًا."

نهض باجريتسكي، واتخذ وقفة وضع فيها إحدى يديه على قلبه، فلما شخصت إليه جميع الأبصار، انشأ يتلو شعرًا في رقة وحزن وبصوت مرتعش ملؤه الرثاء، فقال::

صديقي، أخي، أخي المتعب البائس،

لا تيأس، مهما كنت!

ما كاد المتسول يسمع بضعة سطور أخرى حتى تسمر في مكانه خائر القوى وامتقع لونه. وعندما قال باجريتسكي: "ثق بأنه لا بد أن يأتي اليوم الذي يهلك فيه بال .Baal" استدار على عقبيه، وأسرع نحو الباب وركبتاه ترتجفان، ولشدة ارتباكه قلب كرسيًا كان في طريقه.

فقال باجريتسكي لمن في مشرب الشاي: "أرأيتم! فحتى أمر متسولي أوديسا عودًا واصلبهم مكسرًا لم يطق سماع أشعار نادسون[١] Nadson".

انفجر جميع من في مشرب الشاي يقهقهون.

قضى باجريتسكي عدة أيام يصيد العصافير بالشباك في السهول الواقعة خلف مضيق سوخوي Sukhoi.

علق باجريتسكي في حجرته ذات الحوائط البيضاء بشارع مولدافانكا Moldvanka، عشرات من الأقفاص تحتوي على طيور صغيرة ريفية كان يفخر بها كثيرًا، ولا سيما ما كان يعتبره منها أنواعًا نادرة من القنابر، مع أنها في الحقيقة سلالات عادية لقنابر المراعي ومن نفس لونها وريشها، وكانت قشور البذور التي تأكلها هذه العصافير تطير في الهواء باستمرار وتسقط على رءوس زوار باجريتسكي الذي كان ينفق في إطعامها آخر نقوده.

كانت صحف أوديسا تدفع لباجريتسكي ثمنًا ضئيلًا عن أشعاره الرقيقة حوالي خمسين روبلًا عن كل قصيدة من القصائد التي شاعت بعد ذلك بعدة

---

(١) شاعر روسي (١٨٦٢- ١٨٨٧) مشهور بأشعار التشاؤم.

سنوات، وخصوصًا بين الشباب حتى تغنى بها كل لسان، ومع ذلك فقد كان يعتقد أن ذلك الثمن مناسبًا، لم تكن لديه أية فكرة عن قيمة نفسه، ولم يكن عملياً على الإطلاق، فعند زيارته موسكو لأول مرة لم يذهب لمقابلة أي ناشر دون أن يصحب معه أحد أصدقائه "ليزيل عنه الخجل"، وكان الصديق هو الذي يقوم بأغلب الحديث، بينما كل ما يفعله باجريتسكي هو أن يجلس ويبتسم.

عندما قدم إلى موسكو جاء ليقيم معي في السرداب الذي كنت أسكن بشارع أوبيدنسكيObidensky ، وقد نبهني بقوله: "لا تنتظر مني أن أخرج"، وهذا صحيح إذ لم يخرج إلى المدينة طوال الشهر الذي أمضاه معي سوى مرتين اثنتين فقط، وقضى بقية الوقت متربعًا على أريكة كعادة الأتراك، يستعل حتى ليكاد يختنق من شدة نوبات الربو، وكانت الأريكة حوله مملوءة بالكتب والمخطوطات التي أحضرها له شعراء عديدون، وبعلب لفائف التبغ الفارغة التي كتب عليها أشعاره، وكان بين آونة وأخرى يفقد علبة منها فيكتئب لفترة وجيزة ثم ينسى كل شيء عنها.

قضى باجريتسكي شهرًا كاملًا على هذا النمط، لم يكف خلاله عن الإعجاب بشعر سيلفينسكيSelvinsky ، ويقص عن نفسه أروع الحكايات المثيرة، ويتحدث إلى "صبيان الأدب" أتباعه الأوديسيين الذين كانوا يقدون بمجرد أن يبلغهم خبر مجيئه إلى العاصمة.

ولما أتى ليستقر أخيرًا في موسكو، زود نفسه بأوعية بها أنواع شتى من الأسماك لتحل محل أقفاص العصافير، وعلى ذلك غدت حجرته أشبه بدنيا قاع المحيط، وكان يجلس ساعات على الأريكة مذهولًا ينظر إلى الأسماك وهو شارد الذهن.

ذكرتني أوعية الأسماك هذه بقاع البحر كما شاهدناه من خليج أوديسا، كان بها سيقان الأعشاب البحرية تتأرجح يمنة ويسرة، وقنديل البحر المزركش يذرع مياه البحر في حركات عنيفة.

يبدو لي أن باجريتسكي أخطأ باتخاذه مقرًا دائمًا في موسكو، إذ كان يجب ألا يغادر الجنوب والبحر وأوديسا، وكان متعودًا على طعام أوديسا: الباذنجان والطماطم والجبن والسالمون، وكان يجري في دمه، الجنوب وحرارة الحجر الجيري الأصفر الذي بنيت منه أغلب مباني أوديسا، ورائحة الشيح وماء البحر والفتنة وزبد الأمواج...

مات هذا الشاعر في ربيع الحياة قبل أن يبلغ الذروة في الشعر، ولما يستعد، كما كان يقول، لصعود درجات الشعر العظيمة.

سار نعشه يتبعه كوكبة من الفرسان تملأ الجو بوقع حوافر جيادها على الطرقات المرصوفة بالجرانيت، وقد انتشرت قصائده في طول وعرض جميع السهول والمراعي، ومن أمثلتها: "التأملات في أوباناس "Opanas و"جواد كوتوفسكي"Kotovsky ، ويبدو أن أشعاره كانت تسير معه وهو محمول في رحلته الأخيرة: قصيدة جيش إيجور "Igor و"تاراس شيفتشينكو Taras "Shevchenko، ذات الروائح النفاذة كعبير أعشاب المراعي، والتي لفحتها الشمس كشاطئ الجمال، واللذيذة العناق كالنسيم الذي يهب على البحر الأسود، ذلك البحر الذي كان يعشقه ويهيم به.

فن التمعن في الدنيا

"يعلمنا الرسم أن ننظر وأن نتمعن (والنظر والتمعن شيئان مختلفان قلما يكونان بمعنى واحد) وهذا هو السبب في أن الرسم يساعدنا على الاحتفاظ بالتمعن الخالص في الأشياء حيًا، تلك الحاسة التي يتمتع بها الأطفال"!

اسكندر بلوك

هناك حقائق لا تقبل الجدل تظل خافية لا تظهر آثارها وبسبب كسلنا المتناهي أو جهلنا، يسهو علينا الانتباه إليها.

من هذه الحقائق أن إلمامنا بالفنون الشيقة كالشعر والرسم والهندسة المعمارية والنحت والموسيقى يساعدنا على إنماء نظرتنا الروحية إلى كاتب النثر وإعارة ما يكتبه اهتمامًا أقوى، وإن تألق الأضواء، وألوان الرسم، وعبارات الشعر المنعشة، وتناسق خطوط المعمار، والجاذبية المباشرة للنحت، ومبادئ الموسيقى، لكنوز تضاف إلى النثر الذي هو لونها المتمم لكل منها.

لن أصدق كاتبًا يقول إنه لا تأثير عميق للشعر أو الرسم عليه، وأظن أنه إما أن يكون غبيًا وإما أن يكون عقله خاملًا أو مغرورًا .

لا ينبغي للكاتب أن يهمل أي شيء يساعد على توسيع نظرته إلى الدنيا، إذا كان، بالطبع، لا يعتبر نفسه صاحب مهنة فحسب، بل ومبتكرًا أيضًا، ولا يظن أنه كالنفعيين ليست الكتابة له غير سلم لحياة الراحة، وإنما ينظر إلى نفسه كفنان حقيقي يجعل كل همه أن يمد الدنيا ويزودها دائمًا بكل ما هو جديد وما يستحق التقدير من مبتكراته.

كثيراً ما نلاحظ أنه بعد قراءة قصة أو رواية طويلة، لا يعلق بذهننا منها شيء سوى انتقادنا الفاتر الأحمق لأشخاص الرواية الذين أضفى عليهم المؤلف الصورة التي ارتآها لكل منهم، وإن المرء ليحاول جهده أن يكون منهم صورة فتضيع جهوده هباء منثورًا؛ لأن الكاتب لم يضف إلى كل منهم ميزة خاصة من الحياة الحقيقية، وجعل الحياة التي وقعت فيها أحداث الرواية غامضة غير متناسقة، ليس لها لون ولا ضوء بل مجرد أسماء لأشياء لا يمكن للكاتب نفسه أن يراها فكيف يستطيع أن يطلع عليها القارئ؟

هناك بعض الكتب وضعها مؤلفوها، وكلهم تفاؤل عن متعة القراء فيها وإعجابهم بها، ولاسيما ما يتناول منها الحياة المؤقتة الفاشلة، فتخيب آمالهم إذ يمل الجمهور قراءتها لعدم مقدرة الكُتاب على التمعن في الأشياء والنظر إليها بعاطفة دقيقة.

تشبه قراءة مثل هذه الكتب حبس امرئ في حجرة مزدحمة بالأثاث قد سدت نوافذها، فيتوق إلى تحطيم النوافذ ليشعر بهبات النسيم، ويسمع صوت سقوط المطر، وصياح الأطفال، وصفير القطارات السائرة في المنطقة المحيطة بمنزله، ولمعان طوارات الشوارع المبتلة، ويسمح للحياة بأن تدخل إليه بضوئها وصوتها.

نشرنا بضعة كتب يبدو أن مؤلفيها عميان، ولكن جمهور القراء ليس بحالٍ ما أعمى، ومن هنا جاءت حماقة السماح لمثل هذه الكتب بأن ترى الضوء.

لا يكفي أن ينظر الإنسان حواليه لكي يتمعن، بل ويتعلم كيف ينظر، ولا يتسنى هذا إلا إذا كان المرء يحب وطنه، ويحب شعبه، وليست الرؤيا المطموسة والنثر العديم الروح إلا نتيجة لبرودة دم المؤلف وهي: عرض من الأعراض الأكيدة لفقد الإحساس، وأحيانًا يكون سببها مجرد الافتقار إلى المهارة أو نقص الثقافة، وهذان علاجهما مستطاع.

في مكنتنا أن نتعلم من الرسامين كيف نرى الضوء واللون وكيف نتمعن فيهما، إذ قدرة هؤلاء على النظر خير من قدرتنا، كما أنهم تمرنوا على تذكر ما يرونه أحسن منا.

عندما بدأت أطبع قصصي، قال لي أحد الرسامين: "إنك ترى الأشياء بغير وضوح وبغير تمعن، وإني لأحكم، تبعًا لما قرأته لك، بأنك لا ترى إلا الألوان الأصلية والخطوط الظاهرة فقط، أما الألوان والظلال التي بين هذه فلا تراها، إذ تبدو لك شيئًا متماثلًا مطموسًا ."

فأجبت مدافعًا عن نفسي: "لا يمكنني أن أفعل أكثر من هذا، فهكذا نوع عيني."

قال: "يا للهراء! إن المرء ليحصل على العين الجيدة بالتمرين، يمكنك أن تتعلم كيف ترى الأشياء بالطريقة التي نراها بها نحن معشر الرسامين، ركز عينك على المرئيات، حاول لمدة شهر أن تنظر إلى الأشياء وإلى الناس في الترام وفي السيارات وفي كل مكان وأنت تضع في ذهنك أنك سترسمهم بالألوان، فسرعان ما ستدرك أنك كنت لا ترى بجزء من عشرة أجزاء مما ترى به الوجوه التي حولك عندئذ، وبعد شهرين تستطيع أن ترى الألوان دون أن تجهد نفسك إطلاقًا."

عملت بنصيحة الرسام؛ فهالتني الحقيقة التي تجلت لي، إذ ظهر الناس والأشياء أمامي في ضوء أكثر إمتاعًا مما كنت أراهم فيه من قبل إذ كنت ألقي عليهم نظرة إجمالية سريعة. وأسفت على الوقت الذي أضعته فيما مضى، لقد ضاعت مني إلى الأبد جميع الأشياء الجميلة التي كان في مقدوري رؤيتها في حلتها الرائعة.

وعلى هذا، كان على يد ذلك الرسام أن تعلمت أول درس في كيفية النظر إلى الأشياء، وكذلك كان على يد رسام آخر أنني لقنت أول درس في علم الأشياء.

سافرت من موسكو إلى لننجراد ذات خريف، ولم يكن سفري بالطريق العادي عبر كالينين **Kalinin** وبولوجوي **Bologoye**، وإنما عن طريق كاليازين **Kalyazin** وخفوينايا **Khvoinaya** من محطة **Savyolovsky** سافيولوفسكي. ورغم طول الطريق الثاني فإن الشخص ذا العين الميالة إلى المناظر الطبيعية الجميلة ليجد فيه متعة أعظم مما يجد في الطريق الأول. إذ يمر خلال غابات ناضرة وقرى قليلة السكان.

كان زميلي بمقصورة القطار رجلًا نحيل الجسم ذا عينين ضيقتين زاخرتين بالحيوية والذكاء الجم، وكانت ملابسه تبدو واسعة منتفخة، أما أمتعة فلم تكن سوى صندوق كبير للبويات والألوان، ولفافة من قماش الرسم، فلم يخاطبني أي شك في مهنته. سرعان ما علمت أنه مسافر إلى المنطقة المحيطة ببلدة تيخفين) **Tikhvin** بلدة صغيرة في منتصف الطريق بين موسكو ولننجراد)، وكان يزمع الإقامة وسط إحدى الغابات مع حطاب يعرفه، لكي يرسم مناظر فصل الخريف.

قلت: "لماذا تتجسم السفر إلى منطقة نائية عن العمران مثل تيخفين؟"

قال: "هناك بقعة معينة أريد أن أرسمها، لن تجد بقعة مثلها في أي مكان آخر في الدنيا كلها، إنها غابة تعج بأشجار الحور من نوع خاص بتلك المنطقة، تتخللها بضعة أشجار من الشربين هنا وهناك، وما من شجرة تزيد جمالًا في فصل الخريف على أشجار ذلك النوع من الحور، إذ تتلون أوراقها بالأرجواني الزاهي والأصفر الليموني والبنفسجي، وأحيانًا تصطبغ باللون الأسود المشوب ببقع ذهبية، فعندما تسطع عليها الشمس بأشعتها تتألق في جمال باهر أخاذ،

سأمكث هناك وأرسم حتى فصل الشتاء، ثم اذهب إلى خليج فنلندة حيث منظر الصقيع الأبيض الذي لا يوجد مثله بأي مكان آخر في روسيا..."

اقترحت عليه فكرة كنت مازحًا فيها، أن يؤلف دليلًا للسياح وغيرهم من الرسامين وعشاق جمال الطبيعة، يبين به أحسن مناظر للرسم بتلك البلاد.

أجاب بلهجة الجاد قائلًا: "يمكنني عمل هذا الدليل بغاية السهولة، ولكن الفكرة ليست جيدة بالدرجة التي تبدو بها، إنها ستجذب كل فرد إلى نقطة معينة يختارها حيث يجد الجمال الذي يطلبه، وعلى أية حال ستكون النتائج خيرًا."

قلت: "ولماذا؟"

قال: "هناك آفاق أوسع، وكثير من المناظر الطبيعية الجميلة في روسيا يمكن أن تُشغل جميع الرسامين لبضعة آلاف من السنين" ثم أردف يقول بصوت ينذر بالخطر: "ولكن الإنسان يعمل على هدم روعة الطبيعة وإفساد جمالها، وإن جمال الأرض لشيء مقدس، وشيء بالغ الأهمية في حياة المجتمع، إنه أحد أهدافنا السامية، لست أعرف نظرتك إلى ذلك الجمال، ولكنني مقتنع بها، ولن أحكم على مدى رقي أي رجل إلا إذا كان يفهم كنه ذلك الجمال."

عندما انحدرت الشمس عن خط الهاجرة كنت مستغرقًا في النوم، فإذا بالرسام يوقظني وهو يعتذر عن تطفله هذا بقوله :

"لم أشأ أن يفوتك هذا المنظر. انظر خلال النافذة؛ترَ هذه الظاهرة العجيبة الخلابة– عاصفة رعد في أواخر سبتمبر."

أطللت من الشباك فرأيت سحابة رعد ضخمة تتأرجح في السماء وهي قادمة على ارتفاع منخفض من جهة الجنوب، تحجب نصف السماء وتترنح أسفل ومضات البرق.

صاح الرسام يقول: "ما أرحم الرب! يا له من كنز من الألوان! وتأثير عظيم للأضواء. إن ليفيتان Levitan نفسه لم يستطع رسم منظر كهذا".

قلت: "أية أضواء؟"

أجاب متبرمًا: "في المكان الذي تنظر إليه، انظر في الاتجاه الآخر، تر الغابة سوداء كثيفة إذ قد ظللتها سحابة الرعد، ثم انظر إلى ما وراء هذا تر بقعًا صفراء فاقعة وخضراء ناضرة، نشأت عن انكسار أشعة الشمس خلال السحب، ثم تطلع إلى أبعد من ذلك أيضًا تر الغابة كلها مغمورة في ضوء الشمس كما لو كانت قد صيغت من العسجد الأحمر، إنها أشبه بحائط نُقشت عليه رسوم بالذهب الخالص، أو كمنديل ضخم وشته نساء تيخفين بخيوط الذهب، ثم أدر بصرك نحو خط أشجار الشربين، إنه أقرب إلينا. أترى تألقه البرنزي الناجم عن انعكاس أشعة جدار الغابة الذهبي؟ إنه الضوء لمنعكس! يصعب عليك أن ترسمه لأنه يجب عليك أن تتحاشى الألوان الزائدة. ولا تفوتك نفس هذه الظلال الدقيقة والألوان الباهتة المنتشرة هنا وهناك... يحتاج رسم هذا المنظر إلى يد ثابتة ذات ثقة تامة في مقدرتها على التصوير."

التفت إليّ الرسام بعد ذلك وضحك مبتهجًا وقال:

"إن الأضواء المنعكسة لغابات الخريف عجيبة فيما تحدثه من آثار لقد أشعلت كل مقصورتنا وأضاءتها بلهبها، كذلك أضاءت كل وجهك. أود أن أرسمك على هذه الصورة، غير أن الضوء سيختفي بعد لحظة."

قلت: "ولكن مهمة الرسام أن يخطف صورة عاجلة ثم يجعلها تحيا مدى الأجيال".

قال: "نعم، نحاول أن نفعل هذا إذا لم تفاجئنا الصورة العاجلة بغتةً كما

فعلت الآن. وبالطبع يجب على الرسام أن يصحب معه الألوان وقماش الرسم والفراجين. إنكم، معشر الكُتاب، تمتازون عنا في هذه الناحية. فأصباغكم مخزونة في ذاكرتكم. انظر إلى التغير السريع في هذا المنظر. كانت الغابة ملتهبة بالأضواء برهة ثم غابت بعدها مباشرة في ظلمة حالكة".

كانت السحب المهلهلة تسبح منخفضة أمام سحب الرعد بطريقة جعلتها تظهر في أبهى وأغرب الألوان، من أحمر دموي، وأسمر طوبي، وذهبي، وأخضر زاهٍ، وأرجواني، وأزرق أدكن، مختلفة كلها في منظر الغابة البعيدة. وبين آونة وأخرى يتخلل السحب القاتمة شعاع من أشعة الشمس فيضيء أشجار السنديان في هذه المنطقة وتلك ويجعلها تتوهج واحدة بعد أخرى كأنها ألسنة من اللهب في مشاعل ذهبية، أما الريح التي كانت تدفع العاصفة أمامها فتهب في نوبات أحدثت ارتباكًا عظيمًا في الألوان المختلطة .

قال الرسام: "يا لروعة السماء! انظر إلى ذلك الذي يحدث هناك!"

استدرت لأشاهد ما يحكي عنه فرأيت سحابة الرعد تتقلب في خُصل من الضباب القاتم السنجابي وتنخفض في سيرها رويدًا رويدًا. كانت كلها بلون الأردواز ما عدا الأماكن التي كان يومض منها البرق حيث أحدث أخاديد من الأصفر اللهبي ومغاراتٍ من الأزرق القاتم وشقوقًا متعرجة أضيء وسطها بنور قرنفلي غامض... كان كل خط من خطوط البرق يترك في طريقه لهبًا نحاسيًا مشتعلًا. وكان المطر ينهمر غزيرًا بقرب الأرض بين السحابة الدكناء والغابة...

قال الرسام المتحمس: "وما ظنك في هذا؟ لا يمكن أن ترى كثيرًا من هذه الأشياء الرائعة"!

بقينا نتبادل الأماكن، نطل حينًا من نافذة مقصورتنا، وحينًا آخر من نافذة

ممر العربة، وكانت الستائر التي تعبث بها الريح تزيد في تأثير الأضواء المتأرجحة.

زاد انهمار المطر شدة، فأسرع حارس القطار يغلق النوافذ، وكانت خيوط المطر المائلة تجري على ألواح زجاج الشبابيك، نصب الليل سرادقه الأسود ولف المعمورة في غلالة دكناء حتى غدوت لا ترى سوى خط من الغابة الذهبية، حيث تلتقي الأرض بالسماء، يتألق خلال ستار المطر.

قال الرسام: "أيمكنك أن تتذكر شيئًا مما رأيناه؟"

قلت: "شيئًا واحدًا أو شيئين."

فقال والأسف يملأ نفسه: "وكذلك أنا، لا أذكر غير شيء واحد أو اثنين. سيكف المطر وتصبح الألوان أكثر وضوحًا، وستلقي الشمس أشعتها على أوراق الأشجار التي بللها المطر، وعلى جذوعها. ومن باب العلم بالشيء، إنها لفكرة حسنة أن تدرس الظواهر الضوئية وآثار الضوء في اليوم الغائم، قبل سقوط المطر، وفي أثناء المطر، وبعد هطول الأمطار. إن الظواهر الضوئية لتختلف في كل من هذه الحالات اختلافًا بينًا. فالأوراق البليلة تضفي على الهواء بريقًا ضعيفًا رمادي اللون رقيقًا دافئًا. وإن دراسة الألوان وآثار الضوء عامةً لمتعة أي متعة. ولا أظن أنني أغير مهنتي أو أرضى عنها بديلًا في الدنيا كلها..."

نزل الرسام من القطار ليلًا في محطة صغيرة، فنزلت لأودعه على الرصيف في الضوء الخافت لمصباح بترول، وكانت القاطرة تنفث البخار بأقصى قوة لها.

حسدت ذلك الرسام عندئذ، وساءني أن لدي من شتى الأعمال ما يضطرني إلى الاستمرار في رحلتي ويمنعني من التخلف ولو لبضعة أيام أتمتع فيها بجمال تلك المنطقة الشمالية، حيث كل غصن برنوف يوحي بأفكار تكفي لملء صفحات وصفحات من النثر الشعري.

أسفت بعد تركه إياي على أنني لم أكن كسائر الناس أطاوع حوافز قلبي، إذ يمنعني هذا الشيء أو ذاك، مما لا يحتمل التأجيل، من الاهتمام بأمر طارئ سار كهذا.

ينبغي لك ألا تنظر إلى الألوان وتغير الضوء في الطبيعة مجرد نظرة عابرة، بل يجب أن تمارسها، إذ في الفن وحده لا يفيد الرسام إلا مما تتغلغل جذوره في القلب.

ينمي الرسم في الكاتب معرفة بالألوان وبالضوء، وهواية بهما، وزيادة على ذلك فإن الرسام كثيرًا ما يرى أشياء تفوت أبصارنا، ولا ندركها إلا بعد أن نراها في لوحاته، وعندئذ فقط يدهشنا لماذا لم نلاحظها أو نتنبه لها من قبل.

رسم كلود مونيه **Claude Monet** الرسام الفرنسي كنيسة وستمنستر في أحد أيام لندن الكثيرة الضباب، ولم تكن زخارفها الغوطية واضحة وسط الضباب الذي يلف المدينة، فكانت لوحتها أعظم لوحة لدى ذلك الرسام الشهير.

عندما عرضت تلك اللوحة في لندن خلقت ضجة كبرى ودهش اللندنيون إذ رأوا مونيه قد رسم الضباب باللون القرمزي، ومَن مِن الناس قد سمع أن الضباب يرسم بأي لون غير الرمادي؟ فسخط الجمهور وأرغى وأزبد على جرأة مونيه، بَيد أنه بمجرد أن خرج اللندنيون من صالة العرض ونظروا إلى الضباب بتمعن، رأوا فيه ألوانًا قرمزية حقيقة، فأخذوا يبحثون عن تفسير لهذه الظاهرة فأجمعوا كلهم على أن دخان المصانع في لندن، والعدد الضخم من منازل تلك المدينة المبني بالطوب الأحمر هما المسئولان عن ذلك اللون القرمزي.

ومهما يكن التفسير، فقد علم مونيه أهالي لندن أن ينظروا إلى الضباب

كما نظر هو إليه، فأصبح يعرف عندهم باسم "مبتكر ضباب لندن".

وبنفس هذه الطريقة، بعد أن رأيت لوحة ليفيتان التي عنوانها "السلام الخالد"، تحققت أن اليوم الغائم غني بالألوان، بعد أن كنت أراه فيما مضى مكونًا من لون واحد قاتم، وأظنه يجعل الدنيا تبدو قفرة مجدبة؛ لأنه يحبس جميع الألوان ويُرخي حجابًا كثيفًا على كل شيء .

أما ليفيتان فقد استطاع أن يخلق من ذلك القفر جمالًا عظيمًا باهرًا ذا ألوان نقية عديدة، ومنذ ذلك الحين لم تعد السماء المعتمة تستهويني أو تؤثر في نفسي، فتعلمت أن أحب الجو الصافي والبرد القارس وخرير مياه الأنهار الصاخب والسماء ذات السحب المنخفضة. وفضلًا عن هذا، فإن الطقس الأليم يحث المرء على الاعتراف بنِعَم الحياة البسيطة في الريف وتقديرها حق قدرها– كوخ الفلاحين الدافئ، والنار في موقد روسي، وأزيز جهاز إعداد الشاي ((الساموفار) وفراش من القش فوقه ملاءة من غزل المنزل قد وُضع لك على أرض الكوخ، وصوت سقوط المطر على السقوف وما يحدثه من نعاس لذيذ حلو.

ما من رسام في أي عصر أو مدرسة إلا وكانت له القدرة على إظهار كثير من المعالم الهامة عن تمعنه في الحقيقة هو نفسه.

كان من حسن حظي أني زرت صالات درسدن عدة مرات، وبصرف النظر عن لوحة رافاييل التي عنوانها سيستين مادوناSistine Madonna ، وجدت عشرات اللوحات لقدامى الأستاذة تبهر الناظر فلا يتزحزح من أمامها، كان يمكنني أن أقضي الساعات بل الأيام الكاملة وأنا أنظر إليها، وكلما طال نظري إليها، كان إعجابي بها عظيما. وإذا أردت الحق، كان تأثيرها بالغًا في نفسي لدرجة أنني بكيت؛لأن قطع الأقمشة تلك تمثل ذروة نبوغ الروح البشرية وذكرتني بأحسنهم وأكثرهم نبلًا .

يحرك التمعن في الجمال عاطفة الإنسان وينقيها كما يفعل نقاء الهواء والريح، وعبير الأراضي المزهرة، وسماء الليل، والدموع التي تذرف من أجل الحب، وإنها لتعمل جميعا على توسيع قلوبنا وغرس النبل فيها.

أود أن أقول بضع كلمات عن التأثريين (هم الرسامون الذين يحاولون إظهار الموضوع في اللوحات التي يرسمونها)... يجب علينا أن نشكر تلك الطائفة لأنهم علمونا الدقة في الإحساس بضوء الشمس، كانوا يرسمون في الخلاء، وفي بعض الأحيان كانوا يؤكدون الألوان برزانة واتزان، فتكون النتيجة أن كل شيء في لوحاتهم يسبح في بريق الضوء الساطع. كانت تحيط بلوحاتهم روح الأعياد، تلك اللوحات التي بواسطتها بثوا البهجة في النفوس وزادوا العالم مرحاً على مرح.

ذاع صيت فئة التأثريين في روسيا أيضًا، بَيد أنني أعتقد أنه يمكننا أن نتعلم الكثير منهم ومن غيرهم، ممثلي المدارس الفرنسية للرسم والتصوير. ومع ذلك فأهم ما يجعلنا نوليهم ظهورنا، أنهم لم يهتموا كثيرًا بمادة الأشياء، ولم يختاروا المواضيع التافهة، خلافًا لما جرت عليه أذواقنا من إلقاء نظرة ضيقة على الأشياء. ومن المضحك أو المخجل أن تُعاب لوحة رافاييل الأولى "سيستين مادونا"، تلك اللوحة العظيمة، لأنها تتناول موضوعًا دينيًا لا يوجد رسام في روسيا كلها يفكر في أي عمل لوحة تحاكيها، ومع ذلك فقد كان التأثريون هدفًا دائمًا للنقاد، وما ضرر التعرف بمختلف الرسامين أمثال بيكاسو **Picasso** وماتيس **Matisse** وفان جوغ **Van Gogh** وجوجين**Gaugin** ، وتعلم ما يمكن تعلمه منهم؟ بالطبع، لا ضرر من ذلك ألبتة .

وصلت إلى لننجراد بعد مقابلتي لذلك الرسام بالقطار– لأمعن النظر من جديد في المباني الفخمة المتناسبة الأجزاء، الكائنة في ميادينها الفسيحة، كانت

هذه المباني لغزًا بالنسبة لي، استغرقت وقتًا طويلًا في محاولة حله، كيف تسنى لها أن توحي بمثل تلك العظمة والجمال رغم حجمها الضئيل. ولنضرب لذلك مثلًا: عمارة الموظفين العموميين المواجهة لقصر الشتاء. لا يزيد ارتفاعها على أربعة طوابق، ولكنها مع هذا تفوق في جمالها وفخامتها أية عمارة سامقة ضخمة في موسكو.

أعتقد أن السبب في ذلك هو الانسجام العجيب في نسبها، والإقلال من استعمال الزخارف. وعند التمعن في هذا المبنى من كثب، لا يسع المرء إلا أن يفكر في أن الذوق السليم، هو قبل كل شيء إحساس بالنسبية.

أشعر بأن القوانين التي تتحكم في النسبية في المعمار، وعدم استعمال أي شيء سطحي، والإقلال من الزخارف مع توخي البساطة التي تساعد على إظهار جمال كل خط وتبهج العين كل هذه ذات تأثير مباشر على النثر.

والكاتب الذي يستطيع تقدير القوة الكلاسيكية للأشكال المعمارية، في مكنته أن يلائم بين جميع أجزاء قصته في شكل حسن السبك، متحاشيًا النقل والملل في ترتيبها كما يتجنب الإكثار من المحسنات البديعية وزخرف الألفاظ، تلك المحسنات التي تُضعف من حيوية النثر.

يجب تركيب النثر بحيث يستحيل حذف أو إضافة أي شيء دون الإخلال بسير الحوادث وطبيعتها.

قضيت أغلب وقتي في لننجراد، كما هي عادتي، في المتحف الروسي وفي متحف الهيرميتاج) **Hermitage** قصر كاترين الثانية المستعمل الآن متحفاً للصور واللوحات الفنية). ولما كان الضوء في متحف الهيرميتاج خافتًا ومشوبًا بلون ذهبي قاتم، فقد بدا لي مقدسًا، كنت أعتبر الهيرميتاج كأعظم كعبة للنبوغ

البشري. وحتى في أيام طفولتي كنت أبتهج لزيارة الهيرميتاج، وإنه ليسرني التفكير في العظمة والطيبة التي يستطيع القلب والعقل البشري أن يبلغاها.

شعرت عند أول زيارة لي لبيت الفنون ذاك بأنني قد ضعت تمامًا وسط جميع تلك اللوحات، لقد أطارت ثروة الفن وجماله هذان صوابي وجعلا رأسي يدور؛ ولكي أتمالك نفسي وأستعيد صوابي قليلًا، كان لا بد لي من الذهاب إلى بهو عرضت فيه منتجات فن النحت حيث قضيت وقتًا طويلًا. وكلما أطلت النظر إلى التماثيل الإغريقية القديمة أو إلى نساء كانوفا **Canova** الضاحكات الفاتنات، زاد إدراكي لتأثير النحت على حاسة الجمال فينا.... إن الجاذبية العاطفية التي توحي إلينا من التمعن الطويل في فن النحت، لتقودنا إلى فجر البشرية الحقيقي، إذ كان من الشعر يسيطر على قلوبنا أكثر من كل ما عداه. وإن النظام الاجتماعي الذي نهدف إليه ونتجه نحوه عن طريق العمل الذي قام به الناس في مختلف العصور لمدة سنين طويلة، وإن التجربة وممارسة الفنون لتقوم على أسس راسخة من جمال العدالة وجمال العقل والقلب وجمال العلاقات البشرية والجسم الإنساني.

إننا لنسير نحو عصر ذهبي هو نفسه في طريقه إلينا. وغاية ما في الأمر، أنه يؤسفنا نحن أفراد العصر الحاضر أننا لن نعيش حتى نراه رغم أننا نحس بأنفاسه ونسميه التي تبث فينا السعادة.

من الحقائق التي يعرفها الجميع حق المعرفة، أن هين **Heine** قضى ساعات طوالًا يبكي أمام تمثال فينوس دي ميلو **Vanus de Milo** بمتحف اللوفر.

ولماذا كان يبكي؟ أمن أجل النبوغ الفاني؟ أم لأن الطريق إلى الكمال الذاتي طويل شاق ومليء بالأشواك؟ أم لأنه، وهو الكاتب العظيم هين. الذي أمد قراءه بالشيء الكثير من عصارة العقل وإشعاعاته، لن يصل قط إلى هدف الكمال؟

إن قوة النحت العاطفية لعظيمة جدًا، إنها تحمل معها ضوءً داخليًا بدونه لا تمكن رؤية الفن الراقي والأدب القوي، ولا سيما ما يجب أن ينتشر منهما في بلادنا.

قبل شرح تأثير الشعر على النثر، أود أن أقول بضع كلمات عن الصفة الموسيقية للكتابة، إذ أن الشعر والموسيقى صنوان لا يفترقان. وسأتكلم عن الموسيقى بإيجاز متناولًا القافية وموسيقى النثر.

للنثر الجيد قافيته الخاصة دائمًا، وتحتاج قافية النثر الجيدة إلى ترتيب الألفاظ في الجملة بطريقة تجعل القارئ يفهم الفكرة في الحال دون أي إجهاد ذهني. وقد أكد تشيكوف ذلك عندما كتب لجوركي يقول له: "يجب أن يصل الخيال في التو إلى ذهن القارئ."

لا ينبغي للكاتب أن يبدأ بتغيير مواضع الكلمات في أية فقرة لكي يكون المعنى أكثر وضوحاً. لابد لكل جملة من قافية تصحبها. مما يساعد الكاتب على الاحتفاظ بمتعة القارئ، ويسمح له بالدخول إلى أفكار الكاتب ومشاعره، أن يلتزم القافية السلسلة غير المكسورة، والموزونة جيدًا .

لا أظن أنه بالإمكان إيجاد القافية صناعيًا في النثر، إذ تتوقف القافية على موهبة الكاتب ومدى إلمامه باللغة وتأثر أذنه بنطق الكلمة. والأذن التي تتأثر بنطق الكلمة ذات اتصال بالأذن الموسيقية بطريقةٍ ما، وكذلك بمحبة الكاتب للشعر وفهمه إياه.

يسهم الشعر بقدر كبير في جزالة اللغة، فهو ذو قوة سحرية يستطيع أن يضفي على الكلمة جدة جوهرية عذرية. وإن الشاعر لينفث روحًا حية في الكلمات التي غدت جافة مبتذلة لا تدلنا على شيء. حيوي، بسبب كثرة

الاستعمال وسوء الاستعمال. وإن هذه الكلمات لتبدأ في التألق وعذوبة الصوت بمجرد استعمالها في بيت شعري.

هناك طريقتان لإعادة الحياة إلى الكلمة المهجورة التي ضاعت قيمتها. أولًا– أن تضفي على سمعها الصوتي المعروف بالجرس السمعي، جمالًا جديدًا. والشعر يفضل النثر في القيام بذلك؛ وهذا هو السبب في أن ألفاظ الغناء أو النظم أقوى في التأثير على مشاعرنا من نفس الألفاظ إذا جاءت نثرًا. وثانيًا– مهما كانت الكلمة مبتذلة فإنها تكتسب أهمية عند استعمالها مع كلمات أخرى في النثر. وأخيرًا– نجد الشعر غنيًا بالجناس، وهذه إحدى صفاته العظيمة القيمة، وكذلك للنثر حقه في الجناس أيضًا...

ربما كان أهم ما يجب أن يعرفه كاتب الكلام المرسل، أن النثر المنظوم، ما هو إلا شعر أصيل لا أكثر ولا أقل.

توضح قصة "تامان "Taman التي كتبها ليرمنتوفLermentov ، و"ابنة القبطان" لمؤلفها بوشكين، تبعًا لأقوال تشيكوف، أوجه الشبه الكبير بين النثر والشعر الروسيين.

يقول تولستوي بحمية في مذكرات شبابه: "لا أعرف موضع الحد الفاصل بين النثر والشعر".

ثم يسأل قائلًا: "لماذا كان الشعر والنثر متصلين اتصالًا وثيقًا؟ كيف يتسنى لأحدهما أن يحيا بدون الآخر؟ حاول من فورك أن تخلط الشعر بالنثر، أو تمتع بأحدهما ثم، بعد ذلك، دع نفسك تخضع لسيطرة الآخر. هناك وجه للأحلام يفوق الحقيقة، يفوق ووجه للحقيقة الأحلام. ولا تتم السعادة إلا باتحادهما سويًا..."

هناك فكرة صحيحة في الكلمة التالية، رغم كتابتها على عجل: يصل المرء إلى ذروة الأدب والكمال الصحيح عن طريق التكامل العضوي بين الشعر والنثر، أو على الأصح عندما يتشبع النثر بروح الشعر، بموارده العذبة، ونسميه النقي، وإغراء قوة جماله.

في سيارة نقل

ركبت إحدى سيارات النقل التابعة للجيش من ريبنيتسيون الواقعة على نهر الدنيستر Rybnitsyon- on- Dniester ، قاصداً تيراسبول Tiraspol في شهر يوليو عام ١٩٤١ وقت أن كان النازيون يغزون الاتحاد السوفييتي؛ فجلست في المقعد الأمامي بجوار السائق الذي قلما كان ينطق بكلمة.

سارت السيارة تسابق الريح وترسل من تحت عجلاتها الخلفية سُحبًا كثيفة بنية اللون من الغبار الذي حمصته الشمس. وكان التراب المختلط بحبيبات الأحجار يكسو كل شيء حولنا: من أكواخ الفلاحين ونبات عباد الشمس وأشجار السنط والحشائش الجافة، أما فوق رءوسنا فكان الضباب يحجب السماء العديمة اللون. وكان الماء في قواريرنا المصنوعة من الألومنيوم ساخنًا جدًا وله رائحة المطاط. وكنا نسمع قصف المدافع يدوى خلف نهر الدنيستر.

بين آونة وأخرى، كان الضباط الشبان الجالسون في السيارة يطرقون سقف السيارة بقبضات أيديهم فوق مقعد السائق ويصيحون: "غارة جوية"، وعندئذ يتوقف السائق عن السير فنقفز من السيارة ونجري مسافة قصيرة ثم ننبطح أرضًا على وجوهنا، بينما تئز طائرات مسرشميت وتندفع بقوة فوق رءوسنا.

عندما يلمحنا الألمان كانوا يمطروننا وابلًا من نيرانهم، ولحسن الحظ لم نصب بشيء من قذائفهم طيلة تلك المسافة الطويلة، بل كان الرصاص يسقط في التراب ليس غير، فيهز الأرض حولنا، وبعد أن تنصرف طائرات مسرشميت كنا نحس بأجسامنا تحترق من طول ملامستها للأرض الشديدة الحرارة التي لفحتها

الشمس، كما نحس برءوسنا تطن وبالظمأ القاتل يلهب حلوقنا.

سألني السائق على حين غرة بعد إحدى الغارات، فقال: "فيم تفكر وأنت منبطح هكذا على الأرض؟ أفي وطنك؟"

أجبته بقولي: "أظن ذلك".

قال: "كذلك أنا". ثم سكت قليلًا واستطرد يقول :

"إنني أفكر في غابة كوستروما Kostroma مسقط رأسي. آه، لو أنني سرت من هناك لذهبت إليها واشتغلت حطابًا؛ ولأحضرت زوجتي الوديعة الفاتنة وابنتي. وإن طول تفكير المرء في كل هذا ليؤثر على قلبه، وهذا أمر يضرب السائق ."

قلت: "وأنا أفكر في الغابة التي أحبها".

قال: "وهل غابتك جميلة؟"

قلت: "أعتقد هذا".

جذب السائق قبعته إلى الأمام فوق جبينه، وأخذ ينطلق بالسيارة في سرعة بالغة.

لم أكن أفكر في الأماكن التي أحبها بقدر تفكيري في ساحة الوغى. كنت أنتظر مجيء الليل بصبر فارغ، ثم استسلم كليةً إلى الهواجس والأفكار. كنت أرقد في السيارة وأتغطى بمعطف كبير... وكنت أقول لنفسي وأنا أستنشق الهواء المعطر برائحة الصنوبر: "سأذهب اليوم إلى البحيرة السوداء، وغدًا، إن كنت لا أزال على قيد الحياة، سأتوجه إلى نهر برا Pra أو تريبوتينو Trebutino". وعندما أسرح وتراودني الأفكار، وأتصور فرحي بنزهة خيالية وسط الغابات أو على شاطئ البحيرة أو النهر، يقفز قلبي تاركًا إحدى نبضاته.

ذات مرة بينما كنت راقدًا هكذا ملتحفًا معطفي الضخم، كونت في مخيلتي صورة دقيقة للطريق خلال الغابات حتى البحيرة، كان يخيل إليّ أنه لا يوجد شيء على ظهر الأرض أجمل من رؤية هذه الأماكن مرة ثانية، ناسيًا كل متاعبك وأحزانك، ومصغيًا إلى وجيب قلبك الخالي من الهموم.

تخيلت نفسي في الصباح الباكر أغادر الكوخ الريفي الذي قضيت فيه ليلتي، وأنشأت أتجول في شوارع القرية وقد امتدت على جانبيها الأكواخ العتيقة حيث ترى صفوفًا من علب الصفيح موضوعة على قواعد نوافذها، وزرعت بها النباتات الزهرية المتلألئة التي تبدو كاللهب. وبقرب تلك الأكواخ بئر تقف عندها الفتيات الصغيرات تثرثرن طول النهار وهن يستقين الماء من البئر وسط رنين دلائهن... كنت أعرف أنني سأعرج في طريق جانبي حيث يوجد آخر بيت فيه أعظم الديكة تيهًا وزهوًا لأميال وأميال حول ذلك البيت. وإن ريشه الأحمر ليزيد تألقًا على جذوة الفحم المتوهجة.

هناك خط سكة حديدية ضيقة، عند نهاية صف الأكواخ، يمتد داخل الغابة القريبة، وتنمو على جانبيه نباتات زهرية تختلف تمام الاختلاف عن الأزهار النامية بالمنطقة المحيطة كلها، أما الشيكوريا فغزيرة هناك أكثر مما في أي مكان آخر على طول ذلك الطريق الذي ألهبته الشمس حتى حمصت ثراه. وإلى مسافة أبعد من ذلك يوجد ما ظننته لأول وهلة أجمة عديمة المسالك من شتلات الصنوبر، وكانت أصابعي تتلوث من بقع الراتنجات الغروية التي أفرزتها .

كان في مقدوري أن أرى الحشائش الجافة تنمو في الجهات الرملية من الغابة كأنما هي حقيقية أمام ناظري، حتى لتبدو أعواد الحشيش رمادية اللون عند وسطها، خضراء قاتمة عند أطرافها الحادة كالشفرة. وهناك كميات كبيرة من أزهار نبات الشقائق الصفراء، والجهنمية الحمراء ذات الرائحة الزكية القوية،

والأزهار ذات التويجات البيضاء المقوسة، والمرقطة بنقط قرنفلية اللون، ومجموعة عظيمة من فطر عيش الغراب نامية بغزارة تحت الأشجار.

كانت هناك غابة باسقة الأشجار، خلف الأجمة، يحدها طريق معشوشب. وقد طاب لي الاستلقاء طلباً للراحة، فاستلقيت تحت أشجار الصنوبر الكثيفة الأغصان. وبعد نهاية الأجمة تحس بالهواء رطبًا عليلًا... كان في مقدوري أن أرقد على ظهري وأتطلع إلى السماء لعدة ساعات، وأحس ببرودة الأرض تصل إلى جسمي عن طريق قميصي، فأشعر بالاطمئنان إلى الدنيا وأنا أراقب مرور الغمام غير المنقطع، بحوافه اللامعة المتعرجة، وأحس بالنعاس يداعب جفوني. وبينما أنا مستلق هكذا، جالت بفكري أشعار بريوزوفBryusov ؛

لكي تكون وحيدًا، في مطلق الحرية

وسط الهدوء الشامل للحقول الواسعة،

ولتسير حرًا في طريقك، وفي ملكوت أبدي

لا تشغل بالك بالمستقبل ولا بالماضي

بل تجمع الأزهار المتفتحة الناضرة،

وتستقي من أشعة الشمس، وكخاتمة الحب

تسقط وتموت وتختفي وسط الظلام

ثم تعود إلى الحياة غير نادم ولا جذلان "ثانيةً....

إن في هذه الأشعار –رغم ورود ذكر الموت بها– كثيرًا من مباهج الحياة حتى إنها لتملؤك رغبة في الاستلقاء بالغابة والنظر إلى السماء.

ثم تستيقظ بعد ذلك– وتسير متتبعًا الأثر الممتد خلال غابة من أشجار

الصنوبر نامية على جوانب الكثبان الرملية المتموجة كأنها اللجج العاتية فوق سطح الخضم المترامي الأطراف، وإن هذه الكثبان لمن بقايا العصر الجليدي. وكانت تنمو على قممها أزهار الأجراس الزرقاء، وعلى سفوحها بساط سندسي من الأعشاب ذات الأوراق المزركشة من ظهورها بنقط حمراء تشبه ذرات التراب. ما أجمل زروع الغابة على جوانب الكثبان في مخيلتي وقد غمرتها أشعة الشمس الذهبية –كانت كلسان من الغابة يمتد إلى مسافة بعيدة، وخلفه حقول الغلال الناضجة تهتز سنابلها في حركة تموجية مع الريح. ثم تمتد الحقول بدورها بعد ذلك داخل غابة صنوبرية كثيفة الأشجار. وكانت السحب تخيم فوق الحقول خاصة في صورة رائعة الجمال تخلب الأفئدة وتأخذ بمجامع الألباب– وربما كان هذا راجعاً إلى أنك تستطيع في ذلك المكان أن ترى مساحة شاسعة من السماء ممتدة إلى الأفق.

كنت أرى نفسي أجتاز الحقول سائرًا في طريق تكسوه الحلفاء يمر وسط بقع فسيحة من الغلال تتخللها من حين إلى آخر بعض أزهار الأجراس الزرقاء، تبرز من بين الأعشاب هنا وهناك.

تلك كانت الصورة التي ارتسمت في مخيلتي ورأيتها وأنا غارق في بحار من التأملات. وإنها لتوضح، في هيئة غامضة، جمال الغابات كما كنت أعرفه، يشبه السير في الغابات، نسيان المرء نفسه في كنيسة ضخمة ظليلة. فتسير أولًا في ممر بجوار بركة يكسوها بساط أخضر من أعشاب البط، وتسبح في مياه البركة نفسها أسماك البوري تقضم الأعشاب المائية. وخلف هذه الأجمة صف من أشجار الزان تغطيها الطحالب الخضراء الناعمة كالمخمل، لها رائحة أوراق الأشجار الساقطة في الخريف الماضي.

استأنفت تأملاتي فوجدتني أنتقل إلى بقعة صغيرة وسط تلك الأجمة، من

النوع الذي يقفز له قلبي طربًا دائمًا.

تخيلت كل ذلك في هدأة الليل، أثناء نسف إحدى محطات السكة الحديدية القصية، إذ أمكنني سماع قصف انفجار القنابل، وبعد أن خفت ذلك الصوت، بلغ مسمعي طنين الحشرات المجنحة في جبن مذعورة من قصف القنابل. وكنت أراقب نجمًا أخضر وهو يهبط، وأسأل نفسي هل سيحدث انفجار؟ بيد أن النجم اختفى في هدوء وقد خُيل إليّ أنه سيحتك بالأرض. بعد ذلك أخذت أفكر في المسافة الطويلة التي تفصلني عن الأماكن التي أحبها أعظم الحب وأروعه. وكان الليل يعسكر هناك أيضًا، ولكنه ليل يختلف عن ليلنا– فهو ليل هادئ تتلألأ كواكبه المطمئنة، ليس به رائحة البنزين ولا المتفجرات، بل عبير غدران الغابات وأريج نبات العرعر.

بعد ذلك شرعت أسير خلال الأجمة فإذا بي أمشي في طريق عظيم الارتفاع يصعد إلى كثيب رملي. فتركت خلفي الأراضي المنخفضة الرطبة، والتقيت بنسمة خفيفة حملت إليّ عبير تلك المنخفضات العليل، متجهة نحو الغابة الكثيفة الشديدة الحرارة. فاستلقيت لأنام للمرة الثانية وأنا على ذلك الارتفاع، فافترشت الغبراء الساخنة وشعرت بأن كل ما حولي جاف دافئ– مطر الصنوبر القديمة الخاوية، ولحاء أشجار الصنوبر الغض، إذ كان كل فرع صغير وكل جذع شجرة، متعفنًا حتى نخاعه، وحتى التويجات الدقيقة لأزهار الفراولة كانت دافئة أيضاً. وكنت إذا أمسكت بأية قطعة من جذوع الأشجار هناك، تكسرت في سهولة ويسر. أما الأخشاب المتعفنة فكانت تستحيل إلى تراب بمجرد أن تمسكها في يدك.

كان يومًا هادئًا ساكن الهواء قائظ الحرارة نشر عليه الصيف كامل جفافه.

كانت ذبابات أسد المن الصغيرة ذات الأجنحة الدقيقة الحمراء ناثمة على

جذوع الأشجار. وإذا وقفت الزنابير على أزهار الغابات الأرجوانية، سقطت تويجاتها على الأرض في الحال.

كنت أبين مكاني على خريطة من صنع يدي، وكان عليّ أن أسير ثمانية كيلو مترات أخرى حتى أصل إلى البحيرة السوداء.

كانت علامات الطريق التي أمر بها موضحة على الخريطة– شجيرة زان جافة ملقاة على جانب الطريق، وعامود بيان المسافات، وبقعة زاخرة بأعشاب الغابات، كثيب من كثبان النمل، وحفرة مملوءة بأزهار آذان الفار، ثم شجرة صنوبر حُفر على لحائها الحرف الأول من كلمة "بحيرة". كان ينبغي على المرء أن ينعطف إلى الغابة عند شجرة الصنوبر تلك، وكان يعرف طريقه خلالها بواسطة علامات نُقشت في جذوع الأشجار سنة **١٩٣٢** يطمسها الصمغ شيئاً فشيئاً، ثم تُجدد في كل عام. أتذكر أنني كلما مررت بإحدى هذه العلامات كنت أقف وأتحسس الصمغ الجاف الكهرماني الشكل بيدي. وأحيانًا كنت أكسر قطعة منه وأتفحص الضوء الأصفر لأشعة الشمس المنكسرة خلالها.

وفي أثناء الطريق إلى البحيرة كانت الحفر العميقة تقسم الغابة إلى أقسام– وأغلب تلك الحفر بحيرات جف ماؤها، وامتلأت بقطع كثيرة من شجيرات الحور الأسمر جعلتها متعذرة الاجتياز في أغلب الأماكن. بعد ذلك يصعد طريق خلال غابة العرعر وتوت العليق. وأخيرًا، عند آخر علامة للطريق وجدت زوجًا من الأحذية المصنوعة من ألياف الأشجار معلقاً من فنن صنوبر. وبعد أن قطعت ممرًا ضيقًا شديد الارتفاع، بلغت نهاية الغابة حيث استرحت لآخر مرة. كنت أسمع أزيز الطائرات بعد الظهر كما لو كان هناك سرب من النحل، وكانت قمم الأشجار تهتز لأقل حركة في الريح.

بعد مسيرة ميل ونصف ميل، وصلت إلى البحيرة السوداء، وهي متسع

عظيم من الماء القاتم تتخلله بقايا جذوع الأشجار ومجموعة ضخمة من آس الماء ذي الأزهار الصفراء. وكنت أعلم أنني لا بد أن التزم الحيطة والحذر وأنا أسير خلال المستنقعات البعيدة الغور، إذ تنتشر فيها بقايا جذوع أشجار الزان المسننة، هنا وهناك، بحيث يحتمل جدًا أن أتعثر فيها وأقع وسط الماء فتجرحني. كان الهواء ثقيلًا ساكنًا لا يتحرك ومليئًا برائحة العفن وكانت قطع فحم البيت تتحطم تحت قدمي، وتنزلق بي أعواد النبات عند كل خطوة أخطوها. كان عمق برك البيت حوالي ياردة، ولا يمكن التكهن بما إذا كان الماء بعدها عميقًا أو ضحلًا– فقد تصادفك ما يسمونها "بركة تحت الأرض" بها أسماك أبي مغازل الأشد سوادًا من الفحم. كانت شواطئ البحيرة مرتفعة قليلًا عن الأراضي المحيطة بها، وعلى ذلك كان الطحلب أكثر جفافًا. وما كنت لتسير طويلًا حتى تغوص قدماك من آن إلى آخر، في مكان أعمق، وتتكون حولك بركة...

كان من الخير أن تخرج إلى شاطئ البحيرة في الساعات الأخيرة للشفق الأحمر عندما يبدو كل شيء حولك –بريق الماء الخافت، ولألاء أول نجم يظهر في السماء، والسماء المائلة إلى اللون الرمادي، وقمم الأشجار الثابتة الساكنة– بارزًا في هدوء، يترنح كأنما قد وُلد من ذلك الهدوء... ولما كنت قد بلغت وجهتي، حُق لي أن أجلس وأوقد نارًا وأصغي إلى طقطقة فروع الأشجار، وأتأمل في لذة الحياة ونعيمها، إذا لم يتطرق إلى قلب الإنسان أي خوف، وكان يحيا بملء قلبه.

وهكذا غرقت في تأملاتي، أتجول خلال الغابات. ثم على شواطئ نهر نيفا Nevaفي لننجراد أو بين التلال التي أضفى عليها الكتان المزهر لونًا أزرق، وعبر الأراضي الوعرة المسالك حول بلدة بسكوف Pskov وفي ربوع أماكن أخرى عديدة.

أفكر في هذه الأمكنة الآن والخوف يتعمق في قلبي كما لو كنت قد تركتها ولن أعود إليها إلى الأبد، وربما كان هذا ما جعلها تبدو لي أجمل مما هي عليه حقيقة. وأدهشني عدم إدراكي لجمالها فيما مضى، وتحققت أن بُعد الشقة بيني وبينها هو في الحقيقة الذي زاد في قيمة هذه المناظر الجميلة التي كنت أعرفها حق المعرفة وتعمقت الآن في مخيلتي أكثر من أي وقت مضى. وثبت كل شبر من تلك المناظر في المكان المخصص له تمامًا كما تأتلف النوتات الموسيقية في تناسق وانسجام.

ولكي نوفي مباهج الطبيعة حقها من الإجلال يجب أن نبحث في حياتها عن طرقها التي تماثل ما نشعر به في أفراحنا وأحزاننا، لكي تعلق بدائرة ذهننا، بعد ذلك يذكرنا نسيم الصباح العليل والضوء الذي تقدسه عيوننا، وحبنا لتلك الغابات الحبيبة ذات الحفيف، والأصوات الموزونة، أن كل هذه تشبه ضربات القلوب في حياتنا. وليست أوصاف الطبيعة حشوًا في أسلوب النثر ولا زخرفة تُحشر فيه حشرًا وإنما يجب أن تكون كأكوامٍ من أوراق الأشجار المبللة بالمطر ندفن فيها وجوهنا ونحس ببرودتها اللذيذة ورائحتها العبقة .

وبعبارة أخرى يجب أن تحب الطبيعة، حبًا كأي حب آخر، يجد طرقه الحقيقية في التعبير عن نفسه بأعظم قوة.

كلمة إلى نفسي

هأنذا أنتهي الآن من كتابي الأول لمذكرات صياغة الأدب، وأنا اشعر بأن كل ما أوضحته به ليس إلا جزءًا لا يذكر مما يجب أن يقال في هذا الموضوع الواسع الخلاب؛ ولذا لن أكتفي به بل سأناقش عدة مسائل في هذ المضمار، منها– الجانب الخاص بفلسفة جمال أدبنا، وأهميته البالغة كأدب يجب أن يسهم في تكوين الجيل الجديد، والكائن الغني عقلًا النبيل قلبًا، وعلم الأشياء، والفكاهة الأدبية و المجون الأدبي، والوصف وتصوير الشخصيات، والتغيرات التي طرأت على اللغة الروسية، والصفات الشائعة للأدب، والمذهب التصوري، والذوق السليم، وكيف تؤلف كتابًا من نسخة خطية– وغير ذلك من المسائل العديدة الأخرى..

كان العمل في هذا الكتاب على صورة رحلة خلال أرض لا نعرف عنها سوى القليل، حيث تظهر في كل خطوة مناظر جديدة وطرقًا جديدة لا يدري المرء إلى أين تقوده، ولكنها زاهرة بالمفاجئات التي تمد الفكر بالغذاء. ولكي نحصل على فكرة ما، قد تكون غامضة سطحية، عن هذه الطرق المتشعبة المتشابكة، يجب أن ترتاد تلك الأرض إلى مدى أبعد، على شرط أن تتابع السير فيها وتستمر في التطواف بها.

الفهرس